سلسلة نصوص التراث السياسي

مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي
Ibn Al Azraq Center for Political Heritage Studies

الأسد والغوّاص

حكاية رمزية عربية
من القرن الخامس الهجري

اعتناء

د. رضوان السيّد

إصدارات إبن الأزرق

سلسلة نـصــوص التراث السياسي:

- البرهان في فضل السلطان.
- كتاب الاشارة إلى أدب الامارة.
- قوانين الوزارة وسياسة الملك.
- المختار من كتاب تدبير الدول.
- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك.
- الجوهر النفيس في سياسة الرئيس.
- تُحفة التُرك فيما يجب أن يُعمل في المُلك.
- الأسد والغوّاص.
- الدرة الغــرّاء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء.
- العقد الفريد للملك السعيد.
- نصيحة الملوك.
- كشف الإلباس في السياسة.
- سياسة الملوك.
- معرفة السياسة والرئاسة.
- السياســة الشرعيــة في مــا يصلــح الراعي والرعية.

سلسلة بحوث ودراسات التراث السياسي:

- أفكار في التنمية السياسية.
- بداية السياسة.
- دليل مصنفات السياسة الشرعية والأحكام السلطانية.
- معجـم مصطلحــات السياســة الشرعيــة والأحكام السلطانية.
- اتجاهــات الباحثـين في السياســة الشرعية والأحكام السلطانية.
- ثلاثون مقالة في السياسة الشرعية والأحكام السلطانية.

يهدف مركز **ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي**، إلى تحقيق رؤية هادفة في التحديث والتطوير وفق أسس الثقافة الإسلامية النابعة من تجربة تاريخية رائدة، وغير متعارضة مع التجربة الإنسانية الممتدة منذ نشأة الخليقة، وخصوصاً فيما يتعلق بتحليل أسباب التخلف والغياب الحضاري وتقديم بدائل إصلاحية تتصل بالقضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والنظام السياسي والاقتصادي والحكم الرشيد.

إن مركز ابن الأزرق، رؤية وأهدافاً وفريقاً، يتطلع من وراء إصدار سلسلة النصوص والدراسات التي يصدرها إلى عدّة أمور:

- وضع نصوص التفكير السياسي الإسلامي القديم في متناول الباحثين والدارسين في تاريخ الفكر السياسي الإسلامي والسياسة الشرعية، من أجل التعريف العلمي بمناهج وطرائق الفقهاء والمتكلمين وأهل النظر العقلي في نظرية الدولة والمجتمع السياسي في الإسلام.
- تمكين طلاب العلوم السياسية والسياسة الشرعية من الاطلاع على مصادر الفكر السياسي الإسلامي وتياراته ومدارسه، لكي يتخذوها موضوعات لبحوثهم واجتهاداتهم.
- إتاحة الفرصة لأهل الرأي والقرار، - استناداً إلى هذه الذخائر - لقراءة التجربة السياسية العربية الإسلامية بأقلام أعلامها.
- الإسهام في إنتاج نظرية سياسية إسلامية معاصرة في ضوء النصوص السياسية الإسلامية الكبرى وذات الدلالة في التجربة الإسلامية الكلاسيكية.
- تصحيح النظر إلى التفكير السياسي الإسلامي ضمن الفكر الإسلامي العام وضمن الفكر السياسي العالمي في القديم والحديث.
- نشر بحوث ودراسات متخصصة في موضوعات الفكر السياسي الإسلامي والسياسة الشرعية، والترجمة عن اللغات الحيّة في الموضوعات نفسها للتواصل والتطوير وإثراء المعارف.

رئيس الهيئة الاستشارية

د . رضوان بن نايف السيد

المؤسس

د. يوسف بن عثمان بن حزيم

www.yalhuzaim.com

مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي
Ibn Al Azraq Center for Political Heritage Studies

شركة ابن الأزرق للنشر
Ibn Al Azraq for Publishing Co.
www.ibnalazraq.com

الأَسَــدُ والغَــوَّاص

الأســد والغــوّاص

حكاية رمزية عربية من القرن الخامس الهجري

تحقيق: رضوان السيّد

موضوع الكتاب: 1 – مرايا الأمراء 2 – فكر سياسي
3 – آداب السياسة 4 – نصائح الملوك

الطبعة الثالثة

1432هـ/2012م

الترقيم الدولي المتسلسل: ردمك
ISBN 52-87000-41431-9

مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي

بيروت - لبنان

Ibn Al-Azraq Center for Political Heritage Studies
Beirut - Lebanon
www: ibnalazraq.com
E-mail: ibnalazraq@yahoo.com

الأسَدُ والغَوَّاص

حكايةٌ رمزيةٌ عربيّة
من القرنِ الخامِس الهِجري

باعتناء

الدكتور رضوان السيّد

مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي
Ibn Al Azraq Center for Political Heritage Studies

حكاية الأسد والغوّاص
بعد ثلاثة عقود

أذكر أنّ الراحل بشير الداعوق صاحب "دار الطليعة"، أراني أواخر العام ١٩٧٧ أو مطلع العام ١٩٧٨ مخطوطةً مصوَّرةً من المكتبة البلدية بالإسكندرية عنوانها: **الأسد والغوّاص**، لمؤلّفٍ مجهول. وقد وضع لها أستاذ التاريخ الحديث ذَوقان قرقوط مقدمةً بخطّه في ثلاث أو أربع صفحات. وقد سارعْتُ إلى تصفُّحها في مكتبه ثم رميتُها جانباً وقلت إنها فيما يبدو إحدى المخطوطات المتأخرة لكليلة ودمنة أو أنها نسْجٌ على منوالها. وقد خطر لي بعدما غادرْتُ المكتب أنها ربما تكون مخطوطةً لحكاية "النمر والثعلب" لسهل بن هارون، فتكون كشفاً بحدّ ذاته، لأنني ما كنتُ أعرف أنّ أحد العلماء التونسيين اكتشف مخطوطةً للحكاية، وأنه عاملٌ على تحقيقها. وعدتُ إلى المكتب فضحك المرحوم الداعوق وقال: هل غيَّرتَ رأيك؟ والتقطْتُ النسخة

من جديدٍ وتصفحتُها فأدركْتُ أنه لا وجود للنمر والثعلب فيها، كما أنها وإن تكن متفقةً مع "كليلة ودمنة" في الحكاية المحورية أو الحكاية - الإطار، فإنّ المغزى والمقاصد شاسعة الاختلاف بين الحكايتين. وأخذتُ المصوَّرة وابتدأتُ بنسْخها بنشاطٍ، فغمضت عليّ ألفاظٌ وعباراتٌ كثيرة، ولاحظْتُ وجود بياضاتٍ بمقدار كلمةٍ أو كلمتين، وسقطاً في آخِر المخطوطة ما استطعتُ تقدير حجمه وطوله. وكنتُ وقتَها منصرفاً لتحقيق كتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر للماوردي وقوانين الوزارة له، فخطر لي بعدما اكتشفْتُ أنّ حكاية الأسد والغوّاص منسوخة أو مكتوبة حوالي العام ٥٣٠ هـ، أمرين اثنين: أنّ بين الماوردي وصاحب الأسد والغوّاص علاقةً من نوعٍ ما، وأنّ الحكاية وإن اتخذت شكل "مرايا الأُمراء" أو نصائح الملوك، هي أدنى إلى الكتابة الفقهية في العلاقة بين الفقيه والسلطان، وأنّ صاحبها إنما اختار هذه الصيغة (الحكاية على ألْسِنة الحيوانات)، لأنّ من ضمن اهتماماتها (إلى جانب الحكمة العامة والمجاز وأدب الحياة وستر الأغراض عن العامة) العلائق وتوتراتها وإشكالياتها بين المثقف (المستشار أو الوزير) - والسلطان.

إنّ الباقي في حكاية "الأسد والغوّاص" من جنس مرايا

الأُمراء الذي أَسَّست له بالعربية "رسائل أرسطو المنحولة إلى الإسكندر"، وكليلة ودمنة، وعهد أردشير، والعهود اليونانية؛ الطابع الدائم والدهري والمستقرّ للمُلْك باعتباره كما قال الغوّاص: "جِبِلَّة وسعادة". وهذا أساسٌ خالدٌ للشرعية يُخرجُ الثورةَ على السلطة من مواقع الاعتبار لدى المتديِّنين والعقلاء على حدٍ سواء. وهكذا فالذي يبقى للنُخَب الدينية والثقافية المعنية بالإصلاح العمل باتّجاهين: اتجاه خدمة السلطة بالمساعدة بالنصيحة والمشورة على حلّ المشكلات بين الراعي والرعية على اختلاف فئاتها، واقتراح سياسات للتلاؤم الداخلي، ومواجهة أعداء الخارج، والاتّجاه الآخَر العمل لدى النُخَب والعامة للإقناع بسياسات السلطان، وشرح فضائل الاستقرار. فالأدنى إلى فهم الواجب الذي يضعُهُ المُشاوِرُ والمُشاوَرُ على عاتقه تُجاه السلطان نُصْحُهُ بالعدل وحُسْن السياسة بالداخل، والحيلة وقوة الشكيمة مع الخارج. والعدلُ لا يعني العدالةَ القضائية بل التصرف تجاه كلِّ طبقةٍ بما يُلائمُها؛ بينما يرمي تطلُّبُ حُسْن السياسة إلى التصرف إزاء الرعية والعامة بالشفقة والرحمة دونما إلغاء مبدأ الثواب والعقاب. وقد يتطلب الأمر إظهار الجوانب الصلبة بالداخل وعلى الأخصّ بالخارج، بيد أنّ المحظور الذي ينبغي تجنُّبُهُ بالداخل التشدُّد المفرط بحيث تلجأ النُخَبُ للتمرد والخروج.

فالعامة تهيج، والنُخَبُ تتمردُ وتخرُجُ وتثور، والذي ينبغي تجنبه أكثر المغامرة بدخول الحرب مع عدوٍ خارجيٍّ، لما في ذلك من مخاطر الهزيمة وضياع الدار والسلطة والسلطان. لذا فالأفضل في مواجهة الاضطراب بالداخل العدلُ وحُسْنُ السياسة، ومع الخارج الحيلةُ وتسقُّطُ الأخبار، وإحداثُ الاختلال في صفوف العدوّ بالمال وبُعد النظر في التقدير والتدبير.

هذه هي الاتجاهاتُ العامّةُ لأدبيات "مرايا الأُمراء" Fürstenspigel، وهي أدبياتٌ كلاسيكية عُرفت لدى الإيرانيين القُدامى، والهنود القُدامى، وفي الأزمنة الهيللينية اليونانية - الرومانية - البيزنطية، كما شاعت بين المسلمين، وفي أوروبا العصور الوسطى. وقد عرفها المسلمون عبر أربع صِيَغ: **الحكايات على ألسنة الحيوانات**، وأساسُها الترجمة التي قام بها عبدالله بن المقفَّع للحكايات المعروفة بـ "كليلة ودمنة" عن الفارسية الوسيطة، وهي مترجمةٌ في الأصل عن الهندية. وقد نسج المسلمون على منوالها عدة حكاياتٍ منها حكاية "الأسد والغوّاص". **والصيغة الثانية**: كتب التاج والآيين المترجمة عن الفارسية أيضاً، وهي تتحدث عن سِيَر ملوك الفرس القُدامى والآداب التي استنُّوها في إدارة السلطة في

سائر الشؤون. وقد دخلتْ في كتب التاريخ العامة عند المسلمين لأزمنة ما قبل الإسلام، كما دخلت في كُتُب السَمَر والآداب. **والصيغة الثالثة**: الرسائل والعهود والوصايا، مثل رسائل أرسطو المنحولة والتي يقال إنه وجهها إلى الإسكندر، والعهد المنسوب إلى أردشير بن بابك مؤسّس الدولة الساسانية، وما عُرف بالعهود اليونانية. وقد صاغ المسلمون على منوالها رسائل ووصايا وعهوداً في الآداب السياسية. **والصيغة الرابعة**: الكتب ذات الفصول المتعددة؛ في العدل، في الكَرَم، في الصدق، في السياسة، في الحرب... الخ ونموذجُها الأول كتاب "سر الأسرار" المنسوب إلى أرسطو وهو منحولٌ بالطبع، وقد كتب المسلمون مئات الكتب والرسائل ذات الفصول على هذا المنحى. وبالطبع كلُّ هذه الكتب جرت أَسلمتُها بمعنى المزج داخل الفصول بين الحِكَم والعِبَر والقصص الكلاسيكية والأُخرى الإسلامية. ولسنا نعرفُ بالتأكيد مدى التأثير ولا الوظائف التي مارستْها الصِيَغُ جميعاً في مجالنا الثقافي أو في المجال الأوروبي الوسيط، لكنّ هناك باحثين ينسبون إليها تأثيراً كبيراً، وتأسيساً للاستبداد في المجال السلطوي الإسلامي. وقد اعتبرتُ في كتاباتي فنّ أو جنس "نصائح الملوك" هذا، أحد اتجاهات التأليف في الفكر السياسي الإسلامي؛ إلى جانب أنواع أُخرى في الكتابة

السياسية مثل الأحكام السلطانية (= الفقه الدستوري)، والفلسفة السياسية أو الاتجاه الفلسفي (مثل آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي)، والاتجاه الكلامي أو العقَدي (مثل كُتُب الإمامة وفصولها)، والاتجاه الإداري (كتب الخراج والأموال). والراجح أنّ الكُتّاب الإداريين وموظفي الدولة كانوا المبادرين إلى التأليف في بعض هذه الاتجاهات أو الأنواع، ثم أقبل على الكتابة فيها على اختلاف أنواعها مثقّفون من تخصصاتٍ مختلفة، بحسب الاحتياجات في كلّ حقبةٍ أو عصر.

إنّ الواضحَ من التوجهات المكرورة في جنس أو نوع الآدابيات السلطانية هذه، أنّ المقصودَ بها ما كان التأسيس للاستبداد أو شرعنته؛ بل استئناس السلطة أو تدجينها إذا صحَّ التعبير ضمن أعرافٍ تُسهمُ في الاستقرار، عن طريق اعتبار ذاتها راعيةً وحافظةً للدولة والمجتمع. وينطوي هذا التحديد للإشكالية في نظر الكُتّاب والفلاسفة، على انطباعٍ مؤدَّاه أنّ السلطة باطشةٌ في الأصل، وأنها تميلُ لاستخدام القوة، وهم يريدونها أن تقدّم اعتبارات التعقُّل والتدبُّر، أي الاعتبارات السياسية التدبيرية، لكي تستقرّ السلطة، ويأمن المجتمع، ويستمرّ العهد. وهنا يأتي دَورُ الكاتب أو المثقف

أو الفقيه، فهو يعتبر نفسه "عقل السلطان" الذي ينصحُهُ بالمشاورة وعدم التفرُّد (= المستشار الناصح)، ويعينُهُ ويؤازره في الإدارة (= الوزير الصالح)، وينقل إليه رغبات الفئات الاجتماعية (= الوسيط)، ويشارك في صُنْع الصورة المثالية للسلطة والسلطان (= الخبير الفعّال أو الإعلامي الناجح). وصاحبُ الأمر مُحتاجٌ إلى المعاونين في الاتجاهات كلّها، لكنه لا يُسلِّم بالضرورة بأفكار المثقّف أو الكاتب عنه وعن سلطته، كما أنه يُحاذرُ دائماً أن يتحول المُساعِدُ أو المستشار إلى مشاركٍ في صُنْع القرار، رغم معرفته بأنّ الكاتب لا يطمعُ ولو في الحُلُم بالمنافسة على المركز الأول، بل إنه يتنافس مع أقرانه بين "صحابة السلطان" على المراكز الثواني والثوالث. وعلى أيِّ حالٍ فإنّ هذه العلاقة بين وليّ الأمر، والكاتب أو المثقَّف أو الفيلسوف، ما انتظمت ولا تحددت علائقُها بدقّةٍ في عصور الإسلام الأولى، رغم تحول الاستشارة أو الإدارة التنفيذية أو الاستكفائية أو التفويضية إلى مؤسسة (= الوزارة) ولذلك ظلَّ الكاتب أو المستشار أو الوزير عُرضةً للعزل أو السجن أو المصادرة أو القتل، كما يبدو من التاريخ الإداري والسياسي للأُمويين والعباسيين الأوائل، وكما تُشير لذلك كُلُّ الحكايات على ألْسِنة الحيوانات. وهذا المصير للكُتّاب والمثقَّفين لا يشير إلى

استبداد الخلافة أو الإمارة، بقدْر ما يشير إلى خطل توقُّعات الكاتب والمستشار سواءٌ أكان إدارياً أو صاحب رؤيةٍ للسلطة والدولة والمجتمع.

وتتميزُ حكاية الأسد والغوّاص لهذه الناحية، بأنّ الغوّاص الذي عمل مستشاراً هو الذي أَصَرَّ على الاستقالة والمغادرة رغم حرص الأسد على بقائه إلى جانبه. ولذلك فقد ذهبتُ إلى أنّ كاتب الحكاية فقيهٌ وليس كاتباً إدارياً أو فيلسوفاً أو خبيراً أو أحد وُعّاظ السلاطين. فالفقيه في القرن الخامس كانت وظيفتُهُ قد تحددت بـ "صَون الدين على أعرافه المستقرّة". وهذا نصابٌ صار عُمدةً في بتّ مفاهيم للشرعية متداولة بين الدين المجتمع إلى جانب السلطة السياسية وليس تابعاً لها أو في مواجهتها. فهو في اعتبار نفسِه ممثِّلٌ للدين وللشرعية الاجتماعية ذات الأصل الديني. وهو لذلك يملك من القدرة ما يُمكِّنُهُ من الاستقلال عن السلطة وليس الاستقلال بها. وما عرف المشرقُ الإسلاميُّ فقهاء ثائرين، بينما عرف الغربُ الإسلاميُّ هذا النوعَ من الفقهاء، الذين ما كانوا يتولَّون السلطةَ بعد نجاح "الدعوة" بل يعهدون بها إلى أحد أرباب السيوف أو العصبيات، بحسب الخُطاطة الخلدونية. لقد سمىَّ الغَوّاصُ نفسه "صاحبَ دعوة"، وقال

إنّ الدعوة هي التي قادته للعمل مع السلطان، كما أنها هي التي دفعتْهُ فيما بعد إلى الاعتزال، لأنّ التجربةَ ما نجحت كما قَدَّر لها.

هذه هي النشرةُ الثالثةُ لهذا النصّ النادر في جماله ورَوعته ووضوح دلالاته. والإحالاتُ الغزيرةُ التي أوردْتُها في الحواشي، لا تفيد كثيراً ظاهراً في التعرف على مصادر النصّ، بل تفيد في قراءاته قراءةً صحيحةً وواعية.

وبالله التوفيق.

رضوان السيد

بيروت في ١٠/١٠/٢٠١١

تقديم

I

لحكاية الأسد والغَوَّاص مخطوطاتٌ ثلاثٌ معروفةٌ حتى اليوم. أولاها في المكتبة البلدية بالإسكندرية - ويرجعُ تاريخُ انتساخها إلى سنة ٩٥٠هـ، ولم يذكر ناسخُها الأصلَ الذي نقل عنه ولا ذكر تاريخه؛ بل اكتفى بالقول: "تمّ كتابُ الأسد والغَوَّاص بحمد الله ومَنِّه. وكان الفراغُ من نَسْخه يوم الخميس عشرين من جُمادى الآخِر سنة خمسين وتسعماية". وتحتفظ دار الكتب المصرية (أدب - تيمور) بالمخطوطة الثانية للحكاية ويعودُ تاريخُ انتساخها إلى سنة ١٣٢٩هـ، وهي منسوخةٌ بخطّ حديثٍ عن مخطوطة الإسكندرية. وتوجد النسخة الثالثة في بانكيبور بالهند (خودابخش بتنه رقم ١٨٢٥)؛ ويرجعُ تاريخُ انتساخها إلى عام ١١٣١هـ. وتبقى هذه النسخةُ مهمةً رغم تأخُّر تاريخ انتساخها لأمرين؛ أولهما العبارة التي جاءت في خاتمتها ونصها: "تَمَّ الكتابُ في تمام أحد وثلاثين ومائة وألف بعد الهجرة، ورأيتُ في الأُمّ

المنسوخ منها هذه النسخة ما لفظُهُ في ذكر التاريخ: وكان تمامُها في شهر رمضان المظفَّر بالخير سنة خمسمائة وثلاثين...". وثانيهما أنها تسُدُّ النقص الموجودَ في مخطوطة الإسكندرية الأكثر قدماً منها. ففي المخطوطة المذكورة سقطٌ طويلٌ يبدأُ بعد سَجن الغَوَّاص، وينتهي عند خروجه من سجنه وعودته إلى معتَزَله. هنا تسُدُّ المخطوطةُ النقصَ، وتُضيفُ إلى إيضاح "العُقدة" فصلاً بعنوان: "في آداب السياسة" يُعتبر بالغ الدلالة على ماهية الفكر السياسي لمؤلِّف الحكاية. لكنْ رغم هاتين المخوطتين بقيت في النص مواطنُ قليلةٌ غامضةٌ فيها طمسٌ أو بياضٌ من النُّسّاخ. بيد أن هذه الشائبة لم تؤثّر كثيراً في فهم المضمون العامِّ للحكاية.

II

تُفيد العبارةُ التي وردت في خاتمة مخطوطة خودابخش بتنه (رقم ١٨٢٥) إذن أنّ حكاية الأسد والغَوَّاص كُتبت في مطالع القرن السادس الهجريّ. وهذا التاريخ ذو دلالةٍ هامةٍ من الناحيتين السياسية والفكرية. فقد دخل السلاجقةُ بغداد منتصف القرن الخامس الهجريّ بعد ما يزيد على القرن من السيطرة البويهية ذات الميول الشيعية المعتزلية. وكان الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ) قد أحسّ بخطورة

التوجهات البويهية على كيان الدولة فنشر عام ٤٠٢هـ مَحَاضر كُتبت في ديوان الخليفة "في معنى الذين بمصر، والقدْح في أنسابهم ومذاهبهم..."[١]. وبعد ذلك بقليل أظهر العقيدة التي عُرفت بالقادرية وفيها هجومٌ على الرافضة والإسماعيلية والمعتزلة[٢]. وفي عام ٤٠٨هـ "استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية فأظهروا الرجوعَ، وتبرأوا من الاعتزال. ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام..."[٣]. والمعروف أن البويهيين لم يكتفوا بتقليص نفوذ الخليفة عملياً عن طرق احتجازه في قصره بين حريمه، والتصرف في الأمور دونه؛ بل عمدوا إلى تقويض الأسس النظرية للخلافة العباسية بتأييد الاتجاهات الشيعية - المعتزلية من جهة[٤]، ومُحاولة إحياء رسوم المُلْك الفارسي القديم من جهةٍ ثانية[٥].

---

(١) قارن بالمنتظم ٧/ ٨٩ - ٩٠.

(٢) قارن بالمنتظم ٧/ ١٠٩، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤/ ٥ - ٦،
H Laoust: Les Agitations religieuses a Baghdad; in: Islamic Civilisation 950-1150 (ed, D.H. Richards, London 1973) 47ff; H.Busse: Chalif und Grosskönig (Beirut, 1969).

(٣) المنتظم ٧/ ٢٨٧.

(٤) انظر عن تشيع البويهيين على سبيل المثال: الكامل لابن الأثير ٦/ ٣١٥.

(٥) انظر عن استعادة الرسوم الفارسية القديمة للسلطة أيام البويهيين:
H.Busse: The Revival of Persian Kingship: in (Islamic Civilisation...) 47 ff.

وصاحب ذلك صداماتٌ مسلحةٌ مخرِّبةٌ بين السنة (الحنابلة على الخصوص) والشيعة في أحياء بغداد والمدن الكبرى الأخرى. وطبيعيٌّ والحال هذه أن تستحكم القطيعة بين علماء السنة- ممثّلين في بغداد بالحنابلة بشكلٍ رئيسي - من ناحية، وبين البويهيين من ناحيةٍ أُخرى. وقد حاول الحنابلةُ الدفاع عن الخلافة والخليفة بشتى الوسائل باعتبارهما الملاذَ الأخير في وجه التيارات الشيعية - المعتزلية وتيارات الشعوبية المتطلعة إلى استعادة مُلْكٍ قديم(١).

وسط هذه الظروف القاسية التي مرت بها الخلافةُ، وأيديولوجيا الأمة والجماعة، سارع علماءُ السنة إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه بالاعتراف بالمستجدات والمتغيرات، ومحاولة ضبطها واستيعابها في حدود، والدفاع عن الخلافة العباسية أهليةً واستحقاقاً. وهكذا ذكر أبو الحسن علي بن محمد

(١) في المنتظم ٦/ ٣٤٤: "سمعتُ المطيع لله يقول - وقد أحدق به خَلْقٌ كثيرٌ من الحنابلة حزروا ثلاثين ألفاً فأراد أن يتقرب إليهم فقال: سمعتُ شيخي ابن بنت منيع يقول، سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: إذا مات أصدقاءُ الرجل ذلَّ!" وكان عوامّ بغداد السنيون حنابلة في الغالب. وعندما انهزم ناصر الدولة ابن حمدان عام ٣٣٥هـ وترك بغداد للبويهيين "خرج النساء والصبيان من بغداد هاربين في طريق عكبرا لأنه وقع للناس أن الديلم إذا ملكوا الجانب الشرقي وضعوا السيف تشفياً من العوام لأنهم كانوا يشتمون معز الدولة شتماً مُسْرِفاً..." (المنتظم ٦/ ٣٤٩، ونشوار المحاضرة ٤/ ٢٢٥).

الماوردي (٤٥٠هـ) في كتابه المشهور: **الأحكام السلطانية** في باب "تقليد الإمارة على البلاد" أنه "إذا قلّد الخليفةُ أميراً على إقليمٍ أو بلدٍ كانت إمارته على ضربين عامة وخاصة: فأما العامةُ فعلى ضربين: إمارة استكفاء... وإمارة استيلاء بعقدٍ عن اضطرار..."[(١)]. ثم يفصّل في شأن إمارة الاستيلاء بعد حديثٍ طويلٍ عن صلاحيات أمير الاستكفاء: "وأما إمارة الاستيلاء التي تُعقد عن اضطرارٍ فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلادٍ يقلّده الخليفة إمارتها، ويفوّض إليه تدبيرها وسياستها. فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه منفّذاً لأحكام الدين ليخرج عن الفَسَاد إلى الصحة، ومن الحظر إلى الإباحة..."[(٢)]. فالماوردي يعترف هنا بأنّ أمير الاستيلاء مستبدٌ (مستقلٌّ) بالسياسة والتدبير، والخليفة آذِنٌ فقط، وبعد الاستيلاء الفعلي من جانبه يحصل التقليد الخليفي. وهو يعترف أيضاً بأن ذلك كان "لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز"؛ لكنّ الإقرار من جانب الخليفة يصبح بمثابة الواجب الديني لكي تخرج أحكام

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، مطبعة الحلبي، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣، ص٣٠.

(٢) الأحكام السلطانية، ص٣٣.

المستولي "من الفساد إلى الصحة" فتسير أمور الناس من ضمن الشرعية العامة للأمة والخلافة بخلاف ما إذا ناصبه الخليفة العداء بعدم الاعتراف به دون القدرة على إزالته لما يترتبُ على ذلك من الناحية الدينية من فساد أحكام قُضاة المستولي، وفساد تصرفاته من الناحية الشرعية؛ مع ما يؤدّي إليه ذلك من ضيق للرعية الواقعة تحت سيطرة المستولي (=الباغي) والتي يظلُّ خليفة المسلمين مسؤولاً عن تيسير أُمورها، وإخراجها من حرج الضرورة. ثم يضيف الماوردي أسباباً سياسيةً لذلك فيقول من ضمن بنودٍ كثيرةٍ إنّ من فوائد إقرار المستولي ولو مؤقتاً: "اجتماع الكلمة على الأُلفة والتناحر ليكون المسلمون يداً على مَنْ سِواهُم"[(١)]. و"حفظ منصب الإمامة في خلافة النبوة، وتدبير أمور الملّة ليكونَ ما أَوجبه الشرعُ من إقامتها محفوظاً وما تفرع عنها من الحقوق محروساً"[(٢)]. فهذه اللامركزية الواسعة الأُطُر تُبقي السلطة من الناحية الرمزية واحدةً، فتظل الأمة موحَّدةً في وجه الخارج. ولكي يكونَ واضحاً ما آلت إليه أمور الخلافة والخليفة من ضعفٍ وتهافُتٍ آنذاك يحسنُ استحضارُ تعليق المؤرّخ ابن

---

(١) ص٣٤.
(٢) ص٣٤.

الأثير على أحداث العام ٣٣٤هـ الذي شهد خلعَ المكتفي وتولية المُطيع على يد معزّ الدولة البويهي؛ يقول ابن الأثير: "... وازداد أمْرُ الخلافة إدباراً ولم يبق لهم من الأمر شيءٌ ألبتّة". وقد كانوا يُراجَعون.. والحرمةُ قائمةٌ بعض الشيء؛ فلمّا كان أيام معزّ الدولة زال ذلك جميعه..."[1].

ويمضي ابن الأثير معلِّلاً استحقاق البويهيين بالخلافة العباسية إلى هذا الحدّ فيقول إنه "... كان من أعظم الأسباب في ذلك أنّ الديلم كانوا يتشيعون ويُغالون في التشيع ويعتقدون أنّ العباسيين قد غصبوا الخلافة وأَخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعثٌ دينيٌّ يحثهم على الطاعة. حتى لقد بلغني أنّ معزَّ الدولة استشار جماعةً من خواصّ أصحابه في إخراج الخلافة عن العباسيين والبيعة للمعزّ لدين الله العلوي أو لغيره من العلويين..."[2]. إنّ هذا كله يفسِّر جانباً من جوانب إصرار الباقلاّني (٤٠٣هـ) والماوردي (٤٥٠هـ) وعبد القاهر البغدادي (٤٢٨هـ)، والجويني (٤٧٨هـ)، والغزالي (٥٠٥هـ) على استمرار الشرعية

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣١٥. وقارن:

Hafizullah Kabir: The Relation of the Buwayhid Amirs with the Abbasid Caliphs; in: Journal of the Pakistan Historical Society II/3, 1954, 228-243.

(٢) الكامل ٦/ ٣١٥.

والخلافة، ومحاولتهم من جهةٍ ثانيةٍ القيام بإحياءٍ سنيٍّ يتضمن إعادة التأكيد على وحدة الأمة والجماعة ودار الإسلام في وجه فاطميي مصر، وبويهيي وشيعة ومعتزلة بغداد وفارس. وقد استطاع هذا الإحساسُ أن يعبّر عن نفسه في مطالع القرن الخامس الهجري في عقيدة القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ). وساعد في ذلك الضعف الذي بدأ يتسلّل إلى الدولة البويهية بعد وفاة عضد الدولة. ومع هذا فإنّ العباسيين ما كان بوسعهم إجلاءُ أُمراء بني بويه عن بغداد أو غيرها من المدن؛ فكانت نظرية الماوردي في إمارة الاستيلاء، ووزارة التفويض، واستمرار وحدة الأمة في ظلّ الخلافة الواحدة: "إذا عُقدت الإمامةُ لإمامين في بلدين لم تنعقد إمامتهُما لأنه لا يجوزُ أن يكونَ للأمة إمامان في وقتٍ واحد..."[1].

وسنحت الفرصةُ أخيراً لتتحول الآمالُ والمشاريع والرؤى حول سُنيّة الدولة وعباسيتها ووحدة أمتها وإمامها إلى ما يشبه

(١) الأحكام السلطانية، ص٩. وفي أدب الدنيا والدين للماوردي، منشورات مكتبة الهلال ببيروت، حققه وعلق عليه مصطفى السقا، ١٩٨٥، ص١٣٨: "فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحدٍ وبلدٍ واحدٍ فلا يجوز إجماعاً. فأما في بلدان شتى وأمصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة إلى جواز ذلك لأن الإمام مندوبٌ للمصالح. وإذا كان اثنان في بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهم أقوم بما في يديه... وذهب الجمهور إلى أن إقامة إمامين في عصر واحد لا يجوزُ شرعاً...".

الحقيقة في المجال السياسي عندما دخل السلاجقةُ بغداد. والسلاجقةُ سنيون شديدو الاعتزاز بسنيتهم، ويغلب على سلاطينهم وأُمرائهم المذهب الحنفي؛ لكنّ إدارتهم كان فيها مكانٌ للشافعية. وكان دخولهم إلى بغداد يختلف تماماً عن دخول البويهيين قبل ما ينيف على القرن من الزمان. يذكر ابن الجوزي في المنتظم أنّ طغرل بك سلطان السلاجقة أثناء زحفه نحو بغداد أرسل رسولاً إلى الخليفة بكتابٍ "يتضمن الدعاء والثناء، وأنه قصد الحجرة الشريفة للتبرك بمشاهدتها والمسير بعد ذلك إلى الحجّ وعمارة طريقه، والانتقال بعد ذلك إلى قتال أهل الشام وكل معاند"[1]. والمقصودُ بأهل الشام الذين أراد السلاجقةُ قتالهم: الفاطميين. وقد بدأ السلاجقةُ (من الناحية الرسمية على الأقلّ) منذ دخولهم بغداد السيرَ على سياسةٍ ثابتةٍ تتميز بتدعيم الخلافة وإشاعة احترامها وتوقيرها. وقد حاولوا إنشاء جبهةٍ داخليةٍ قويةٍ لمواجهة الفاطميين والبيزنطيين وكانت أُولى خطواتهم باتجاه العلماء إزالة القطيعة بينهم وبين علماء الشافعية الذين أغضبهم الوزير الكُنْدُري عام ٤٤٥هـ بنيسابور عندما أقدم لأسباب غير واضحةٍ تماماً على لعن أبي الحسن الأشعري (٣٢٤هـ) على

---

(١) المنتظم ٨/ ١٦٤.

المنابر(١). وكان منقّذ هذه السياسة وواضعها أيضاً على الأرجح الوزير نظام المُلْك الحسن بن علي الطوسي (٤٨٥هـ) وزير السلطانين ألب أرسلان وملكشاه(٢). وقد قدّر الخلفاء العباسيون له ذلك فيذكر ابن الجوزي أنّ نظام الملك "دخل على المقتدي فأذِنَ له في الجلوس بين يديه وقال له: يا حسن! رضي الله عنك برضا أمير المؤمنين عنك... وكان مجلسُهُ (أي مجلس نظام المُلْك) عامراً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل التديُّن حتى كانوا يشغلونه عن مهمات الدولة... وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القُشيري وأبو المعالي الجويني يقوم لهما ويُجلسُهما في مسند، ويجلس في المسند على حالته. فإذا دخل أبو علي الفارمذي قام وأجلسه في مكانه وجلس بين يديه..."(٣). وقد توّج جهوده في

(١) المنتظم ٨/ ١٥٧- ١٥٨، وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ص١٠٠ وما بعدها، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ٣٨٩ - ٤٢٣.
H. Halm: Der Wezir al-Kunduri und die Fitna von Nisapur; in Wdo VI (1971) 205-233.

(٢) قارن عن نظام الملك: الروضتين ١/ ٦٢، والمنتظم ٩/ ٦٤، ووفيات الأعيان ٢/ ١٢٨-١٣١، والعبر٣/ ٣٠٧، والكامل لابن الأثير ٨/ ١٦١-١٦٣، والبداية والنهاية ١٢/ ١٤٠، وطبقات السبكي ٤/ ٣٠٩، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٣٦، وتاريخ الدولة السلجوقية ٦٦ - ٧١، وشذرات الذهب ٣/ ٣٧٣.

(٣) المنتظم ٩/ ٦٥.

المصالحة واستخدام العلماء للدعوة إلى أيديولوجية واحدةٍ للدولة بإنشاء النظاميات التي كانت نظاميتا بغداد ونيسابور أهمّها[١]. افتُتحت نظاميةُ بغداد عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م. وجاء في كتاب وقفها أنها "وقْفٌ على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً. وكذلك شرط في المدرّس أن يكونَ بها، والواعظ الذي يَعِظُ بها، ومتولّي الكتب. وشرط أن يكون فيها مُقْرئٌ يُقْرِئُ القرآن، ونحويٌّ يُدرِّس العربية، وفرض لكلٌ قسطاً في الوقف..."[٢]. وقد نشأت نظامياتٌ أُخرى ومدارس موقوفة في مدن العالم الإسلامي الهامة[٣].

وسواءٌ أكانت هذه المدارس ظهوراً للشافعية الأشاعرة كما يرى Goldziher أو مجرَّد إحياءٍ سنيٍّ حديثيٍّ كما يرى جورج مقدسي[٤]؛ فإنّ هدفها كان نُصرة مذهب أهل السنة والجماعة

(١) قارن بالمنتظم ٨/٢٣٨، وجورج مقدسي: رُعاة العلم (مجلة الأبحاث، م١٤، كانون الأول ١٩٦١ - ترجمة إحسان عباس) ص٤٨٣.
(٢) المنتظم ٩/٦٦.
(٣) المنتظم ٨/٢٣٨، والكامل ٨/١٠٣، والبداية والنهاية ١٢/٩٢، وعلماء النظاميات ومدارس الشرق الإسلامي لناجي معروف ص١٠ وما بعدها.
(٤) جورج مقدسي: مؤسسات العلم الإسلامية ببغداد (مجلة الأبحاث، م١٤، ج٣، أيلول ١٩٦١) ص٢٨٧ وما بعدها.
G.Makdisi: The Sunni Revival, in: (Islamic Civilisation..) 155 ff; I. Goldziher: Vorlesungen über den Islam, 120.

بتوحيد الأمة عليه في الداخل، والتوصل إلى ذلك بتقريب العلماء وإزالة الجفاء بينهم وبين السلطة والسلطان. يذكر الطرطوشي في سراج الملوك حكايةً هي على الرغم من طابعها القصصي ذات معنى تاريخي بحيث يسوغ إثباتُها هنا. تذكر الحكاية أن بعضهم وشى بنظام المُلْك عند السلطان ملكشاه قائِلاً إنه ينفق ستماية ألف دينار سنوياً على مُريدي العلم والعلماء، وإنّ هذه الأموال كافيةٌ لإقامة جيشٍ تُخَيِّمُ راياته على أسوار القسطنطينية! فعاتبه ملكشاه وطلب إليه أن يعلّل تصرُّفه ذاك فأجابه: «يا بني! أنا شيخٌ أعجميٌّ لو نودي عليّ فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير... وأنت غلامٌ تركيٌّ لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً... وأنت مشتغلٌ بلذّاتك، منهمكٌ في شهواتك.. وجيوشُكَ الذين تعدّهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيفٍ طوله ذراعان، وقوس لا ينتهي مدى مرماها ثلاثمائة ذراع... وأنا أقمْتُ لك جيشاً يُسمّى جيش الليل إذا نامت جيوشُك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفاً بين يدي ربّهم فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم، ومدّوا إلى الله أكُفَّهم بالدعاء لك ولجيوشك.. فأنت وجيوشُكَ في خِفارتهم تعيشون وبدُعائهم تبيتون وببركاتهم تُمطَرون وتُرْزقون...»[1].

---

(١) سراج الملوك، ص٢٣٧، وقارن بأخبار الدولة السلجوقية، ص٦٧ - ٦٨.

كان يُرادُ للعلماء إذن أن يعقدوا صلحاً مع السلطة يتحولون بموجبه إلى أيديولوجيين ومنظِّرين لها مقابل دعايتهم العلنية للسلطان بأكُفِّهم الممدودة إلى السماء على حدّ تعبير نظام المُلْك . وهكذا تحول كبار علماء الشافعية إلى مدرّسين في النظاميات المنْشأة بمختلف المدن. بينما أقبل السلطان وأُمَراؤه وهم من الحنفية على إنشاء المدارس لأتباع مذهب أبي حنيفة. وبذلك كسبت الدولة رضا أتباع المذهبين الكبيرين بمشرق العالم الإسلامي. وكان أشهر مدرّسي نظامية بغداد من الشافعية أبو إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ)، وابن الصبّاغ (٤٧٧هـ) والغزالي (٥٠٥هـ). وأشهر مدرّسي نظامية نيسابور إمام الحرمين الجويني (٤٧٨هـ). وأشهر مدرِّسي نظامية مرو أبو سعد السمعاني (٥٦٢هـ). وأشهر مدرّسي نظامية هراة أبو بكر الشاشي (٤٧٥هـ)... إلخ[1]. ويلاحظ H. Halm في هذا الصدد أنّ هذا اللقاء المعرفي السياسي بين السلطة والمثقفين ثمَّ في كلّ متغيّراتٍ اجتماعيةٍ أبرزت فئاتٍ من التجار الأغنياء في مختلف المجتمعات المدنية الإسلامية على حساب فئات النبلاء ودهاقين الأرض القُدامى في إيران. وكان احتضانُ

(١) ناجي معروف: علماء النظاميات ص١٠ وما بعدها.

المثقفين وإنشاء المدارس جزءًا من محاولتهم الحصول على اعترافٍ بهم وبمكانتهم الاجتماعية(١).

بيد أنّ الوفاق والتحالُف بين السلطة السلجوقية والعلماء لم يستمرا طويلاً. فقد اغتال الإسماعيليةُ عام ٤٨٥هـ الوزير نظام المُلْك صانع هذه السياسة ومنفِّذها. وتُوُفّي السلطان السلجوقي الكبير ملكشاه بعده بأسابيع فغرقت الدولةُ في بحرٍ من الفوضى حول وراثة العرش، وتوالى عليها وزراء كثيرون لم يُتَحْ لأحدٍ منهم الوقت الكافي للاهتمام بأيديولوجية الدولة، ولا باتجاهاتها السياسية البعيدة المدى(٢). وطبيعيٌّ أن يرافق ذلك كلّه إهمالٌ للعلماء ورغباتهم. يُضافُ إلى ذلك أنّ الإرهاب الإسماعيليّ نال من عزيمة كل رجالات الدولة، ودفع كثيراً منهم إلى الاتّصال بهم سراً اتّقاءً لشرّهم(٣). وكان تناسي رجال السلطة لخطط نظام المُلْك والسلاجقة العظام، وتراخيهم في التصدّي للإسماعيلية، وما نزل بالجماعات التجارية التي كانت فئات العلماء قريبةً منها؛ من بين الأسباب

(١) H. Halm: Die Anfange der Madrasa: in ZDMG (1977), Suppl. 3.I.438 ff.

(٢) عن الإمبراطورية السلجوقية بعد مقتل نظام الملك ووفاة ملكشاه؛ قارن:
Houtsma: The death of the Nizam al-Mulk and its concequences; In: Journal of Indian History, ser3, vol. II. 1924; The Cambridge History of Iran V, 102 - 124.

(٣) The Cambridge History of Iran V, 443-446.

البارزة للقلق الذي أحسّه الحنفية والشافعيةُ على حدٍّ سواء. وإبّان هذه الفترة غادر الغزاليُّ بغداد تاركاً منصبه في النظامية[١]، وكتب المستظهري في الردّ على الباطنية. ولا شكّ أنّ الاضطراب الأيديولوجي والسياسي الذي أصاب الدولة كان من أسباب ذلك إلى جانب الأسباب التي ذكرها هو نفسه في كتابه: "المنقذ من الضلال"[٢]. ومن المعروف أنّ الوضع لم يستمرّ طويلاً على هذا النحو من الاضطراب بالشام ومصر على الأقلّ فقد صعد نجم النوريين والصلاحيين الذين أعادوا لسياسات السلاجقة الأولى اعتبارها، وحشدوا حولهم العامّة والعلماء لمصارعة الصليبيين، فزالت الشكوك، وأسبابُ القلق، وثبت وعي العلماء بذواتهم ودورهم في الدين والدولة.

III

تعود خُرافة "الأسد والغَوَّاص" إلى فترة "خيبة الأمل" السالفة الذكر. إذ أقدم أُصولها المعروفة يعودُ للعام ٥٣٠هـ[٣].

---

(١) عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي: سياق تاريخ نيسابور (اختصار الصريفيني) نشرة Frye، ق٤٥ - ٤٧.

(٢) المنقذ من الضلال (نشرة عبدالحليم محمود) ص١٢٥ - ١٢٧.

(٣) بالإضافة إلى استئناساتٍ أخرى مثل الاستشهاد بأقوالٍ سائرةٍ وأشعارٍ متأخرةٍ أشرنا إليها في موطنها.

والغَوَّاص زاهدٌ حكيمٌ رأى في أُمور الدولة بعض الاضطراب فعرض على الملك أن يتعاون معه لإعادة الأُمور إلى نِصابها في مقابل أن يكونَ هو أُذُن الملك، ورأيه، ومستشاره في المجالات التي لا يحسُنُ الانفرادُ بالرأي فيها. لكنه لا يريد أن يكونَ كذلك بالنسبة للملك من أجل الجاه والقوة والسواد؛ بل «لأنّ في صلاح الملك صلاح مملكته ورعيته. وفي صلاح مملكته ورعيته صلاح الجملة التي الناصح جزءٌ منها يضُرُّهُ ما يضُرُّها وينفعُهُ ما ينفعُها»[1]. أمّا مضامينُ النصيحة والرأي اللذين يحملهما الغَوَّاص فمعروفةٌ وتتعلّق بوحدة السلطة والأرض والجماعة. وقد قبل الملكُ اتخاذ الغَوَّاص مُعاوِناً له بعد لأيٍ رغم ما في ذلك من مصلحةٍ له وللدولة في نظر الغَوَّاص. وضمن العلاقة الجديدة الحافلة بالتعقيدات أسهم الغَوَّاص إسهاماً ملحوظاً في إعادة تنظيم إدارة الدولة، والقضاء على المتمردين وأُمراء الأطراف المتغلِّبين. لكنْ بمرور الوقت شعر الغَوَّاص أنّ السلطة لم تكن في مستوى مضامين العلاقة الوثيقة التي أرادها معها. صحيحٌ أنه يكيل المدح للملك وحكمته، لكنه يشير من جهةٍ ثانيةٍ إلى أنّ الملك وقع في حبائل مكيدةٍ دبّرها خصوم الغَوَّاص

(١) الأسد والغَوَّاص (الطبعة الأولى) ص٤٤.

الغيورون منه من بين بطانة الملك. وهكذا وجد الغَوَّاص نفسه في السجن دونما ذنبٍ معروف غير بعض الوشايات الواهية الثبوت. وتحقق الملك أخيراً من براءة ساحته مما نُسِبَ إليه فأطلق سراحه، وعرض عليه صيغةً جديدةً للتعاون؛ لكنّ المستشار الخارج من السجن ما وجد في الصيغة المعروضة ما يُغري بالاستمرار على النمط السابق. فعاد إلى معتَزَله دونما عداءٍ أو قطيعةٍ إذ استمرّا بالتزاور والتشاور مع احتفاظ كلٍّ منهما بمسافةٍ من الآخر: فلا هو تراجع عن اعتزاله وعاد إلى بلاط الملك، ولا الملكُ ألحَّ على عودته؛ رغم أنّ استمرار الصلة كان يُعطي الأمل دائماً بإمكان تحقيق حلٍّ وسط. فالقصة في الواقع رمزٌ للصحوة بعد الحماس الشديد في أوساط العلماء لسياسات السلاجقة الأولى تجاههم. وكانت علاقة السلطة بالعلماء، أو السياسة بالشريعة قد استقرّت منذ القرن الثالث الهجري على وحدة المشروعية العليا ممثَّلةً بالخلافة ثم إمارة الاستيلاء أو السلطنة (الدين والدنيا)، وجرى انفصامٌ في الواقع ليس بين الدين والدولة بل بين السياسة والشريعة، أو بين العلماء والسلطة من باب تقسيم العمل أو مجالات الصلاحية والاهتمام. وقد استمرّ النزاعُ على حدود كلٍّ من المجالين؛ لكنَّ تسليمَ كلٍّ من الطرفين بوجود الآخر وسلطاته كان جارياً بشكل عامّ.

وجاءت محاولةُ نظام المُلْك لتنشر حالةً من الحماس المؤقّت في أوساط العلماء، ولتوهم بإمكان تقارُبٍ أكبر، وتعاوُنٍ أوسع بين السياسة والشريعة يصلان إلى حدّ التوحُّد في بعض الحالات. ولا شكّ أنّ اتّجاه نظام المُلْك هذا كان سببه ما أصاب المشروعية العليا لجماعة المسلمين من تشقُّقٍ نتيجة قيام الدولة الفاطمية، وانتشار التنظيمات الإسماعيلية السرية بشتّى أنحاء الأُمة تضرب وتغتال وتعيث فساداً. وهو أمرٌ أشار إليه الوزير نظام المُلْك في كتابه الشهير "**سياست نامه**". وفتر الحماس بمقتل نظام المُلْك وموت ملكشاه، وردّة الفعل العنيفة للإسماعيلية على محاولات إنهائها. وجاءت "حكاية الأسد والغوّاص" في حقبة المراجعة والصحوة هذه لتقول إنه لا معدى عن دولة المسلمين الواحدة ذات المشروعية الشاملة؛ أما في المجالات التفصيلية فإنّ لكلٍّ من السياسي والفقيه مجاله الخاصّ الذي يتحرك فيه وهناك مراتبيةٌ لا تسمحُ بالتجاوز إنْ بالنسبة للكاتب أو الفقيه. وقد أكثر النوريون والصلاحيون من بناء المدارس، كما أكثروا - ومن بعدهم المماليك والعثمانيون - من إيقاف الأوقاف على سُبُل الدين والخير ووجوههما. وكانت لذلك كلّه عِلله المتصلة بفهمهم لدورهم كسلاطين للإسلام وباسمه، وللأمة وباسمها؛ لكنّ المدارس والجوامع ما عاد لها ذلك الطابع الأيديولوجي

الحادّ الذي كان لها أيام القادر بالله والقائم والسلاجقة حين كان الصراع على أشدّه على هوية الدولة والجماعة ووحدتهما.

IV

يستخدم واضع حكاية "الأسد والغَوَّاص" الإطار العامّ لحكاية "كليلة ودمنة" ليقول أشياء مختلفةً تماماً عمّا قيل في "كليلة ودمنة". ومن ضمن الإطار العامّ المشترك أنّ الملك هو الأسدُ ملكُ الوحوش في كلا الحكايتين الرمزيتين. والغَوَّاص ثعلب كما أنّ دمنة ثعلب. وصديقُ الغَوَّاص الذي ينصحُ بعدم التعاون مع السلطة هو في حكاية ابن المقفّع كليلة صديق دمنة، وهو في "الأسد والغَوَّاص" اللوّام صديق الغَوَّاص. لكن في حين يلعب كليلة دوراً متوسّط الأهمية في "كليلة ودمنة" لا يلعبُ "اللوّام" دوراً مهماً في "الأسد والغَوَّاص". إنه مجرد محاكاةٍ لجانبٍ من جوانب شخصية "دمنة" في "كليلة ودمنة". ويبدأُ الافتراقُ منذ الصفحات الأُولى في صورة السلطة والسلطان من جهة، وفي أغراض كلٍّ من الغَوَّاص ودمنة من وراء التقرب من السلطان. أما الملكُ في "كليلة ودمنة" فكان أسداً "منفرداً برأيه غير آخِذٍ

برأيِ أحدٍ من أصحابه"[١]. في حين أنّ الملك في "الأسد والغَوّاص" كان أسداً "حسن الطريقة في مملكته، محموداً في رعيته قد ساسَهم بأمرين جُمع الحزمُ فيهما... يحبهم محبة الوالد ويُعاقبُهم كأنه لا رحمةَ عنده كما يضربُ الوالدُ ولده إذا رأى في ذلك مصلحته..."[٢]. وتبعاً لشخصية السلطان تكون شخصيات الذين يريدون التقرب منه. أمّا دمنة فيريد التقرب من السلطان من أجل "أن يَسُرَّ الصديق، ويسوءَ العدو..."[٣]. وأمّا الغَوّاص فيريد التعاون مع الملك لأنّ "على الرعية أن يُجهدوا أنفسهم في صلاح الملك ومعونته بما يجدون إليه السبيل من رأيٍ وقُدْرةٍ.." إذ إنّ في "صلاح الملك صلاح مملكته ورعيته. وفي صلاح مملكته ورعيته صلاح الجملة التي الناصحُ جزءٌ منها يضُرُّهُ ما يضُرُّها وينفعُهُ ما ينفعُها...". فكليلةُ ودمنةُ، وكذا النمر والثعلب لسهل بن هارون (٢١٥هـ) تدخلان في النوع الأدبي المعروف بمرايا الأُمراء Fürstenspiegel والتي يتمُّ النظر فيها إلى السلطة والسلطان بمرآةٍ واقعيةٍ، فتقوم العلائقُ في مجتمعات "مرايا

(١) كليلة ودمنة (نشرة عبد الوهاب عزام) ص٤٦ - ٤٧.
(٢) الأسد والغَوّاص (الطبعة الأولى) ص٤١ - ٤٢.
(٣) كليلة ودمنة، ص٤٦.

الأُمراء" على القوة البحتة وتوازُناتها دونما تنظيرٍ كثيرٍ لقضايا الشرعية والمشروعية وحقوق السلطان وواجباته. فالسلطان "جِبِلَّةٌ وسعادةٌ"[١] فلا عِلّة لكون السلطان سلطاناً غير أنه سلطانٌ في الواقع ونفس الأمر. فمما له دلالتُهُ أن يكون هناك أسدٌ واحدٌ في حكاية الأسد والثور بكليلة ودمنة. وعندما جعل سهل بن هارون في حكايته النمر ملكاً على الجزيرة جعل الآخرين البارزين ذئاباً وثعالب إشارةً إلى اختلاف الطبيعة. فلا علاقة إذن بين الملك والمجتمع من حيث الطبيعة. ولهذا يكون من واجب المجتمع في "مرايا الأُمراء" أن يخضع للسلطة المختلفة عنه طبيعةً لأنّ هذه هي طبيعةُ الأُمور. بل إنّ قَدَرَ الملك نفسه أن يحكم وليس من حقّه أن يتجاهل ما كمن في جبلّتِهِ، وما أعانه على إبرازه من الكمون سعادته[٢]. وليس الأمر كذلك، في حكاية الأسد والغَوَّاص، وإن أفاد مؤلّف الحكاية كثيراً من "كليلة ودمنة" في التفاصيل. فمع أنه يتهرّبُ من احتمال اضطراره كفقيه أن يلي

---

(١) الأسد والغَوَّاص، ص٦٥.

(٢) قارن بدراستي: الكاتب والسلطان: دراسة في نشوء كاتب الديوان في المجال الحضاري العربي الإسلامي؛ في كتابي: الجماعة والمجتمع والدولة - ربيع العام ١٩٩٧.

السلطة بنفسه بالقول إنّ السلطة "جِبلّةٌ وسعادة" كما في "مرايا الأُمراء" إلّا أنّ الواضح أنّه يعتبر الدولة مشروعاً هو وسائر الرعايا بل والسلطان نفسه أجزاء مهمةٌ فيه أو أنهم جميعاً متساوون في الاندراج في المشروع وفي المسؤولية عنه. فبالإضافة إلى ما اقتبسناه عن هدف الغَوَّاص من وراء التقرب إلى الملك يقول: "ليس حُبُّ الزاد همّي، ولا الدنيا طلبي. ولكنْ أن أَبلُو في الكافّة بلاءً يحسُنُ فيه فعلي"[1]. ويقول له صاحبه: (وهو صديقٌ آخر يظهر منذ مطلع الحكاية فيقوم بدور كليلة بخلاف اللوَّام الذي يظهر فيما بعد): "كيف نشطْتَ لهذا ولا أعرفك إلّا محباً للدعوة؛ قد شغلك العلمُ عن التعرُّض لغيره"[2]. وفي الحقّ أنّ الدعوة (إن كنتُ قد قرأتُ الكلمة في المخطوطات بطريقةٍ صحيحة) بالذات هي التي تكمُنُ وراء اندفاع الغَوَّاص لمُعاونة الملك في قضايا وأمور يعتقد أنه يستطيع القيام في نطاقها بما يفيد الكافّة، ويؤمِّنُ الاستقرار للدولة. وهذا هو الاختلاف البارز بين "الأسد والغَوَّاص" وكتب "مرايا الأُمراء" مثل كليلة ودمنة،

(١) الأسد والغَوَّاص، ص٤٨.
(٢) الأسد والغَوَّاص، ص٤٦.

والنمر والثعلب، والتاج المنسوب للجاحظ، والجوهر النفيس في سياسة الرئيس لابن الحدّاد الموصلي، والتبر المسبوك المنسوب للغزالي... إلخ. إذ ليس للسلطة في كتب "مرايا الأُمراء" أيديولوجيا أو مشروع عدا الاستمرار في السلطة. وتبعاً لذلك فإنّ أولئك الذين يريدون الاقتراب منها من فئات المثقفين يضعون ذلك في اعتبارهم فيحاولون الإثبات أنهم إنما يُسهمون بوجودهم في حاشية السلطان في استقراره واستمراره. كما أنهم يحاولون كلَّ الوقت أن يُثبتوا للسلطان أنّ أهدافهم من وراء الاقتراب منه محدودةٌ أيضاً بحدود شخوصهم ومطامحهم القريبة لكي لا يثيروا الشكوك والمخاوف في نفس السلطان أو يثيروا عنف السلطة الكامن عندما تُحِسُّ أنها مهدَّدةٌ على نحوٍ ما. ويصل بنا هذا كلّه إلى الاستنتاج أنّ الرؤية التي تتضمنها حكاية "الأسد والغَوَّاص" للسلطة والدولة والسلطان تعني أولاً أنها "دولة الأُمةِ" وليست "دولة مرايا أمراء"، كما أن المثقّف الذي أراد الاقتراب منها هو "مثقف دعوةٍ" وليس "مثقّف سلطة"؛ أو بعبارةٍ أُخرى إنه فقيهٌ وليس كاتباً ديوانياً. ولا يعني هذا أنّ الكاتب الديواني يستحيل أن يحمل مشروعاً، فعبد الحميد بن يحيى على سبيل المثال كان يحمل مثل هذا المشروع، وربما

كان ابن المقفّع كذلك، كما الوزير نظام الملك، والوزير رشيد الدين[١]. بل ما أعنيه أنّ الكاتب المتربّي في الديوان بالدولة الإسلامية حسب النموذج الفارسي الساساني فكرةً وأدواتٍ كان في الأعمّ الأغلب مثقّفاً ديوانياً أداتياً يطمح للجاه والمال، ويتوسَّلُ لذلك بالتقرب للسلطان بخبراته في تحصيل المال، وخدمة السلطة بالحفاظ على استقرارها. وكانت الرؤية الفارسية القديمة للمُلك تجعل للملك ماهيةً "إلهيةً" يستحيل على البشر العاديين أن يطمحوا بأبصارهم إليها. وكان ذلك بمثابة الضمانة للكُتّاب الذين يتيقّنُ الملكُ أنهم يتصارعون على المركز الثاني (رئاسة الديوان أو الوزارة)؛ أمّا المركز الأول فتنقطع دونه الأعناق. ولا كذلك الفقيه: الذي لم يكن يسعى بالضرورة للوصول إلى المركز الأول؛ لكنه كان يعتبر نفسه جزءًا من المشروع العامّ للأمة والسلطة في السواسية، والتكافل، والسواد، والانتماء. ولم يعرف شرق العالم الإسلامي - بخلاف الغرب الإسلامي - أمثلةً لفقهاء طمحوا للمركز الأول إبّان ظهور الدولة

(١) قارن بدراستي السالفة الذكر عن الكاتب والسلطان في: الجماعة والمجتمع والدولة.

السلطانية، بل ولا للمركز الثاني. فقد ساد منذ القرن الثالث - كما سبق أن ذكرنا - تقسيمٌ لمجالي العمل بين السياسة والشريعة. وانصرف العلماء على مختلف فئاتهم للعمل في مجال الشريعة، وتولّوا القضاء، وعُرفوا بالولاء للخلافة والدولة بشكلٍ عامٍّ. وما اقتربوا من "السياسة" إلّا إبّان ضعف الخلفاء وبناءً على استدعائهم لهم للنُصرة والمؤازرة، فكان من بينهم وزراء أمثال عون الدين ابن هُبيرة الفقيه الشافعي المعروف. ومع ذلك فإن علاقات السلطة الإسلامية بهم ظلّت أكثر قلقاً من علائقها بكُتّاب الديوان والوزراء. ويرجع ذلك إلى أنّ الفقيه الذي كان يحرص أشدّ الحرص على الاستقرار والوحدة، كان يعتبر نفسه في الوقت عينه مسؤولاً عن المشروع الكبير للأُمّة، ومدخله للنهوض بأعباء تلك المسؤولية مبدأ "الأمر بالمعروف والنهيْ عن المنكر" إذ لا طاعة عنده لمخلوقٍ في معصية الخالق. ومع أنه كان يسلّم للسياسة بمجالٍ خاصٍّ وشبه مستقلٍّ؛ إلّا أنه ما كان مستعداً للسكوت عن تجاوزات السياسة التي تبلُغُ حدَّ تهديد الأعراف العامة للجماعة، أو مشروع الأمة الكبير. ومن هنا كانت مساعيه في المجال السياسي منصبَّةً دائماً على إبقاء السياسة في حدود الشريعة أو ما سُمّي بعد القرن الخامس: السياسة

الشرعية. وهذه هي اللهجةُ العامةُ للكاتب المجهول لحكاية "الأسد والغَوَّاص" الرمزية؛ ولذلك جزمتُ بأنها من وضع فقيهٍ متأدّبٍ، وليس من وضع كاتبٍ من كُتّاب الديوان. فهو يشبه في هذا المجال الماورديّ في "الأحكام السلطانية" و"تسهيل النظر" (٤٥٠هـ) والطرطوشي (٥٢٠هـ) في "سراج الملوك" وإن كان قد اختار صيغة "الحكاية الرمزية" للتعبير عن آرائه في القوانين التي ينبغي أن تحكم علاقة المثقف بالسلطان في المجال الحضاري الإسلامي. فالعلاقةُ من وجهة نظره تحكمها سياقات الانتماء للمشروع الواحد مع بقاء التمايز المجالي، في تقسيم العمل بين الساسة والفقهاء، أو بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام. وقد تصوّر الفقهاء لحقبةٍ قصيرةٍ إمكان دمج المجالين في ظلّ المشروعية الدينية العليا الواحدة ثم تبيَّنَ لهم عدمُ إمكان ذلك فجاءت حكاية "الأسد والغَوَّاص" لتستخلص نتائج تجربة نظام المُلْك؛ فتعيد التأكيد على الانفصال العملي، واستقلالية الفقيه. ولذا لم يَمُتْ الغَوَّاص في نهاية الحكاية بل عاد فلاذ بمجاله الخاصّ؛ في حين قُتِلَ دمنةُ في "كليلة ودمنة"، وانتهى الثعلب في "النمر والثعلب" متسوِّلاً على أبواب الملك إذ إنّ الإثنين ينتميان إلى فئة الموظفين والمستشارين الذين يفقدون رؤوسهم عندما

يفقدون الحظوة لسببٍ ما، وليست لهما مرجعيةٌ معينةٌ أو مجالٌ خاصّ تعترف به السلطة، ويمكن أن يلوذوا به إن توترت علاقاتهم بالسلطان القائم.

V

أشار عبد الرحمن بدوي في مقدمة نشرته لبعض النصوص السياسية اليونانية المنحولة إلى الصراع الذي نشب أواخر عصر بني أمية بين أنصار الثقافة الفارسية وأنصار الثقافة اليونانية في المجال الثقافي العربي الإسلامي[١]. وقد كانت الغلبةُ أخيراً للتقاليد الثقافية الفارسية في مجال الكتابات والسُنن السياسية؛ في حين سيطرت الثقافة الإغريقية الهيللينية في النواحي العلمية والفلسفية. ومع أنّ مؤلّف حكاية "الأسد والغَوّاص" فقيهٌ وليس كاتباً ديوانياً؛ فإن الصيغة التي اختارها للتعبير عن آرائه، والتي تتخذ من "كليلة ودمنة" و"مرايا الأُمراء" من حيث الشكل نموذجاً؛ تركت آثاراً واضحةً على الطابع العامّ لحكايته. ولذا يبدو الصراع بين الثقافتين المذكورتين في أجزاء الحكاية وتفاصيلها. ففيما يتصل بالمُلْك

(١) عبد الرحمن بدوي: الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام ١/ ٥ - ٩. وقارن بإحسان عباس: ملامح يونانية في الأدب العربي، ص١٢-١٣.

ومفهومه هناك احتذاءٌ للنموذج الفارسي. والمعروف أنّ الملك في النموذج الفارسي ليس إنساناً عادياً: "والمُلْكُ يحتاج إلى أشياء أولها جِبِلَّةٌ وسعادةٌ... وهذه خارجةٌ عن استطاعة البشر... وقد قال بعض الحكماء: المطبوع في الشيء هو الذي دليلُ ذلك الشيء قويٌّ في أصل مولده..."[1]. ففي الفكرة الواردة هنا مَشَابِهُ من فكرة "الخوارنا" الفارسية القديمة التي عُرفت في الثقافة العربية عن طريق كتب التاج والآيين المترجمة إلى العربية في أواخر العصر الأموي ومطالع العصر العباسي[2]. هؤلاء الملوكُ بالمولد كانت مهمتُهُم "حفظ السنة التي الملكُ خادمُها"؛ إذ إنّ "الله جعل السلطان قواماً لعالَمه ونظاماً لرعيته يردعُ به الجاهل عن العاقل، ويردّ به الحق عن الباطل، ويمنعُ القويّ من الضعيف، ويُحيي به السنة، وينفّذ أحكام الشريعة. فصلاحُهُ صلاح الشأن، وفسادُهُ فسَادُ النظام..."[3].

ومن الواضح أنّ المؤلّف يقصد بالسنة والشريعة ما هو متعارَفٌ عليه في المجال الحضاري العربي الإسلامي، لكنّ

(١) الأسد والغَوَّاص، ص٤٨.

(٢) قارن عن فكرة الخوارنا:

Widengren: Iranische Geisteswelt 36 ff; Christensen: Iran sous Ies Sassanides 28ff; The Cambridge Ancient History IV, 184, 186

(٣) الأسد والغَوَّاص (الطبعة الأولى) ص٧٣.

السُنّة المقصودة في المأثورات الفارسية هي نظام الطبقات الذي ثبَّت أردشير بن بابك (٢٢٨ - ٢٤١م) قواعده، وحَدّ حدوده في حياته، وفي "العهد" الذي تركه لمن بعده من الملوك[١]. فقد جعل "الناس على أقسامٍ أربعةٍ، وحصر كلّ طبقةٍ على قسمها. فالأول الأساورةُ من أبناء الملوك. والقسم الثاني النُسّاك وسَدَنة بيوت النيران. والقسم الثالث الأطباءُ والمنجِّمون والكُتّاب. والقسم الرابع الزُرّاع والمِهان وأحزابُهُم. وكان أردشير يقول: ما شيءٌ أسرع في انتقال الدول وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها حتّى يُرفَعَ الوضيعُ إلى مرتبة الشريف، ويُحَطّ الشريف إلى مرتبة الوضيع..."[٢]. أما الشريعةُ عند أردشير فهي شريعة زرادشت التي استخدمها ليقيم إلى جانب الهرم الاجتماعي الذي يشكّل هو قمته هرماً دينياً لأنّ "المُلْك والدين توأمان لا قوام لأحدهما إلّا بصاحبه لأنّ الدين أُسٌّ والمُلْك عمادُه. ثم صار المُلْكُ بعدُ حارس الدين. فلا بُدَّ للمُلْك من أُسِّهِ، ولا بد للدين من حارسه لأنّ ما لا حارسَ له ضائع، وما لا

(١) إحسان عباس: عهد أردشير (١٩٦٧) ص١٩.
(٢) أحمد زكي باشا: التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ (١٩١٤) ص٢٥. وقارن بعهد أردشير ١٣، ٦٢ - ٦٣.

أسّ له مهدوم...»[1]. ولا نعلمُ إن كان المثقفون المسلمون الذين كانوا يتداولون هذه التعابير فيما بينهم على وعْيٍ بمضامينها وأبعادها التي تصطدم في كثير من الأحيان بالمضامين الإسلامية. لكنْ لا يبعُدُ أن تكونَ فئاتُ المثقفين الدينيين قد أمَّلَتْ على أي حالٍ أن تحلّ محلَّ طبقة النُسَّاك في آيين الفرس القديم فيكون الاعتراف متبادلاً بينها وبين رموز السلطة.

ولا شكّ أن مقارنةً أوسع بين ما قاله الغَوَّاص وصديقُهُ عن النصيحة للملك، وتلوُّن أخلاق الملوك، وحفظ السرّ، وحفظ الحرم - وبين ما جاء في كتب أدب السَمَر العربية متناثراً عن تقاليد الفرس في ذلك كفيلٌ بأن يبرز مشابهاتٍ أخرى في التفاصيل فضلاً على ما ذكرناه من مشابهةٍ في الروح العامّ. وقد استشهد مؤلف «الأسد والغَوَّاص» المجهول بقصةٍ طويلةٍ من تاريخ الفرس الساسانيين[2]. وبقيت

(١) عهد أردشير، ص٥٤، وقارن بالصيغ الإسلامية للفكرة في أدب الدنيا والدين ص١١٩ - ١٢٠، وتسهيل النظر ص٢٠١ - ٢٠٢، والتاج ص٣، وعيون الأخبار ١/ ١٣، والعقد الفريد ١/ ٢٣، والسعادة والإسعاد ص٢٠٦ - ٢٠٧، وسراج الملوك ص١١٣، وتذكرة ابن حمدون ١/ ٢٨٦، ولباب الآداب ص١٨، والمصباح المضيء / ٤٤٩ - ٤٥٠، وسرح العيون ص٧٤، وآثار الأوَل ص١٣، والشفاء لابن الجوزي ص٤٧.

(٢) الأسد والغَوَّاص (الطبعة الأولى) ص٧٨ - ٨٢.

- رغم ذلك - للتقاليد اليونانية أو ما زُعِمَ أنه تقاليد اليونان، مكانتُها في الحكاية خصوصاً في مجال السياسة العملية. ففي فصل الحكاية الأخير عن "أقسام السياسة"[١] كلامٌ عن سياسة الإسكندر في البلاد المفتوحة، وطريقة تعامله مع الملوك والشعوب. ورغم تَواضُع موضعها إذا قورن بموضع التقاليد الفارسية، فإنّ الصراع بين التقليدين ظاهرٌ بسبب اختلاف الروح العامّ لكلٍّ منها.

وفي "**الأسد والغَوَّاص**" بالإضافة إلى ذلك أقاصيص تذكّرنا ببعض أحداث "ألف ليلة وليلة"، كما أنّ هناك قصصاً مستقًى من التاريخ الإسلامي سنشير إلى مصادره المحتملة في مواطنه. أما أسلوب الحكاية فهو من طبقةٍ عاليةٍ على العموم. لكنْ يبدو أن النسّاخ غابت عنهم معرفةُ بعض الألفاظ والتعبيرات فشوَّهوها، وأهملوا نَسْخَ البعض الآخر مما أدّى إلى نقصٍ في بعض المواطن يبلغ تقديراً سطراً كاملاً. وقد أفادتنا المخطوطة الهندية في استكمال بعض ما سقط من النسخة المصرية. وهناك مشابه أسلوبيةٌ كثيرةٌ بين الأسد والغَوَّاص وكليلة ودمنة لا تحتاج إلى مزيد بيانٍ لأنها تفجأُ القارئَ لأول وهلة. لكن الفروق الظاهرة بين الحكايتين

(١) الأسد والغَوَّاص، ص١٩٦.

الرمزيتين تنسحبُ أيضاً على الأسلوب الذي يتميز بروحٍ إسلاميٍّ أشدّ وضوحاً منه عند ابن المقفّع لأنّ أصل ابن المقفّع غير عربيٍّ، ولا كذلك حكاية "الأسد والغَوَّاص".

صدرت الطبعة الأولى من حكاية "الأسد والغَوَّاص" في سبتمبر عام ١٩٧٨. ونفذت قبل عدة سنوات. وكان أول من وجّه نظري إلى أهميتها د. ذوقان قرقوط الذي قدّم لها أيضاً بكلمةٍ جاءت قبل مقدمتي الدراسية آنذاك. وقد قمتُ إعداداً للطبعة الثانية هذه بقراءة النصّ من جديدٍ بشكلٍ كاملٍ، فاستطعتُ تصحيح عشرات المواطن الغامضة. لكنني لم أستطع اكتشاف اسم مؤلّف الحكاية. وكان صاحب "كشف الظنون" قد عرف الكتاب، ولم يعرف المؤلِّف فقال عنه: "كتاب الأسد والغَوَّاص. في الحكايات الموضوعة بلسان الحيوانات أوله: الحمد لله الذي تعجز الألسُنُ عن وصفه... إلخ".

رضوان السيد

صنعاء، في ٧/ ١٠/ ١٩٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تعْجزُ الألْسُنُ عن وصفهِ كما تعجز العقول عن كنهه، وصلّى الله على من دعانا إلى من يحيينا به، وعرّفنا ما قَصّرَتْ عقولنا عن معرفته؛ مُحمَّدٍ وعلى آله، وسلامٌ على عباده الذين اصْطفى.

إعلم أنَّ الحُكَمَاءَ جعلت الحكْمةَ في ضمنِ الأخبار وعلى ألسنة الحيوانات وفي أثناء الحكايات لتخِفَّ على القُلوب وتهشَّ إليها الأسماعُ، وزخرفوها بالصُّوَر المُونِقَة والأصْباغ الرائِقة استجماماً لنفوس الحكماء عند الملل، وترويحاً لقلوب العلماء عند الضجر؛ لأن محْمل الجِدِّ ثَقيلٌ وطريقه شاقٌّ بعيدٌ. وكان ذلك منهم كفعل الطبيب الرفيق الذي يدفنُ الدواء في بعض ما تَتوق النفسُ إليه من الغِذاءِ؛ وخدعةً لنفوس الصبيان والأحداث ليميلُوا إلى استطراف الخُرَافَاتِ لأنَّ نفوسهم مُتَطلعَةٌ إلى نوادر الأخبار فتثبت معها الحكمةُ في صدورِهم وتَلِج في قلوبهم ويرسخ العلمُ في نفوسهم كالصَّيَّاد

الذي يطرحُ الحَبَّ خدعةً للطائر لا للعَلَفِ بل لغرضٍ آخر غير مبدوٍّ منه ولا بأس بالخديعةِ إذا أدّت إلى الصلاح والمنْفَعَةِ؛ ألا ترى أنّ الله عزَّ وجلَّ جعل ألم الجوع وشهوة الأكل داعياً إلى الغذاء كما كان سبباً لبقاء الشخص، ولذّة الجماعِ سبباً لحفظ النسل وليس الغرض فيهما اللّذة وإنما الغرضُ فيهما [ق أب] المنفعة(١).

وقد ذكَرَ جالينوس أنَّ قَوْماً أصابَتْهم عِلَلٌ أبْطلَتْ عليهم شَهْوَة الغِذَاءِ فماتُوا جوعاً ولم يسْهُل عليهم تناوُلُهُ. فَلا تَسْبِقَنَّ إلى لوم أحدٍ ما لم تعْلَمْ غَرَضَهُ «فلعلَّ له عُذراً وأنت تلومُ»(٢).

وإني لأستحسِنُ كلاماً لابن المقفّع في وصفِ صديق له

(١) في كليلة ودمنة ص٣: «... ولم يزل العقلاءُ من أهل كل زمانٍ يلتمسون أن يُعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل، ويطلبون إخراج ما عندهم من العلل...» وقارن بالمصباح المضيء في خلافة المستضيء ١/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) صدر بيت لمسلم بن الوليد عجزه: «وكم لائم قد لام وهو مُليم»، قارن بالبيان والتبيين ٢/ ٣٦٣، وهو في البصائر والذخائر ٩/ ١٥٣ (نشرة وداد القاضي)، وجمهرة العسكري ١/ ٤٧٤ بدون نسبة. وفي التمثيل والمحاضرة ص٨٣، ونهاية الأرب ٣/ ٨٣، وطبقات ابن المعتز ص١٥١، وفصل المقال ص٦٨ بنسبته إلى منصور بن الزبرقان النمري شاعر الرشيد. وصدره في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٠٥: تأنّ ولا تعجل بلومك صاحباً.

حيث قال: كان لا يلومُ أحداً فيما يكون له العُذْرُ في مثلِهِ[١].
وقال الشاعر:

ما حاملٌ نَفْسَهُ على سببٍ إلا لأمرٍ يقوم بالسَّببِ

(وقد رأيتُ بتوفيق الله أن أجمع في هذه الكراريس ما سنح لي من الكلام في الحكمة مما أرجو من الله جلَّ وعلا أن [هندية ٢ب] ينتفع به قارئُهُ وطالبه. وجعلْتُه مرتّباً على أحد عشر باباً مما أمليتُ جميعه على لسان الأسد والغَوَّاص للعُذْر الذي تقدم، وجَعلْتُهُ مختصراً مفيداً. ومن الله أستمدُّ الإعانةَ[٢] والتوفيق والهدايةَ لأقْوَمِ الطريق. وحسبي وكفى)[٣].

[١] باب وصف الملك الحازم

ذكروا أنّ أسَداً كان مَلِكاً للوحُوشِ في بعض المَوَاضِعِ وكان حَسَنَ الطَّريقَةِ في مملكته محموداً في رعيَّتِهِ قد سَاسَهُم بأمْرَيْنِ جُمِعَ الحَزْمُ فيهِمَا: شِدَّةٌ في غيرِ عنفٍ ولينٌ من غير

(١) هذا القول منتزع من كلمة جميلة في صفة الصديق تُنسَبُ في نهج البلاغة ٤/ ٦٩ وربيع الأبرار ١/ ٨٠٥ والتذكرة الحمدونية ١/ ٣٩٠ إلى علي بن أبي طالب، وفي عيون الأخبار ٢/ ٣٥٥ إلى الحسن بن علي، وفي الأدب الكبير (رسائل البلغاء) ١٠٥ - ١٠٦، والحكمة الخالدة ٣٢٦- ٢٧، وزهر الآداب ١/ ٢٢٤، والعقد الفريد للملك السعيد ٢٥٣، إلى ابن المقفع.

(٢) في الهندية: وبه الإعانة.

(٣) ما بين الحاصرتين في الهندية فقط.

ضعفٍ[١] قَد جَعَل عطاءَهُ للغَنَاءِ لا للهوى وعِقَابَهُ لِلأدَبِ لا لِلْغَضَبِ؛ يجلس بَيْنَهُم مُتَوَاضِعاً فِيهِمْ كأنَّهُ واحِدٌ مِنْهُمْ وهم مع ذلك لا يكادون يرفعُون أبْصَارَهُم إليهِ هيبةً لَهُ وقد حَمَلَه على التواضُع حُبُّ الرِّفعةِ؛ يَعْمَلُ للرِئاسَة[٢] كأنَّه عاشِقٌ لَهَا ويَذِلُّ مَعَها كأنَّهُ زَاهِدٌ فيها؛ يُحبُّهُم مَحَبَّةَ الوالِدِ ويُعَاقِبُهُمْ كأنَّهُ لا رَحْمَةَ عِنْدَهُ كما يَضْرِبُ الوالدُ وَلَدَهُ إذا رَأى في ذلك مَصْلَحَتَهُ إشفاقاً لهُم من شِدَّةِ إشْفَاقِه عليهم. يسيرُ فِيهِم ببَعْضِ ما يَكْرَهُوْنَ حِرْصاً مِنْهُ على ما يُحِبُّونَ [ق٢أ]. وقد جَعَلَ ذلكَ كالدَّوَاءِ في مُدَّةِ استِعمَالِ الغِذَاءِ الذي لا تُحْفَظُ الصِحَّةُ إلّا بِهِ، وكالمِلْح في الطَّعام الذي لا يَطِيبُ إلّا مَعَهُ. قد أظْهَرَ لهُم خُشونةً تمنعُهُم من الجراءة عليه، وأبطنَ لهم رَأفَةً ورحمةً تَمْنعُهُ عن ظُلْمِهم. قد اختار لنفسِهِ التَّعَبَ في راحتِهِم؛ تَسْهَرُ عَيْنُهُ لِتَنَامَ أعْيُنُهُم، ويتعَبُ جِسْمُهُ في رَاحَةِ أجسامهم. فكان قَد

(١) هذا القول مشهور النسبة إلى زياد بن أبيه والي معاوية على البصرة ثم على العراق (٤٤ - ٥٣هـ)؛ العقد الفريد ٥/ ٧، ٢٤، وبهجة المجالس ١/ ٣٣١، ٣٣٤، والبيان ٣/ ٢٥٥. وينسبه جعفر ابن شمس الخلافة في كتاب الآداب ص٢٦، وابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٩، والطرطوشي في السراج ص٥٠ إلى عمر بن الخطاب. وقارن بتذكرة ابن حمدون ١/ ٤٠١، ومحاضرات الأدباء ١/ ١٦٦، والحكمة الخالدة ٦٤، وبدائع السلك ١/ ٤٧٧، ٢/ ٣٢.

(٢) في الأصل: الرياسة.

رَكِبَ من ذلك طريقةً صَعْبَةَ المسالِكِ شاقَّةَ المذاهِبِ[١]، فكان الذي يُسَهِّلُهَا عليهِ شِدَّةُ محبتِهِ للرِيَاسة وشَغَفُهُ بإحْيَاءِ السنَّة وبتَنْفيذِ أحكَامِ الشَرِيعَةِ حتى صار يَلْتَذّ بما يَجْني ذَلِكَ عَلَيْهِ التذاذَ العاشِقِ ضَرْبَ مَحْبُوبِهِ وإن كان يُؤْلِمُه. فكانوا يستريحون بتَعَبِهِ وينامونَ في سَهَرِهِ وَيَتَفَرَّغُونَ لِشِدَّةِ اشْتِغَالِهِ بمَصَالِحِهِمْ فجمع بذلك من رَعِيَّتِه الهَيْبَة الشديدة إلى المَحَبَّةِ الوَكِيدَةِ.

وإنَّ جاموساً تَغرَّبَ في غَيضةٍ في جِوَارِهِ فأكَلَ مِنَها وسَمِنَ وأشِرَ وبَطِرَ[٢] وعَظُمَتْ خِلْقَتُهُ واشتدَّتْ قوَّته حتَّى شَرَّدَ الوُحُوشَ عن مواطِنِهِمْ وطردهم عن مَواضِعِهِم، وإنَّ الأسَد لمَّا عَلِمَ بِمَكَانهِ هَالَهُ واستَفْظَعَ أمْرَهُ وَكَرِهَ أن يَبْدُو لأحدٍ ما في نفسه.

وكان في جُمْلَةِ عَسْكرِهِ ابنُ آوى وكان يُقَال لَهُ الغَوَّاص؛ كان له رأيٌ وأدَبٌ إلا أنه كان محِباً لِلدعةِ راغباً في الخُمَولِ مشغُوفاً بطلَبِ العِلْمِ قد انصرف إليهِ بجُمْلَتِهِ فَليْسَ فيهِ فَضْلٌ لغيرِهِ يأنَسُ بالوحدةِ كما يأْنَسُ غَيْرُهُ بالمُجَالَسَةِ، أحبُّ يوميهِ إليه يومٌ خلا فِيْهِ [ق٢ب] بفكرِهِ ونظر في كُتَبِهِ، وكان له صديق يأمَنُهُ ويأنسُ به ويخرج إليه بما في نفسه.

---

(١) قارن بصفات ممثالة عند الطرطوشي في سراج الملوك ص٦٨، وعيون الأخبار ١/ ٢٨٩.

(٢) في الهندية: وسمن وبطن.

[٢] باب ما يجبُ على الرعية من نصيحة الملك؛ وأنَّ ذلك ينْفَعُ النَاصِحَ كَنَفْعِهِ للْمَنْصُوحِ وأنَّ أمْرَ المَلِكِ والرَّعِيَّةِ مُتَعَلَّقٌ بَعْضُهُ بِبَعْض وفيه دلالَةٌ على أنَّ نُصْحَه لِلمَلِكِ نُصْحُهُ لِنَفْسِهِ

فَقَالَ لِصَديقِهِ ذاتَ يوم: يا أخي! أمَا ترى الأسَدَ مُقَارن فِكْرٍ يخفِيهِ ومضمر شيءٍ لا يُبْديهِ؟!

قال له صَدِيقُهُ: إنَّ مَنْ تَكَلَّفَ ما لا يَعْنِيهِ أضَرَّ ذلك بما يَعْنِيهِ وليس لنا أن نَنْظُرَ في أمرٍ ليس لنا ونحن في عافية يجب أن نَلْزَمَها ما لَزِمَتْنا!

قال له الغَوَّاص: قد سمعتُ ما قُلْتَ ولكِن قد يجِبُ على الرعِيَّةِ أن يُجْهِدُوا أنفسهم في صَلاَحِ الملك ومَعُونَتِهِ بما يجِدُون إلَيْهِ السَّبِيلَ منْ رأي وقدرةٍ، كما يجبُ على المَلِكِ أن يَبْذُلَ لِرَعِيَّتِهِ ما يُصْلِحُ حالَهُم من تدبيرٍ وقوتٍ فإنَّ صَلاَحَ الملكِ صَلاَحُ مملكتِهِ وَرَعِيَّتِه وفي صلاح مملكتِهِ صلاحُ الجُمْلةِ التي الناصحُ جزءٌ مِنهَا يَضُرُّه ما يَضُرُّها وَيَنْفَعُهُ ما يَنْفَعُهَا[١] وقد قَالَت الحكماء: مَن ادَّخَرَ عن المَلِكِ نصيحَتَه

(١) البصائر والذخائر ٣/ ٢/ ١٤١: "قال فيلسوف: محل الملك من رعيته محل الروح من البدن، فالروح تألم لألم كل عضو من أعضاء البدن وسائره لا يألم لألم غيره. وفي فساد الروح فساد جميع البدن..."، وقارن بآثار الأول=

واستبدَّ عن صديقِهِ برأيِهِ أو كتم طبيبَهُ دِاءَهُ فقد خَانَ نَفْسَهُ(١). وقالُوا: ما أحدٌ أوْلى بالإحْسَانِ مِنْ والٍ ولا أحقّ بالنَّصِيحة مِنْ مُوَلًّى عَلَيْهِ، فَإنَّ الوالي إذا هلك من يَلِي عَلَيْهِ لم يَكُنْ لَهُ وِلايَةٌ والرَعِيَّةِ إذا لَمْ يُعْدَلْ [ق٣أ] عليهَا هَلَكَتْ. فَمن غَشَّ الوُلاَةَ من الرَّعِيَّةِ فَنَفْسَهُ غشَّ ومن نَصَحَهُم فَنَفْسَهُ نَصَحَ وَلَيْسَ المَلِكُ بأحْوَجَ إلى إصلاحَ مَمْلَكَتِهِ من أهلِ مَمْلَكَتِهِ إلى صَلاَحِهِ. وقد ذُكِر أن بعض المُلُوكِ قال لِرَعِيَّته: ينبغي لكلِّ واحدٍ منكم أن يعتقد في جهَادِهِ أنَّهُ إنما يُجاهِد بنفسه عن نَفسه وبمهجته عن حَريمِهِ فإنْ لم تفعلوا فاعلموا أن أعداءكُم أشدُّكم رضىً بهذه الحال، وأقلُّكم جَزَعاً منها. وجميعُ العالَم مربوطٌ بعضُهُ ببعضٍ كالزَارِع الذي لا يَتمُّ أمْرُهُ إلّا بالحدّادِ والحدّادُ لا يقومُ عَيْشُهُ إلّا بالزَّارِعِ، ومثل الطائر الذي يُخَلِّل التِمْسِاحَ(٢) فإنَّ بهذا يَنْتَفِعُ هذا وبهذا يَرْتَزِقُ هذا؛ وكَالكِتَابَةِ

=ص١٥، وسراج الملوك ص ٤٠، والحكمة الخالدة ص ٦٢، وص ٢٢٠ - ٢٢١.

(١) كليلة ودمنة ص٦٨، ويتيمة السلطان (في رسائل البلغاء/ ١٩٥٤) ص١٥٧، وروضة العقلاء ص٢٧٤. وفي العقد الفريد ١/ ١٠: وفي كتاب للهند: ... فإنه يقال: مَن كتم السلطان نصيحته والأطباء مرضه والإخوان بثّه فقد أخلَّ بنفسه؛ وقارن بعيون الأخبار ١/ ٩٢، وتذكرة ابن حمدون ص٨٢، وسلوك المالك ١٧٨، ونهاية الأرب ٦/ ١٠.

(٢) قارن بالتصور القديم للقضية في طباع الحيوان لأرسطو (ترجمة يوحنا ابن=

على حجم الدفتر فإنَّها لا يتبيَّن معناها إلا عند ضمّ بعضها إلى بعضٍ، كذلك أمْرُ العَالَمِ لا تُعْلَمُ الحكمة في أجْزَائِهِ إلا عند إضافَةِ بعضها إلى بعضٍ ولهذا يصعُبُ على مَنْ لم ينْظُرْ في العالم نظراً كلياً وجهُ الحكمة في أجزائه لأنَّه يرى شيئاً ناقِصاً تَمَامُهُ في غَيْرِه حَسَنُ الغَنَاء في جُمْلَتِهِ فيكون كمن رأى جَفْنَ سيفٍ ولم يكن رأى سيفاً قط فإنَّه يَقْضِي لصانِعِهِ بالجهل حتى إذا عَلِمَ الفَائِدَةَ فيهِ قَضىَ له بعد ذلك بالحِكْمَة(١). وأنا أرى في نفسِ الملكِ شيئاً فأنا أجهد أنْ يكونَ كفايَتُهُ فيما أهمَّه بيدي ورأيي فإني قد أحسَنْتُ بذلك من نفسي وقَد حرَّكَني عليه شيءٌ في قلبي لم أكُنْ أعرِفُهُ من شأني مع ما تَعَلمُهُ من حُبّي الخمولَ وقلَّةَ تعرُّضي لغيرِهِ وأظُنُّ أنَّ سعادة الملِك [ق٣ب] هي التي حرَّكَتني وإنني سأمضي وأتسبَّب لِلِقاء الملك!

قال له صَدِيقُهُ: لا يَدْعُوَنَّكَ إلى التَقَرُّبِ من الملوك حُبُّ الاستكثار من الحُطام الزّائل فإنَّ الزائدَ الذي تُرْزَقُهُ مع القلة

=البطريق ط. بدوي ١٩٧٧) ص٣٨٨، ومروج الذهب للمسعودي ١/ ١٢٧.

(١) في كتاب بروسن ص١٤٦: "... والإنسان محتاج في تدبيره معاشه إلى الصناعات. والصناعات مضمنُ بعضها في بعض كالبناء الذي يحتاج إلى النجّار، والنجار يحتاج إلى صناعة الحدادين... فكل واحدة وإن كانت تامة في نفسها تحتاج إلى الأخرى" .

هو الذي مع الكثرة تُرْزَؤُهُ وتفضّلُ مُعالجةَ الخطرِ ومقاساةَ التعب. واعْلَمْ أنَّ رِزْقَ النَمْلَةِ على شِدَّةِ احتكارهَا كَرِزْقِ الطيرِ التي تَغْدُو خِماصاً وتروح بطاناً، وينالُ العُصْفُورُ من العَيْشِ على ضَعْفِهِ ما ينالُ الفِيلُ مع شدَّتِهِ والأسدُ بشجاعتِهِ، ويدركُ الخلدُ الأعمى مع قلة انبعاثِهِ وتصرُّفِهِ ما ينال العُقَابُ على حدَّةِ بصرهِ وبُعد اكتسابِهِ. وقد قال بعضَ الحكماء: في المال ثلاث خصالٍ لا يؤْسَى عليه معها. قيل له: ما هي؟ قال: لا يُكْتَسَبُ من حِلَّه! قالوا: فإنْ فَعَلَ! قال: يَمْنَعُهُ من حَقِّهِ! قَالُوا: فإنْ لَمْ يَفْعَلْ! قال: يَشْغَلُهُ إصلاحُهُ عن عبادةِ ربِّه! [1]. وقالوا: احذرْ صحبةَ السلطان فإنَّ إقْبَالَهُ تَعَبٌ وإعراضَهُ مذلَّةٌ[2]. وقد قِيل: أحْسَنُ ما في الأنفَةِ التَرفُّع عن مَعَايب

(١) قارن بالفكرة في البيان والتبيين ٣/ ١٩١. وفي عيون الأخبار ١/ ٢٤٦: ورُوي عن المسيح أنه قال: في المال ثلاث خصال. قالوا: وما هي يا روح الله؟ قال: لا يكسبهُ من حله قالوا: فإن فعل؟ قال: يمنعه من حقه! قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: يشغله إصلاحه عن عبادة ربه! وانظر أدب الدنيا والدين للماوردي ص ١٠٧، نثر الدر للآبي ص٣، الإحياء للغزالي (١٣١٢هـ) ٣/ ١٦٤.

(٢) وفي أنساب الأشراف ٣/ ٢٤٥: "قال ابن المقفع لأبي أيوب المورياني: أذم إليك السلطان فإن إقباله تعب وإعراضه مذلة". وينسب ابن حمدون في تذكرته ١/ ٣٤٩ هذا القول إلى "القدماء". وانظر نصيحة الملوك للغزالي ص ٨٠ - ٨١ (بهامش سراج الملوك/ ١٣٠٦هـ)، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (دار الفكر/ ١٩٥٦) ٤/ ٤٩٦.

الناس، وتَرْكُ الخضُوع لما زاد على الكفاية. وقد قيل: تَعَبُ كُلِّ أحدٍ بقَدْر حرصه، وفَقْرُهُ بقَدْر طَمَعه، وراحتُهُ بحسب تسليمه، وغِنَاه نظير قناعته. وأنا أعظك يا أخي أن يفرطَ بك الحرصُ فيكون مَثَلُكَ مَثَل البازي والدُرَّاجة.

قال الغَوَّاص: وكيف كان يا أخي أمرهما؟

قال: ذُكر أنَّ رجلاً من الدهاقين جاءَ إلى بعض أمراء خراسان ومعه بازيٌّ ودُرَّاجة فقال: أيها الأمير! إنَّ هذا البازي كان لي وإنِّي مررتُ بِبَعْضِ الغِياضِ وقد أطْلَقْتُ في ناحيةٍ منها ناراً وطارت هذه الدراجة فأرسلت البازي عليها فمرّ في أثرها وهي مولِّيَةٌ حتى أوقَعَهَا شدةُ الخوف في النار وتقَحَّمَها البازي في أثرها فاحترقا جميعاً فأتيتُك بهما لِتَرَى عَاقِبَةَ الحرصِ والجُبنِ. وأنا أخشى عليك عاقِبَتَهُما فإني أراك حريصاً على ما يضرُّ بِكَ جباناً عن ملك نفسِك[1].

قال له الغَوَّاص: ليس حبّ الزاد همِّي ولا الدنيا طلبي، ولكن[2] أنْ أبلو في الكَافّةِ بلاءً يَحْسُنُ فيه فعلي[3].

---

(١) في الأصل: ولكني.

(٢) في العقد الفريد للملك السعيد لابن طلحة ص ١٧ "... رأيتُ بازياً قد تبع دراجةً فجاءت الدراجة إلى أجمة قد وقعت فيها نار فألقت نفسها في الأجمة فهلكت فدخل البازي من حرصه خلفها فاحترق وأنا أراه..." والقصة بصيغة أطول في سياسة الملوك لعبدالرحمن بن عبدالله ق ٣٢أ.

(٣) قارن بكليلة ودمنة ص ٤٦ - ٤٨.

قال له صديقه: يا أخي! إنّ للسلطان أصحاباً وللعلم أصحاباً وليس بالنفاذ في العالم ينفُذُ المرء في صحبة الملوك فإن كنتَ أنت ممَّن يصلُحُ لِصُحْبة السلطان فإن أصحاب السلطان يَصْلُحُون للعلم وإنما مَثَلُكَ في ذَلِكَ مَثَلُ الرَجلِ الذي وجد المنخل على فراشِهِ!

قال: وكيف كان أمرُهِ؟

قال: ذُكر أن رجلاً كانت له امرأة وكانت سيئّة الأدَبِ فجاءَ يوماً من الأيام فوجد المنخلَ على فراشِهِ فَتَعَلَّقَ بالوَتَدِ فقالت له امرأتُهُ: ما هذا؟ فقال: إذا كان ذلك الموضع موضع المنخلِ كان هذا الموضع موضعِي أنا! وقد قالت الحكماءُ: ينبغي للعاقِلِ أن لا يكتسب إلّا بأزيد ما فيه ولا يصحب إلّا المُقَارب له [ق٤ب] في خُلُقِهِ؛ وليست آلة صحبة السلطان أزيد ما فيك ولا هذا الملكُ ممَّن تَثِقُ بمُقَارَبَةِ خُلُقِهِ فقلْ لي كيف نَشَطْتَ لهذا ولا أعرِفُكَ إلّا مُحِباً لِلدَعْوَةِ[1] قد شَغَلَك العِلمُ عن التعَرُّضِ لِغيرِهِ، وقَلَّ من استفرَغَهُ أمْرٌ فكان له نَفَاذٌ في سِوَاهُ.

قال له الغَوَّاص: إني أخشى أن يكون عِلْمي حجةً عليَّ فإنَّ السَّعيدَ من استعمل نعمة الله عليه فيما يقرِّبُه إليه فتكونَ

---

(١) يمكن أن تقرأ أيضاً: للدعة.

الفضيلةُ التي أوتيها سبباً لفضيلةٍ أكبرَ منها ويجعل من شُكْرِهِ عليها أنْ يَسْتَعْمِلَهَا في طاعةِ وَاهِبها جَعَلَنَا الله وإيَّاكَ ممَّن انتَفَعَ بِعِلْمِهِ ولم يكُنْ عِلْمُهُ حُجَّةً في التقصيرِ عَلَيْهِ فإنَّ الجَاهِلَ أعْذَرُ من العالم المقصِّرِ. اللهمَّ لا تَجْعَلْ ما آتَيْتَني من فَضْلِكَ سَبَباً للعُقُوبَةِ منك بالتَقْصِيرِ في لَوَازِمِهِ أو وَضْعِهِ في غَيْرِ مَوَاضِعِهِ فيكون إحْسانُكَ إليّ سَبَباً لِعُقُوبتك لي ومِنَّتُكَ عليّ سَبَباً لسخطك عليَّ. تَرَفَّقْ[1] ولا تَعْجَلْ فقد قيل[2]: أنت على فِعلِ ما لَمْ تفْعَلْ أقدرُ منك على ردِّ ما فَعَلْتَ!

قال: يا أخي إنَّ الرأْي والمكيدةَ إذا فات وقْتُهَا صَارَتِ المكيدةُ رَاجِعَةً على صَاحِبِها لما يَكْتَسِبُهُ من الحَسْرَةِ والنَّدامَةِ في فَوَاتِ الفُرْصَةِ.

قالَ لَهُ صديقُهُ: ما أُظُنُّك إلّا قد أحْسَسْتَ من نفسِك بقُوَّةٍ ورأيتَ فيها فَضْلاً فأنْتَ تَكْرَه أن تضيِّعَهُ [ق٥ب] وما أرَى

(١) يبدو أن هذا بده كلام جديد لصديق الغَوَّاص.

(٢) قارن عن هذا القول: البيان ٣/ ٢٠٣، وكليلة ودمنة (دي ساسي/ ١٨١٦) ص١٧، والمحاسن والمساوىء للبيهقي ص٤٢٥، وبهجة المجالس١/ ٣٤٧، وكتاب الآداب لابن شمس الخلافة ص٤٩، ١٣٢، والموشى١٠، وتاريخ دمشق الكبير لابن عساكر (١٩٧٦) ص٢٢٥، ولباب الآداب ص١٨، والتذكرة الحمدونية ١/ ٣٥٩. وهو يُنسب في المصادر لكسرى وقَيصر وملك الصين (في محاورة مزعومةٍ بينهم)، وعلي بن أبي طالب والشعبي.

مَثَلَك في استِعْمَالِهِ وإنْ لَمْ تَدْعُكَ إليه حاجةٌ إلّا مثلَ السائلِ الحسنِ الحالِ قال: وكيف كان مَثلُهُ؟ قال: ذكروا أنّ رجلاً حَسَنَ الحالِ كانَ يسألُ الناسَ مِمَّا في أيديهم فَعَاتَبَهُ بَعْضُ أصدقائه عَلَى فِعْلِ ذلك فقال: يا بُنيّ إن معي من لطفِ السؤال ما لا تطيبُ نفسي بترك استعمالِهِ! وكذلك أنت فإنَّك قد وجدتَ من نفسك فَضْلاً لا تَطِيبُ نَفْسُكَ بتضييعه. واعلم يا أخي أن هذا بابٌ صار للناسِ في أمورهم يتولد من ضَعْفِ المرء عن مُقَاومةِ طبعِهِ وقلَّة سُلْطَانِهِ على نفسِهِ فيعجز عقلُهُ عن التأمُّرِ على فضائِلِهِ فيضعها غير موضعها ويخرجها في غير المكان اللاَّئِق بها فيكون مَثَلُهَا مَثَلَ الدواءِ النافعِ والغذاءِ المُوافق إذا استُعْمِلا في غير مواضعِهِمَا فإنهما ربما كانا أقْتَلَ من السُمِّ الناقعِ فإنما مثَلُ العقل مثل الملك والفضائل جنوده فمتى زاد على عقل المرء فضيلة من فضائله كان مثله مثل المملكة التي غَلَبَ جُنْدُهَا على مَلِكِهَا فَفَنَّدُوا من رأيهِ وأفسدوا من تَدبِيرِه؛ فَكَمْ من فصيحٍ أهلكتهُ فصاحتُهُ، وعالمٍ أعْطَبَهُ عِلْمُهُ، وشُجَاعٍ قَتَلَتْهُ شَجَاعَتُهُ، وذي فضيلةٍ كان عَدَمُهَا خيراً لِصاحِبِها فلذلك قِيل[1]: مَنْ لَمْ يكن عقلهُ أغلبَ خصال

(١) قارن بالقول في الكامل للمبرد ١/ ٧٥ منسوباً إلى أردشير. ويرد شعراً في=

الخير عليه كان هلاكه في أغلب خصال الخير عليه. فانظُرْ يا أخي وترفَّقْ ولا تعجل.

قال: فأخشى أن تكونَ الفرصةُ التي لي اليوم غصَّةً لي غداً فيكون الذي أرجو المنفعة بِهِ لنفسي ولجميع أهلِ المملكة من أبواب المضرة [ق٦٦أ] فإنَّ مُضَيِّعَ الفرصة في وَقْتِهَا حقيقٌ بالندامَةِ في أثرهَا ومع الندامة تكون الحسرة[١]، ومع الحسرةِ يكونُ الضنى في القلبِ والكبدِ فأموتُ مفرّطاً أو أعيش كئيباً.

[٣] باب فيما يحتاج إليه ذو الفضل من المداراة لأصحاب الملوك

وفي هذا الباب ردع للعاقل من أن يُدِلَّ بِفَضْلِهِ فيحمله ذلك على التهاون بمَن دونه.

قال له صديقه: إنَّ الحكماء قالوا؛ يجب على الصديق

=عين الأدب والسياسة ص٥٨. وينسبه العسكري في المصون ص١٤٠، ١٤١ إلى العرب بصيغة مختلفة. وهو منسوب في السراج ص٥٥، والمستطرف (٢٧٥هـ) ١/ ١٩ إلى القاسم بن محمد، وفي السراج ص٥٦ إلى كسرى. وقارن به في الحكمة الخالدة ص١٢٠، وعيون الأخبار١/ ٣٣٠.

(١) في البرهان في وجوه البيان ص٤٠٨: «قلَّ من ضيّع فرصة قد أمكنته وأخَّرها حتى تفوته فظفر بمثلها...».

لصديقه أن ينصحه إذا أطاعه ويساعده إذا عَصَاه وقد نصحْتُكَ فأمَّا إذا كان لا بد من معصيتي فاحفظ عني ما أُوصيك به وأعلم أنَّ جميع الناسِ يلقون الملوك بفرط التذلُّل والتصويب لخطائِهم والموافقة لأهوائهم، وتَتَفَاوَتُ المَنَازِلُ عندهم بِقَدْرِ تفاوت ما يفعلون من ذلك معهم؛ وأهلُ الفضلِ أبعدُ الناس من هذه الخلال وأهل النقص أقربهم إلى هذه الخصال فلذلك كثر أهل النقص في حَوَاشِيْهِم وغواشيهم. وأنت مضطرٌّ عند صُحبة الملوك إلى مُعَامَلَتِهم ومُخَالَطَتِهِم [ق٦ب] فَلاَ تحتقرنّ بهم لما تعلمه من ضعفِ آرائهم فإنّ أضعف المَخْلُوقَاتِ البَقُّ إذا اجتمع قَتَلَ أشدَّ السباع. وأعلم أن لكل شيءٍ آفة، وآفةُ العاقل مُقاساةُ الجاهل كحجر الماس الذي يقطع كُلَّ شيءٍ فإذا قرنْتَ به الأُسْرُب[1] فَتَّه، فهكذا العاقل لا يقوم له شيءٌ فإذا قُرِنَ به الجاهلُ لم يَقُمْ له. وقد قيل: إذا أردْت أن تُفْحِمَ عاقلاً فأحْضِرْهُ جاهلاً. واعلم أن رأس الأمور المداراة والتواضع. وقد قيل: البِشْرُ الحَسَنُ دَفْعُ صغيرةٍ بأيسر مؤونةٍ. وقيل: المتواضِعُ من العلماء أكثرُهُم علماً كما أنَّ المَكَانَ المُنْخَفِض أكثر البقاع ماءً. وقال بعضُ الحكماء: مَنْ أنْزَلَ

(١) الأسْرُب: الرصاص (لسان العرب: سرب).

نَفْسَهُ بمنزِلَةِ العاقلِ أنْزَلَهُ الناس بمنزلة الجاهل، ومَن رضي عن نفسه سخطَ الله والناس عليه. ولا تُقدّر أن الملوك يحتاجون إلى أهل الكيس والفطنة فربما كان البغل والحمارِ وهما من أبلد الحيوانِ من مراكب الملوك مكرمَين عندهم، والقرد؛ وهو أذكاها وأفطنها؛ ممتهَناً مستذَلاً لأنَّهُ ليس أمر العالم كله يجري على الكَيس والفطنة ولا على الذكاء والمعرفة، ولكن لِكُلٍّ مَقَامٍ مقال ولكل شيءٍ مكان. فاعلم أن بعض الناس يصلُحُ للجدِّ وبعضهم للهزل وبين هذين درجات مختلفات، وأن اختلاف مقادير الناس عند الملوك كاختلاف مقادير الأطعمة عند الناس، فإنَّ المرء قد يَمَلُّ الأطعمة [ق٧أ] الحُلوةَ والدسمةَ فتميل نفسه إلى الحِرِّيفة والمالحة وإن كان يعلم أنّ الأولى أجَلُّ وأنفع من الأخرى. والحلو وإنْ كان أطيب في الطعم فإنَّ لِلمَالِحِ موقعاً من النفس لا يكاد يُغني عنه ما هو أطْيَبُ طَعْماً منه. وقد يميل المرء إلى اللون الذي يوافق مزاجه وتلتذُّه نفسُهُ ويقبلُهُ طَبْعُهُ فتُحدثُ مُداومتُهُ له ضَرْباً من الملالة حتى لا يجد له لذةً إلّا بعد ما يجمُّ به نفسه وهذا مثل مَنْ يريد أن يقتصر الملوك عليه من أهل الفضل والمعرفة والعلم والحكمة. وأعلم أنَّ أنفق الناس عند الملوك مَنْ مزج الجدَّ بالمُهازلة والتحقيق بالمقاربة فإن أطيب الحلو

ما مازجه شيءٌ من الخبز وكل نافع زاد عن حدّه فهو ضارٌّ لمستعمله، فإنَّ الحِمْية نافعةٌ فإذا كَثُرَتْ كانت إلى العطب مؤدّية، وقد يُسْتَضَاءُ بنورِ الشمسِ فإنْ أُطِيْلَ النَظَرُ إليها أعْشتِ الناظرَ، والماء الذي به حياةُ الإنسان إذا كَثُرَ غرَّقَه كثيرُهُ، والدواءُ قليلُهُ نافعٌ وكثيرُهُ قاتلٌ والغِذاءُ فالمقدارُ الكافي منه حافظٌ للحياة وفي الإكثار منه أسبابُ الهلاك، وكما أنَّ زَلَّة البخيل في التقتير كذلك زَلةُ السخيِّ في التبذير، وكما أَنَّ زَلَّةَ الجاهل في العجلة كذلك زَلَّةُ العالِمِ في التؤَدة. ولا تُنَافِسْ في قُرب المجلس عندهم فإنك أحد رجلين، إمَّا كنتَ غيرَ قريبٍ من قلبه فاستقصاؤك في القرب منه يزيدك [ق٧أ] ثقلاً عليه وبُعْداً منه أو قريباً من قلبه فأقلُّ ما يجبُ عليك من خدمتِهِ إيثَارُك بالقرب منه مَنْ يحتاجُ إلى التألف له، وأذكِّرك قول بعض الحكماء: إنَّ لكلِّ شيءٍ حداً فما جاوزه كان سرفاً وما قصرَ عنه كان عجزاً. فلا تبلغ بك النصيحة للملك أن تُعادي له حاشيةً من أهله وخاصةً من قومه[1] فليس ذلك من حقه عليك ولكن أقْضى لِحَقِّهِ وأدْعَى للسلامة إليك أن تستصلحَ له جهدَكَ فإنك إن فعلتَ ذلك شكرْتَ له نعمَتَهُ وأمنت حجته

(١) قارن بسراج الملوك ص ٢٢٣، والحكمة الخالدة ص ٣٠٤ - ٣٠٦.

وقلَّلْتَ عدوّكَ عنده، وقول الآخر: احرص على تقليل عدو السلطان الذي لك منه الخاصة فإن عدوه عليك أعظم منه عليه وذلك أنه يكيده بالأخص فالأخص من كُفاته وأعوانه فيُحصي مثالبهم، ويتتبع آثارهم ويوقع له الشبهة في أمورهم. وهذا من أعظم ما يُحتال به على الملوك فاحفظ هذا الباب حفظك لنفسك وقد قيل: احفظ السلطانَ بالحذر والصديق بالتواضع، والعدو بالحجة والعامة بالبشر[1]. ولا تُدِلّ عليه إذا وَثِقْتَ به فإنَّ الدالّة تفسد الحرمة المتأكّدة. واذكر قول بعض الحكماء: إذا سأل الملك عن رأيٍ وكنتَ في جماعةٍ فاحذر التَسَرُّع إلى الإجابة فإنّ استدبار الرأي أحرى أن يكشف عن فَصِّهِ، وإذا سمعتَ آراءهم كنت أحرى [ق٧ب] أن تتدبرها وتقيسها بما عندك فإذا انتهى الجواب إليك أجبْتَ وقد تثبّتّ واستهديتَ برأيِ غيرِكَ فيهِ[2]. واحذر التقرُّبَ إليه في حرمه إما بِحَثِّهِ عليهنَّ وإما بنصيحةٍ فيهن فإن هذا الباب ربما أُتيَ منه

---

(١) قارن بنصائح مشابهة في كيفية معاملة طبقات الناس: صوان الحكمة ص٢٤٦، وبدائع السلك١/ ٣٠٧، وعيون الأخبار١/ ٨، وسراج الملوك، ص٥٠.

(٢) قارن بكلام لابن المقفع في الموضوع (رسائل البلغاء لمحمد كرد علي/ ١٩٤٦) ص ٦٢ - ٦٣.

أخصُّ الخاصّة على يد أخسّ الأتْباع، واحذر الضمانَ له عن كُفاته فإنّ السلطان لا يذكر ذلك الضمان ما أحسنوا ويذكره إذا أساءوا فلا يكون على الجاني أشد حيفاً منه على سيئةٍ إليه من وزرائه. وجماع أمرك معه واحدةٌ لا تُبْلَغُ إلّا بمجاهدة الهوى وبطاعة الرأي؛ وهي مسامحة أصحابه في مراتب الأُنْس فإنها سريعة الزوال وربما أفْضت بصاحبها إلى الهلاك؛ ومنافسة أكْفائك في مراتب التدبير؛ فإنّها أدْوَمُ عِزّاً وأثبتُ قاعدة. وقول الآخر: ليكن ممَّا يعرفُكَ به السلطانُ أن تنحَلَهُ التدبير ولا تنتحلَهُ عليه وتنتحل عنه التقصير ولا تنحله إياه حتى تجعل محله محلّ الآمر ومحلك محل المنفِّذ فإنْ ظهر من أمره حَسَنٌ نَسَبْتَهُ إلى تدبيره، وإن ظهر منه عَجْزٌ أضَفْتَهُ إلى نفسك فتكون قد حويت بذلك خلتين؛ فضل المنزلة عنده والوفاء عند الناس. فإذا جاريت عند السلطان كفواً من أكفائك فلتكن مجاراتك إياه بالحجة وإن عفرك، وبالرفق وإن خرق بك. واحذر أن يستلجّك الغضب فتحمى فإنَّ الغضب [ق٨أ] يُعمي عن الفُرصة، ويقطع عن الحُجَّة، ويُظهر عليك الخصمَ. وإذا حُمد لك رأيٌ أو ظهر لك صوابٌ فلا تُكثر من ذكره إكثارَ المتبجِّح؛ فإنَّ ذلك يُثير حميَّة الملك و(غيرته) من أصحابه (بحيث) ينسى إحسانك معها. واعلم أنَّ

الامتنان يحمل على جَحْد الإِحسان، وينتقل به صاحبُهُ من المحمدة إلى المذَمَّةِ، ومن رُتبة الإحسان إلى الإساءة. وقال بعض الحكماء: إذا رأيتَ السلطان يجعلك أخاً فاجعلْهُ ربّاً؛ فإن زادك فَزِدْهُ[1]. وقال آخر: صاحبُ السلطان كراكبِ الأسد يَهَابُهُ مَنْ يراهُ وهو لمركبه أهْيَبُ[2]. وليكُنْ طلبك ما عند السلطان بالأثر لا بالطلب، وبالكفاية لا بالمسألة. ولا تكلِّفْهُ ما ليس في طبعه فإنّ ذلك لا يفعلُهُ لنفسه فكيف يفعلُهُ لغيره؟! ولا يثقلنَّ عليك إن بخسك في بعض الأوقات بعضَ حقك؛ فقد يجودُ عليك في غير ذلك الوقت بأكثر من حقك؛ فإنَّ

(١) في العقد الفريد ١/ ١٨: إذا زادك السلطان إكراماً فزده إعظاماً، وإذا جعلك عبداً فاجعله رباً. وقارن بسراج الملوك للطرطوشي ٢٢٣، محاضرات الأدباء١/ ١٨٦، الأدب الكبير (رسائل البلغاء) ٥٤، الحكمة الخالدة ٢٩٩، تحفة الوزراء المنسوب للثعالبي ٢٦، عين الأدب والسياسة ص٤٠، والبصائر والذخائر ٢/١٨٨، بدائع السلك ٢/ ١٢١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (دار الفكر) ٤/٤٩٧، وآثار الأول ١١٣ (الحسن بن سهل)، والتذكرة الهروية ص ٢٥٩.

(٢) قارن بكتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة ٢٩، وسراج الملوك ص٢٢٢، وتذكرة ابن حمدون ١/ ٣٣٢ - ٣٣٣، وعيون الأخبار ١/ ٢١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (دار الفكر/ ١٩٥٦) ٤/ ٤٩٧، وبهجة المجالس ١/ ٣٥٣، وقوانين الوزارة للماوردي ١٧٠، ورسائل فلسفية ٢٧٦، والإشارة للمرادي ص ١٢٥، وزهر الآداب ص٦٧٥، والتمثيل والمحاضرة ص١٣١، وتحسين القبيح ص٩٠.

أُمورَ الدنيا يُشبهُ بعضها بعضاً، ولا تراها إلا جائزةً بالشيء حَدَّه أو باخسةً له حقه[1]. ولا تتكِلَنَّ في خدمة السلطان على إحسانِكَ الأول فلا تَرُبُّهُ في المستقبل كما لا تتكل في الغرسة التي تغرسها أن تسقيها عاماً من الأعوامِ وتُظْمِئَها باقي الأيام [ق٨ب].

[٤] باب مضرة التبرع بالنصائح وكيف يتلطف المرء في إيرادها مع السلامة من التبعة فيها

ثم إن الغَوَّاص فكّر في نفسه وقال: أخشى أن أبدأ الملكَ بنصيحتي ولستُ من أهل أُنْسِهِ (فيكونُ) من أمْرِهِ ما يضعُ مني بين شعري(؟) وقولي؛ فأكون قد طلبْتُ منفعته بمضرَّتي؛ فلا أنا نفعتُهُ وضررْتُ نفسي! ويجوز أن أجيءَ منه على حالِ مَلَلٍ وضَجَر فأكُونَ كَمَنْ ركب البَحْرَ وقتَ هَيْجِهِ في سفينةٍ وحده ولم يكن ركب البَحْرَ قَطُّ ولا عرف مُمارَسَتَهُ. ويجوزُ أن يَرَى الملك من صلاح السياسة في مملكته أَنْ لا يطمعَ أحدٌ في التجَرُؤ عليه بالاعتراض في الرأي فإنّ هذا البابَ إذا انفتح على الملك كان استضرارهُ بتجرّي العامة عليه في الآراء أكثر من الانتفاع بما لعلهم يغلطون بالصواب فيه! ولو أني علمْتُ

(١) قارن بعيون الأخبار ١/ ٢٠، والعقد الفريد ١/ ١١.

أنه إذا سمعها إمّا قَبلَهَا فعمل فانتفع بها أو لم تَصْلُحْ له ردَّ عليَّ ردّاً جميلاً وكَتَمَها ولم يَذْكُرْ لأحدٍ فأصير بها نادرةً من نوادر الأخبار، وضحكةً من ضحك الأحاديث يقطع المُجّانُ بحديثي أوقاتَهُمْ، ويجعله المضحكون مَثَلاً لهم؛ فإنَّ النفس موكولةٌ بحُبِّ استِطْراف الأحاديث وتتَبُّعِ نوادر الأخبار؛ لَوَثِقْتُ بالسلامةِ في إبدائها له. وأخشى إنْ رأى الملك مني حُسْنَ رأيٍ ومعرفةً، ونفاذاً في تدبيرٍ ومكيدةٍ ولم يَثِقْ مني بالوفاءِ له، ولم أكُنْ مُنْحَازاً إلى جُملَته [ق٩أ] ولا يُحقِّقُ أنَّ ما عندي من ذلك خالصاً له كَعُدَّةٍ من عُدَدِهِ وجُنْدٍ من جُندِهِ؛ قَصَدَ مضرَّتي وأراد اجتياحي[١] قلةَ ثقةٍ منه بي. والأحْزَمُ لي أَنْ أتسببَ إلى خِدْمته حتى يَسْكُنَ إليَّ وَيَثِقَ بي وَيَعرفَ طريقتي ومذْهبي، وأتلطّف في مُبَاسَطَتهِ؛ وأترصَّد بعد ذلك طيبَ نفسه فإذا ظَفِرْتُ بهذهِ الخِلال ذكرْتُ[٢] ما عندي له؛ فإن لم أظفر بالمنفعة التي طلَبْتُها أمِنْتُ المَضَرَّةَ التي خِفْتُها، وكنتُ في ذلك كأحد أصحابه الذين يُريدُ أن يُظْهِرَ فضائِلَهُمْ ويَسْتُر سَقَطاتهمْ، ويكون قَوْلي في سِرٍّ وستر؛ فإنْ صلحت له كانت مكتومةً عنده فانتفع بها لأنّ المكيدة إذا شهرت قدر

(١) في الأصل: احتياجي.
(٢) في الأصل: ما ذكرت.

على تبطيلها؛ فالرأيُ إذا ظهر كانت المضرَّةُ به أكثر من المنفعة، وإنْ هي لم تَصْلُحْ له كان ذلك في سرٍّ وستر ولم تكن عليّ وصمةٌ بين الناس ولا مَضَرَّةٌ عنده.

ثم إنَّهُ تَعَرَّض للسلام على الأسد وصار يُطْري حضرتَهُ فأنْكَرَ ذلك من حاله وقال له: ما الذي أهدى رغبتكَ إلينا بعد زُهْدٍ منكَ فينا؟! قال له: أيها الملك، إنَّ العاقلَ كالرأي الحاذق لا يُحبُّ أن يُضيع شيئاً من سهامه إلّا مع غَلَبَةِ الظن بإصابةِ بعض أغراضه. وقد بلغ في ظني أني أبْلُغُ من [ق٩ب] خدمتِكَ مَبْلغاً يُرضيكَ مني أعِيْنُ فيه برأيي ونفسي؛ فإنَّ المُلوكَ ربما احتاجت إلى الصغير كما تحتاجُ إلى الكبير، وربما كان الصغيرُ الحقيرُ أنفع من الكبير الخطير؛ فإنَّ الجِلاد ينفعُ فيما لا ينفعُ السيفُ فيه، والمرءُ قد يحتاجُ في الوقت إلى دواءٍ لا يُساوي حبَّةً ولا يقومُ له مقامَهُ ألْفُ بدرة(١).

فَلَمَّا سمِعَ كلامَهُ ظَنَّ فيه خَيْراً وقَدَّر عنده رأياً وقال له: أيها المرء! إنَّ الصُّوَرَ تتشابَهُ وتتقاربُ والأنْفُس تتفاضلُ وتتفاوتُ، وإنما فَضْلُ المَرْءِ في حِلْيةِ نفسه وليس في حِليَةِ

---

(١) في كليلة ودمنة ص٥١: "... فإنه لا يكاد يخلو أحدٌ وإن كان صغير القدر والمنزلة أن يكون عنده منفعة وإن صغرت؛ فإن العود المنثور في الأرض ربما انتفع به المنتفع تأكله أذنه فيحكّه بها...".

شَخْصه، ولو كانت الفضائلُ ظاهرةً في الصورة لعَرَفَ المرءُ صاحِبَهُ من لون شكلها، وأصْبَاغُ النفوس لا تُدْرَكُ إلا بالعقول، وكما أنَّ الأجسامَ لا تُبْصَرُ إلا بألوانِهَا؛ كذلك النفوسُ لا تُعْرَفُ إلا بِحَرَكَاتِها وأفعَالِهَا. والملكُ لا يَعْرِفُ أصحابَهُ حتى يظْهَرَ ما عندهم فعند ذلك يعرِفُ مَوَاضِعَهُمْ فيُنزلَهُمْ منازِلَهُمْ.

قال له: فلهذا أيها الملكُ أتيتُكَ وبذَلْتُ نفسي في خِدمتك؛ ولكني أضربُ لك مثَلاً.

قال: وما مَثَلُك؟

قال: إن البازي إذا اصطيدَ للملك فأولُ أمره يكونُ مُستوحِشاً لا ينتفعُ به؛ فإن طالبه بما يُريدهُ منه في أول أمره رأى منْ وحشته ما يدعوه إلى قَتْلِهِ أو تخليتِهِ، وإنْ رَفَقَ به قليلاً كان جديراً أنْ يَلذَّ ويَلْهُو بصيدِهِ طويلاً. هذا أيها المَلِكُ مَثَلي فإني لم آنسْ بحضرة الملِك، وفيّ مِنْ نُفورِ النفس [ق١٠أ] الحيوانية وما يُقابِلُهَا من هَيْبَةِ الملِكِ وقِلَّة الدراية بمجالَسَتِهِ وما في الكَوْن بين يديه (...) أن أدرجها إلى ما يبلغ بي رضاهُ قليلاً قليلاً.

[٥] باب انتفاع الملك بذي الرأي؛ وفيه بيانٌ عن أمْر العالِم الذي يعلمُ ولا يعملُ بعلمه

وكان بحضرة الملك بعض مَنْ يلتذُّ بتكسير الجوانِح في الصدور، وتفصيص النفوس في الإعراض فقال: (تفتاتُ) على الملِك في رأيه وتقول إنَّ عندي من التدبير ما ليس عنده؛ فإذا كنتَ أعرفَ بالتدبير فاطْلُب المُلْكَ فإنك أقْعَدُ به! فقال له: أيها المرء! إني لا أقُولُ إني أعْرَفُ بالرأيِ ولا أقْعَدُ به؛ ولكنَّ اللؤلؤَ النفيسَ قد يحتاجُ إلى الماء لِسَقْيِهِ مع قلة ذلك الماء وَضَعْفِهِ[١]. وقد شَبَّهَتِ الحُكَمَاءُ ذلك الرأي بالضَّالَّةِ؛ قد يجِدُهُ مَنْ لا يطلُبُهُ ويطلبُهُ مَنْ لا يَجِدُهُ. ألا ترى أنَّ الضَّالَّة ربما وجدها المهينُ المارُّ لسبيله وما طلبها، ولا يجدُها اليَقِظُ المُجْتهد في طلبها الذي قد جَدَّ في أثَرِهَا. وقد قالت الحكماء: شيئان لا يَصْلُحُ أحَدُهُما إلا بالانفراد والآخر لا يَصْلُحُ إلّا بالاشتراك: المُلْكُ والرأيُ؛ فكما أنَّ المُلْكَ لا يَصْلُحُ إلّا بالانفراد كذلك الرأي لا يَصلُحُ إلا بالاشتراك[٢]، وليس بالرأي يُقتَصَرُ في الوصول[٣] إلى المُلْك ولا يُنَالُ به.

---

(١) في الأصل: في الأصول.

(٢) قارن بكليلة ودمنة ص٦٠ وما بعدها.

(٣) القول في سراج الملوك للطرطوشي ص٨٨، وبدائع السلك ١/١٠٦ وهو=

قال المعترض: فأيُّ شيءٍ يحتاجُ إليه المُلْكُ؟ [ق١٠ب].

قال له الغَوَّاص: إنَّ المُلْكَ يحتاجُ إلى أشياء أولُهَا جِبلَةٌ وسعادة؛ وهذه خارجةٌ عن استطاعة البشر(١).

قال: قد فهِمْنَا السعادةَ؛ فما الجِبلَّة؟

قال؛ الجِبِلّة: الانطباعُ في الشيء واتفاقُ الشمائل فيه.

وقد قال بعضُ الحكماء: المطبوعُ في الشيء هو الذي دليلُ ذلك الشيء قويٌّ في أصل مولده. فانْظُرْ إلى العَالَم العُلْويِّ الذي نظم الله العَالَمَ السُّفليَّ على مِثَالِهِ؛ فإنك تَجِدُ الشمسَ دليلةَ المُلْك والرياسة، وعُطارد دليل الحكمة والرأي والحيلة؛ فلو نيْلَ المُلْك بالرأي لنالَهُ عُطارد، ولكنَّ الله جعل هذا ملكاً لهذا وهذا خادماً لهذا(٢). والقلبُ مَلِكُ البَدَن وليس بمُقْتَصِرٍ في الرأي على نفسه ولكنَّ الدماغَ آلةُ الفكر؛ وإنما

=هناك منسوب إلى علي بن أبي طالب. وقارن بالسعادة والإسعاد (حيث ينسبه لأردشير بن سابور) ١٩٥ - ١٩٦، ٤٢٢، والفخري ص٥٩.

(١) قارن بالنشوار للتنوخي ٢/ ٣٦٢: "وليس يتحصلُ لواحدٍ منهم الملك إلا لشرفه ومعنى قد فضل به وتقدم من أجله، إما بسعادة تخدمه أو بفضل في نفسه".

(٢) البصائر والذخائر ١/ ١٦٧: "وقال أرسطاطاليس في كتاب الإسكندر: المُلْك لزُحَل، والوزارة للشمس، والعدل للمشتري، والزينةُ للزهرة، والتدبير لعطارد، والخدمةُ للقمر، والجور للمريخ...".

الملك كالنفس والنا(صِح) كالأعضاء المُسْتَخدَمة؛ وعلى هذا المِثَال اتخذ المُلُوكُ الوزراء[١]. وقد قيل: مَنْ طلب بقاءَ المال بغير التثمير، وصَلاَحَ الثمرة بغير التأبير، والمحمدة بغير الاستحقاق، وما عند القُضاة بغير الحُجَّة، والمحبَّة بغيرِ لِيْنِ الكلمة، ورجاء المال بغيرِ صالح الأعمال، وسدّ الثُغُور بغير أهل القوة، وصلاح الإخوان بغير البَذْل، ومُناصحة الأنصار بغير التَّوْسعة، والزكاة بغير العمارة، والعمارة بغير العَدْل، والحَزْم بغير الروية، والرأي بغير المشورة؛ فقد رجا ذلك [ق١١أ] من غير موضعه واتّكل فيه على ما يكونُ الغَرَرُ في الاتّكال على[٢] مثله.

قال المعترض: إنَّ ذا الرأي تسمو نفسُهُ إلى مُنازعة المَلِكِ[٣] لما يَجِدُ عند نفسه من الرأي والمعرفة اللذين يُنتجان الاضطلاع والقوة.

قال الغَوَّاص: إنَّ الرأي إنما هو نتيجةُ العقل، والعاقلُ لا

---

(١) في أصول مواد البيان ص٦٩: "مثال الملك مثال النفس التي تسوس جميع البدن، ومثال الخدم مثال الأعضاء التي تخدم النفس" وقارن بقولٍ مُشابهٍ في الإيجاز والإعجاز ص٣٩.
(٢) في الأصل: عن.
(٣) قارن بالقول في كتاب الآداب لابن شمس الخلافة ص٢٧، والبصائر والذخائر لأبي حيان ١/١٥٧.

يتكلَّفُ ما لا يَبْلُغُهُ فإنه متى حاول ما فوقَ طاقتِهِ ولو بشيءٍ يسير كان في ذلك اليسير عطبُهُ، وليس اليسيرُ إذاً في قَدْرِهِ بيسيرٍ في فِعلِهِ، ولكل واحدٍ مقدارٌ فإذا زادَ على مقدارِهِ كانت زيادتهُ نَقصاً في جميع أمره مثل القدح العدلي فإنه لا يزالُ يُمْلأ ويحتملُ ما يُصبُّ فيه حتى يزيدَ على المقدار الذي يحتملُهُ بنقطةٍ واحدةٍ فعند ذلك يسيلُ جميع ما فيه، أو مثل الذي يَرُومُ أن يُقاتِلَ بسلاحٍ يعجزُ عنه ويزيدُ على طاقته فإنَّ زيادةَ ذلك اليسير تُبْطِلُ جميع قوته فتبدو عند ذلك فضيحتُهُ، والموالديُّ يأكُلُ الكثير من الطعام حتى يشبعَ فإذا شَبعَ عجز عن تَنَاوُل اللقمة الواحدة، ويشرب الخمر الكثير فلا يسكر حتى إذا بلغ المقدارَ الذي يعجزُ عن أكثر منه فعند ذلك القَدَحُ يصرعُهُ. وقد يكونُ المرءُ من أعْرَفِ الناس بالتدبير وأعجزِهِمْ عن المُباشرة كما أنَّ منهم العالِم ولا يعملُ بعلمه.

قال [ق١١ب] له المعترض: ما الذي يمنعُهُ من العمل مع معرفته به وعلمه بمنفعته؟!

قال له الغَوّاص: إنَّ المرءَ إنما يتدبَّرُ الأمورَ بالرأيِ ويُباشِرُها بالهوى، وما كُلُّ مَنْ عرف الصوابَ عَمِلَ به؛ ألا ترى أنَّ العليلَ ربما عرف دواءً فاستبشَعَهُ ولم يستَعْمِلْهُ فلا يُغْنِيهِ معرفتُهُ به في شفاء علته، ويعلم ما يَضُرُّهُ فتدعوهُ شهوتُهُ إلى فعله فيكون فيه عَطَبُهُ فلا ينفعُهُ عند ذلك عِلْمُهُ؟

وقد قيل: أسْعَدُ الحَزَمَةِ بثمرة الحَزْم مَنْ جَمَعَ إلى حَزمِهِ عَزْماً، وأشْقَى العَجَزَة بِعَجْزِهِ مَنْ جَمَع إلى عَجزِهِ خَوْفاً. وقد قالت الحكماء؛ إنَّ الأشياءَ لا تتمُّ إلا بأربعة أمورٍ: معرفةٌ وقوةٌ وعملٌ وتوفيقٌ؛ فإنَّ المعرفةَ لا تنفعُ إلا مع القوة، والقوةُ لا تُغْني إلا مع العمل، والعمل لا يتمُّ إلا مع التوفيق. وما كُلُّ مَنْ عَرَفَ قدر، ولا كُلُّ مَنْ قدر فَعَل، ولا كُلُّ مَنْ فعلَ وُفِّق، وما كُلُّ مَنْ عرف الحَزْمَ ساعده العَزْمُ فما مِنْ أحدٍ إلا ويعلمُ أنَّ الجُودَ محمودٌ وليسَ كلهم يصبر عليه، ويدري أنَّ الشجاعةَ ممدوحةٌ ولا يصبر على مَضَضِهَا إلا مَنْ كانت طبيعةً من طَبَائِعِهِ وغريزةً من غرائزِهِ؛ فلا يُعَدُّ لمعرفته بفضْل الجُود جَواداً إن لم يَجُدْ، ولا يُحْسَبُ لعلمه بقَدْر الشجاعة شُجاعاً ما لم يَشْجُع. وأنت ترى عاقلاً كريماً وعاقلاً لئيماً وعاقلاً شجاعاً وعاقلاً جباناً؛ ولو كان ذلك مِنْ قِبَلِ العُقُولِ لم يختلِف الحُكْمُ. وقد أدرَك الشاعرُ من ذلك ما لم تُدرِكْ وبَيَّنَ أن العِلَّةِ ما لم تَعْرِفْ حيث يقول[1]: [ق١٢أ]

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلهم   الجُودُ يُفْقِرُ والإقْدَامُ قَتَّالُ

(١) في أعلى الورقة: هو للمتنبي؛ قارن بديوانه بشرح العكبري (ت.مصطفى السقا وآخرين ١٩٥٦) ٣/ ٢٨٧؛ من قصيدة مطلعها.

لا خيل عندك تُهديها ولا مالُ   فليُسعد النطقُ إن لم تُسعد الحالُ

وقال الآخر[١]:

ما أعلم الناس أنَّ الجُودَ مذهبه للحمد لكنه يأتي على النَشَبِ

فاستحسن الأسَدُ كلامَهُ وقويَ ظَنُّ الخير به عنده؛ وقال له: إني أرى فيك حياءً وحشمةً وقلةَ انبساطٍ ومُخالطة؛ والعالِمُ قويُّ النفس بعلمه لِفضْلِهِ على غيره.

قال: أيها الملك! إني رُبّيتُ بين قومٍ يَعُدُّون طَلَبَ العلم سَقْطَةً وَحُبَّ الحكمةِ عيباً؛ فَصِرْتُ أُخفّي ما في نفسي من ذلك إخفاء المُحْتَشم منه المُصانع لهم عنه حتى صار لي ذلك عادةً، والعادةُ كالغريزةِ والغريزةُ مُتَّبَعَةٌ. ومن طبائع البازيِّ أيها الملكُ قلةُ الصياح والانفرادُ بالقراع و(التقصير) في طلب المعاش.

قال: وأرى في نفسكَ أشياء تفضل عن بيانك؟

قال: إني أخَذْتُ نفسي بالفكر ومنعْتُها كثيراً من القول وتركْتُ المُماراةَ لغيري وطلبْتُ العلم لنفسي وعشتُ طول

(١) البيت لمنصور النمري، وروايته في شرح الصولي على أبي تمام ١/١٦٦:

ما أعلم الناس أن البذل مكسبة للحمد لكنه يأتي على النشب

ويذكره الجاحظ (البيان ١/ ٤٥) ما أعلم الناس أن الجود مدفعةٌ للذم... إلخ من أبيات ينسبها إلى أبي داود بن حي ويقول إنه لم يحفل بها فادّعاها مسلم بن الوليد أو ادُّعيت له. وفي زهر الآداب ٤/ ١٠٠٢ نسبة البيت إلى مسلم بن الوليد.

عمري حبيسَ الكُتُب وسميرَ الفكر. واللسانُ يَحْتاجُ إلى اعتمالٍ يُطْلِقُهُ وحركةٍ تمرنُهُ وتُرهفُهُ، والبازيُّ الساكتُ أفضلُ من الغُراب الكثير الصِّياح.

قال: فَلِمَ سُمِّيْتَ غَوَّاصاً؟

قال: لغَوْصي على المعاني الدقيقة واستخراجي أسْرَارَ العلوم الخفية، [ق١٢ب]، ومَنْ أكثر من شيءٍ عُرِفَ به.

قال له الأسد: فالأسماءُ كُلُّها تجري هذا المجرى؟

قال: لا! أيها الملك! إنَّ الأسماءَ وإن كانت تُرادُ للتعريف والتمييز فإنها تُقَالُ على وَجْهَيْنِ؛ اسمٌ يَدُلُّ على معنى في المُسَمَّى، والآخر اسمٌ لا يدلُّ على معنىً فيه. فأمَّا الذي يَدُلُّ على معنى فإنه ينقسمُ قسمين؛ أحدُهُمَا ما يُقَالُ على الحقيقة وهو الاسمُ المُشْتَقُّ من صِيغةٍ في المُسمّى كاسمي أيها المَلِكُ؛ فإنه مشتقٌّ من صفةٍ فيَّ، وإما أن يكون على طريق القَلْب كما يُسمَّى الأعمى بصيراً واللديغ سليماً؛ وأما التي لا تَدُلُّ على معنىً فهي التي تُرادُ للتعريف والتمييز فقط وهي الأسماءُ غير المشتقَّة.

فقال له الأسد: أكثر الكون بحضرتي، واختلِطْ بجُملتي لتزولَ عنكَ الحشمةُ.

وأمر خاصَّتَهُ أن يخلطوه بأنفُسهم ويجذبوه إلى جُملتهم. وأقْبل الأسد يبسطه وهو يأنسُ قليلاً قليلاً.

[٦] باب التلطُّف في عَرْض النصائح على الملوك من وجهٍ يَأْمنُ المرءُ فيه من سوء التأوُّل عليه والخطأ الواقع فيه

حتى إذا رأى الملكَ يوماً من الأيام فَرِح القلب نشيط النفس، وكان إنما ينتظر[١] مثل ذلك منه قال: في مثل هذا الوقت تنجح نصيحتي! وتَقَدَّم إليه وقال: أيها الملك! إنه قد يجب على العبد أن يَبْذُلَ [ق١٣أ] جهده في نصيحة مولاه كما يجب على المولى أن يصرف عنايَتَهُ إلى ما يصلح عبده. وكما أَنَّ المرء إذا وجد ما يظنُّ أنه جوهرٌ نفيسٌ فليس من الرأي أن يطرحه دون عَرْضه على أهل البصر به ثم يُنزلُهُ بعد ذلك منزِلَتَهُ[٢]؛ كذلك يجب على العبد أن يعرض على سيده ما عنده من رأيٍ ونصيحةٍ، فإن كانت صواباً استعملها فنَفَعتْهُ، وإنْ كانت غير صوابٍ اطّرحها فلم تضرّه. وربما أراد العبدُ الصواب فلم يَنَلْهُ وطلب الحقَّ فلم يظفر به فيُحمل (منه) على نيته التي قصد ونصيحته التي طلب. وقد قيل: ما كُلُّ مَنْ جرى على يده النَّفْعُ بمحمود، ولا كُلُّ مَنْ جرى على يده الضرّ بمذموم؛ وإنما المُعَوَّلُ في ذلك على النيَّة والطَّويَّة، ولو عَلِمَ العبد أنه إذا عَرَضَ على مولاه ما لا ينتفع به ضَرَّهُ عنده

---

(١) غير واضح في المخطوطتين.

(٢) قارن بكتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة ص ٤٦.

لحمَلَهُ الخوفُ على كِتمانِ ما لعلَّه ينتفع به. وإنما منزلةُ التابع من الصاحب منزلةُ العين من القلب؛ فالعينُ تؤدي ما يُبْصَرُ، والقلبُ يُميِّزُ ويُفَكِّرُ. وعندي نصيحةٌ وأنت أيها الملكُ فيها على أحد حالَيْنِ لا ثالثَ لهما؛ إما أن تجدَها صواباً فتنتفعَ بها أو لا تجدها صواباً فلا مضرَّة عليَّ عند ذلك فيها إذا كان [ق١٣ب] السلطان لا يَضُرُّه استماعُ النصائح لأنَّ الخيارَ إليه في العمل بها والتَرْكِ لها. وأنا فيها على أحَدِ ثلاثَةِ أحوال: إمَّا أنْ أنتفع بها لديه أو لا أنتفع ولا أستضرّ (أو) أستضرّ بها عنده؛ فإنْ آمنني من استضراري بها من جهته على سائر الوجوه كما أنه آمِنٌ من مضرتها على سائر الوجوه كان الخيارُ إليه في القسمَيْنِ، إنْ شاء نَفَعَني وإنْ شاء لم ينفعني؛ لأني لا أشترطُ ذلك عليه.

قال: وكيف تسمحُ نفسك بمنفعتِنا من غير طلبٍ للمنفعةِ منا؟!

قال: لِطَلَبي منفعةً دائمةً وأَجْراً باقياً، ومتى طلب(تُ) بها قليلاً عاجلاً حُرِمْتُ منها كثيراً آجِلاً.

قال: وما وَجْهُ الثواب في ذلك؛ وإنما الثوابُ في نَفْعِ أهل الحاجة إليها لا أهل الغِنَى عنها والقُدرة؟

قال: أيها الملكُ! إنه وإنْ كانت المنفعةُ لصاحب القدرة

فإنها عائدةٌ على ذوي الحاجة لأنَّ الله جَلَّ اسمُهُ جَعَلَ السلطان قواماً لعالمه ونظاماً لرعيته؛ يردع به الجاهل عن العاقل و(يَرُدُّ) به عن الحق الباطل، ويمنع القويّ عن الضعيف، ويُحْيي به السُّنَّةَ وينفّذ أحكام الشريعة؛ فصَلاحُهُ صلاحُ الشان، وفسادُهُ فسادُ النظام(١).

قال له الملك: إذا قَنِعْتَ من جزاءِ نصيحتِكَ في طلبِ منفعتنا أنْ لا تستضرَّ بها عندنا فكأنَّ ذلك أقلّ الحقّ لك علينا. ولسنا نرضى لمثلِكَ [ق١٤أ] من الإحْسَان إلّا بأوْفره، ولا من الجزاءِ إلا بأجْزَلِهِ.

قال له: أيها الملك! إني رأيتُكَ مِنْ قِبَلِ محبتي لك، وإني الآن مُقَارنُ فِكْرٍ حملني على أنْ خَدَعْتُ نفسي العاصية؛ فإنَّ المرءَ مع نفسه كراكب مهْرٍ جَمُوحٍ إنْ أرخى له أفسده وإن عَسَفَهُ أتلفه؛ ولكنه جديرٌ أنْ يَخْدَعَهُ ويتلطَّفَ به حتى يستويَ له على ما يُريدُهُ. والفارسُ الماهرُ لا يحبسُ فرسَهُ من مرة واحدةٍ لما يخافُ من انقطاع عنانِهِ أو تَأذّي فمه. وإنما ينبغي أنْ يكونَ المرءُ مع نفسه كالصَّيَّادِ إذا صادَ بالخيط الدقيق السمكةَ الكبيرةَ، وكصاحبِ الطرادة إذا أرادَ إنْزالَهَا وردّها فإنه يجذبها مراراً ويُرخي لها مرةً حتى يتمكَّنَ من أخْذِها ويسلم

(١) قارن بالعقد الفريد ١/ ٧.

خيطه من انقطاعه الذي هو سببٌ لذهابها. وقد خَدَعْتُ نفسي التي لا تكادُ تُطاوِعُني على كثيرٍ من الأشياء إلّا بِضَرْبٍ من الخديعة على بَسْطِهَا بحضرتِك رجاءَ لِبُلُوغِ محبوبِكَ وإزالةِ ما أهَمَّكَ؛ فإنّ في صلاحِكَ صلاحَ مملكتِكَ، وفي صلاحِ مملكتِكَ صلاحَ الجُمْلة التي أنا بعضُها؛ فإنْ صَلَحَتْ صلحْتُ بصلاحها، وإنْ فَسَدَتْ فَسَدْتُ بفسادها[1].

قال: لقد أحسنتَ التَلَطُّفَ، وأنا أؤَمِّلُ أنك كما تَلَطَّفْتَ في سؤالي [ق١٤ب] تتلطَّفُ في كِفايةِ ما أهَمَّني.

[٧] باب انتفاع الملوك[2] بالحيلة والمكايد والتلطُّف في عَرْضِها عليهم وهو داعٍ للملوك أَنْ لا يطرحوها، وبيانٌ لِوَجْهِ النفع بها

وذلك أَنَّ بقُربنا جاموساً قوياً شديداً بطِراً أشِراً وأخْشَى أن ينفتق علينا منه فَتْقٌ وأنا من مُجاورتِهِ على ضَرَرٍ (و) من مكانه على غَرر، وأخشى أن لا تكونَ دارُنا معه بدارٍ. وقد عزمْتُ على مُصادمتِهِ؛ فإنَّ مثلي لا يُغْضي على جوار مثله[3].

(١) قارن بالفقرة رقم [٢].
(٢) في الأصل: الملك.
(٣) قارن بكليلة ودمنة ص٥٤-٥٨.

قال: أيها الملك! إنَّ الحازمَ لا يقفُ مع عدوه في حالٍ يخشى فيها على نفسه مثل ما يرجو في عدوه إلّا على حال ضرورةٍ، وليس الملك ونفس عدوه واحداً، ولعلّ الملك لو عَدِمَ بعض مَنْ يَعِزُّ عليه من أصحابه لكان من ودِّه لو افتداهُ ببُيُوتِ أمواله. وقد قالت الحكماء: ينبغي أَنْ يستعمل مع عدوه أربعة أَوْجُه: اللِّيْن والبَذْل والكيد والمُكَاشفة؛ ومَثَلُ ذلك مَثَلُ الخُرَّاج الذي يُستعملُ له أول أمره التخليل؛ فإن لم ينفع فالتَلْيين؛ فإنْ لم يَنْجَح فالإنضاج، فإنْ لم يَكْفِ (فالبَطُّ)(١)؛ فإن لم ينفع فالكيّ وهو آخرُ العِلاج؛ فإن استعمل أحدها مكان الآخر كان ذلك فساداً في التدبير ووضْعاً للشيء في غير موضعه. وأنا [ق١٥أ] أعرفُ للملك ما يَكونُ ـ إن شاء الله ـ من شرّه في أمانٍ ومِنْ نفعه على رجاء؛ أبذُلُ فيه نفسي دونه؛ فإن ظفرتُ فهو مطلوبه وإن لم أظفر فإنّ البقاء معه إلى وقت إرادته.

---

(١) موضع الكلمة بياض في الأصول، وما أثبتناه عن الإشارة في أدب الإمارة للمُرادي ص٢١٧. وتمام النص هناك: "وقد قالت الحكماء إنّ العدوّ مثل الخُرَّاج الذي يُبْتدأ في علاجه بالترطيب والتخليل والتسكين؛ فإن لم ينجح بذلك رجع فيه إلى الإنضاج والبطّ، فإن لم ينجح رجع فيه إلى الكيّ وهو آخر العلاج...". والبَطُّ هو البَجُّ والشَقُّ؛ قارن بتاج العروس (بطط) و(خلل). والقول في تهذيب الرياسة للقلعي ص٢٢٩، والتمثيل والمحاضرة ص١٤٥، وسكردان السلطان ص٣٧٣.

قال: وكيف تَسمحُ نفسُكَ بالمُخاطرة؟

قال: أيها الملك! إنّ الحازم إذا وقع بين شَرَّيْنِ لا بُدَّ من أَحَدِهِما اختار لنفسه خَيْرَهُمَا والمُخَاطَرةُ بنفس الملك ليست مُخاطرةً بنفسٍ واحدةٍ ولكن بنفوس جميع أهل المملكة فأنا من الخَطَر في الحالتيْن على ثقةٍ غير أني إذا بذلْتُهَا في وقايةِ نفوسٍ لا تُحْصَى فما أعْظَمَ أَجْري إن عطبْتُ، وما أكثر سعادتي وفخري إن ظَفرْتُ.

قال: وما عساكَ أنْ تبْلُغَ من الجاموس مع ضعفك وقوته؟ ولئن كانت نفسك عارفةً فليس لك من الجسم والقوة ما تقدر به على مُباطشته.

قال له: أيها الملك! إنّ ذا المعرفة يقدر بمعرفته أن يجعلَ الجماداتِ قوةً له وآلةً في بلوغ حاجته حتى تصيرَ كأنها بعضُ أعضائه أو كأنها جُزءٌ من أجزائه. ألا ترى أنّ الإنسانَ الذي لا نابَ له ولا مِخْلَبَ ولا بطشَ ولا قوةَ يقدر بمعرفته أنْ يجعلَ من الحديد سِلاحاً له يقومُ مقام الناب والمخلب الذي يُقاتلُ السَبُعُ به. وأنا [ق١٥ب] أُؤَمِّلُ أنْ أجعلَ غيري آلةً لي في بُلُوغ محبوب المَلِكِ تقومُ لي مقامَ بعض أعضائي المُتصرِّفة على إرادتي.

قال له الأسد: ألستَ قد قُلتَ إنّ العملَ يحتاجُ إلى سعادة؟

فقال له: أيها الملك! إنّ الأغراضَ يُحْتَاجُ فيها إلى أربعة أشياء: معرفة وسعادة وقدرة ومُباشرة. والمعرفةُ قد حَصَلَتْ لي، والسعادةٌ قد حصلَتْ بك، ومعي من القدرة ما أَقوى به على استعمال هذا النوع من المعرفة، ولم يبقَ إلّا المُباشرة، وعند ذلك يتم بإذن الله الغَرَضُ الذي هو الظَفَرُ.

قال: وكيف تحصل سعادتي لكَ؟

قال: لأني إنما أنا الآن في مُرادي كآلةٍ من آلاتكَ تستعملُها في غرضٍ من أغراضِكَ فيتم مُرادك فيها بسعادتِك.

قال: وما عساك تبلغ بالرأيِ أو تنالُ بالمعرفة؟

قال: قد قيل أيها الملك: رُبَّ كلمةٍ رَدَّتْ أربعمائةَ ألف.

قال: وكيف كان ذلك؟

قال: ذُكرَ أنَّ كسرى أبرويز[1] لما أَنفذ شهر براز لقتال

---

(١) القصة في التاج في أخلاق المُلوك المنسوب للجاحظ ١٨٠-١٨٥، والطبري ١/١٠٠٣-١٠٠٩، ومروج الذهب ١/٢٧٧، والتنبيه والإشراف ١٥٦-١٥٧، وغرر أخبار ملوك الفرس ٧٠٠- ٧٠١، وابن الأثير ١/٣٤٦- ٣٤٩، والسعادة والإسعاد ٣٢٢- ٣٢٤، وتفريج الكروب للأوسي ٣٢- ٣٣، ولطف التدبير للإسكافي ٣٨- ٤٠، والشاهنامه (ترجمة البنداري) ٢/٢٤٦- ٢٤٨،=

الروم ضَيَّقَ على ملكهم في القسطنطينية؛ فأشرف ملك الروم على أداء الجزية، ثم إنه عَمَدَ إلى جَمْعِ كلٍّ ما تتسلط عليه قُدْرَتُهُ وعبَّأَ مَا لَهُ مِن آلةٍ وسِلاحٍ وعُدَّةٍ في المراكب لِيَعْبُرَ بها خليجَ القسطنطينية وأَنْ يُصادِمَهُ مرةً واحدةً. فلمّا حصل [ق١٦أ] جميع ذلك في البحر جاءت ريحٌ في الليل قَطَعَت المراكِبَ وأدّتْها إلى نحو عسكر شهربراز[١] فأخذ بجميعها وأَنفذ ما غَنِمهُ منها إلى أبرويز فاستعظم ذلك واستكبره وكبر في نفسه وأخذ في شُكْرِ شهربراز وإطرائه في محفلٍ جمع فيه أكابِرَ أهل مملكته. فلما تفرَّقَ الناسُ عنه تقدَّم إليه بعضُ أهل خاصتِه . وكان يحْسُدُ شهربراز .[٢] فقال له: أنت أيها الملكُ مع فَضْلِكَ ومعرفتِكَ يخفى عليكَ أنّ شهربراز لم ينفِذ هذا إلّا وقد أخذَ لنفسه أضْعافَهُ؟! فإنْ أردْتَ أن تتحقَّقَ الحالَ فاكتب

=وهي بشكلٍ آخر في المحاسن والمساوىء للبيهقي ١٣٦- ١٣٧، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٣٥٨- ٦١، وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٥٤-٥٧.

(١) في الأصل: شهريران. وفي الشاهنامة ٢/ ٢٤٦: جرازا. وكذلك يرد الاسم في الفهرست وابن الأثير، وصحته ما أثبتناه، وهو لقب هذا القائد الذي يتضمن رتبته؛ إذ يذكر الطبري أن اسمه فرهان وتُدعى مرتبته شهربراز، وينفرد مسكويه في السعادة والإسعاد ٣٢٢- ٣٢٤ بذكر: شهرايران. وقارن عن الاسم والقصة: الترجمة والنقل لمحمد محمدي ١/ ١٣٢ وما بعدها.

(٢) في الأصل: شهريران. وقارن: Justi: Namenbuch 277-78

إليه بالقدوم فإنه يَقْدُمُ عليك ولا يقدر أن يُخَلِّفَ وراءَهُ شيئاً من ماله فتنظره بأجمع. فوقع ذلك في نفس أبرويز وكتب إلى شهربراز يأْمُرُهُ بالقدوم وتخليف أخيه على خِلافته ليُفاوضَهُ (في) ما لا تحتملهُ المُكاتبة. وأنفذه مع رسول منه، وأَنفذ بعد ذلك رسولاً معه كتابان أحدُهُما يأمُرُهُ فيه بسُرعة الأوبة ويستحثُّه ويستبطئُه، والآخر يذكر فيه أنه تأمَّلَ الأمرَ فوجد أنّ مقامه في نَحْرِ[1] عَدُوِّهُ أولى! وقال: إن وجدْته قد أعلن المسير وعمِلَ عليه فأوصل إليه (الكتاب) الذي أستحثُه فيه على المسير، وإنْ وجدْته [ق١٦ب] لم يعمل عليه ولا أظهره فأوْصِلِ الآخرَ. وانتهى إلى شهربراز[2] الخبر على جليته فأنفذ إلى ملك الروم وصالحه وتوثَّقَ منه وعَرَضَ عليه المسيرَ لقتال أبرويز؛ فقال: لا! ولكن تُقيمُ أنت ببلادي وأسيرُ أنا لقتاله. ثم توجه ملكُ الروم لقتال أبرويز في أربعمئة ألف، وسار حتى قرب من أبرويز وهو في غير جُنْدٍ كثير فضاق لذلك ذَرْعُهُ. ثم إنّ أبرويز دعا رجلاً نصرانياً كان له إليه إحْسانٌ[3]

(١) في الأصل: نحو.

(٢) في الأصل: شهريران.

(٣) في كتاب التاج ٢٨٤: كان جده قد أنعم على جدّ النصراني واستنقذه من القتل أيام قتل ماني، وكان من أصحابه الذين استجابوا له.

فقال له: قد علمتَ ما يجبُ عليك من مُكافأةِ إحساني إليك فخُذْ هذه العصا وامْضِ حتى تدفَعَها من يدك إلى يد شهربراز واحذر أن تدفعها إلى غيره. وكان قد أخذ عصاً فثقبها وجعل في جوفها كتاباً كتبه إلى شهربراز يقول فيه: أما بعد، فإذا جاءك كتابي فَحَرِّقْ دارَ مملكةِ (الروم)(١) واقتُلْ مُقاتِلَتَهُم، واسب ذريتهم، واعلم أني واثبٌ بملك الروم في وقت كذا؛ فليكُنْ هذا الوقت الذي تَثِبُ أنت فيه. وأمر للنصراني بمالٍ وتَوَكَّدَ عليه في الوصية أن لا يدفعَها إلّا إلى يد شهربراز. ثم صار النصراني حتى عَبَرَ عسكر الروم فسمع فيه عشرين ألف ناقوسٍ يضرب؛ فرَقّ قلبُه فانهملَتْ عينُهُ وقال: يا نفسُ! بئس النفسُ أنتِ إذا كنتِ سبباً لهلاكِ دين النصرانية! فأتى بابَ مَلِكِ الرومِ واستأْذنَ عليه وسلّم إليه العصا، وقَصَّ عليه قِصَّتَهُ. ففتح الملكُ الكتاب بعد أن استخرجه من العصا. فلما قرأه نَخَرَ وقال: [ق١٧أ] خَدَعَني شهربراز! والله لئن وقعَتْ عيني عليه لأَقْتُلَنَّهُ! ورَجَع من ساعته بعسكره لا يُعَرِّجُ على شيءٍ. فلما انتهى الخبر إلى أبرويز ضحك وقال: إنّ كلمةً هزَمَتْ أربعمئة ألفِ لَجليلٌ قدْرُها عظيمٌ خَطَرُها.

---

(١) بياضٌ في الأصلين، وما أثبتناه عن التاج المنسوب للجاحظ ص ١٨٥.

قال له الأسد: إني لا أرضى بالحيلة مع ما عندي من البطش والقوة، وإنما ينقطع إلى المكر والخديعة الحيوانات الضعيفة!

فقال؛ أيها الملك! إنّ الحكماء قد قالوا: أَضَرُّ ما على الإنسان أربعةُ أشياء: الإفْراطُ في الأكل اتّكالاً على الصحة، والتفريطُ في العمل اتّكالاً على القَدَر، والتّهاوُنُ في الحيلةِ ثِقَةً بالقوّة، وَتَرْكُ الحَزْمِ اتّكالاً على السعادة. وقد قيل[١]: أيها الشديد إحْذَرِ الحيلةَ؛ أيها العَجولُ خَفِ المُتأنّي؛ أيها المُحاربُ لا تَأنَسْ بالتَفكُّر في العاقبة؛ أيها الطالبُ موجوداً لا تقطعْ أمَلَكَ من بُلُوغه. وقيل[٢]: الحيلةُ عدوةُ الشدةِ، والصبرُ صديقُ الظَفَر، ولستُ أدعوكَ أيها الملكُ إلا إلى الطبيعة التي جبَلَكَ الله عليها. فلو لم يعلم وجْهَ صلاحِك بها لما رَكَّبَكَ عليها؛ فإنَّ الأسد أيها الملكُ يختل صَيْدَهُ ويُبارزُ أقرانَهُ، وليس الجاموس بنظيرٍ لكَ ولا قرين؛ مع أنَّ القتال لا بُدَّ فيه من ضَرْبٍ من الاحتيال وإن لم يعلم صاحبه.

---

(١) في الحكمة الخالدة ص٦٧: «أيها الشديد إحذر الحيلة، أيها العجول خف المتأني، أيها المحارب لا تفكر في العاقبة».

(٢) في الإشارة للمُرادي ص٢٣٠: «الحيلةُ أنجَحُ من القوة». وقارن بالحكمة الخالدة ص٩، والدرة الفاخرة ٢/ ٤٥٥، وأدب الدنيا والدين ص٢٩٣، وتسهيل النظر ص ٢٥٦.

قال: وكيف يحتالُ المرءُ ولا يعلم؟

قال: أرأيتَ أيها الملكُ قَطُّ عَسْكَرَيْنِ التَقَيَا بغيرِ سِلاَحٍ؟ والسلاحُ شيءٌ تُحْدِثُهُ الحيلةُ بضَرْبٍ من المعرفةِ. وإنما القوسُ [ق١٧ب] قطعةٌ من خشبٍ لا ينفع، والسيفُ زَبْرَةٌ من حديدٍ لا يقطع حتى تأتِيهُ المعرفةُ والحيلة فتصنعه سيفاً؛ فجانبُهُ الواحِدُ يُصْقَلُ لِلِيْنِهِ والآخر يَقْطَعُ لِحِدَّتِهِ.

(قال): ما رأينا الناسَ يُسَمُّونَ هذا حيلة؟!

قال: لأنهم أيها الملك قد كَثُرَ بينهم فذهب منهم استطْرافُهُ[1]، وقد كانت حيلةً قبل أن تُعْرَفَ، والحيلةُ إذا خرجت إلى العادة ذهبت أكثر قوتها. ولهذا السبب أيها الملك يُحبُّ المُحاربُ أن يأتي كلَّ يومٍ من القتال بما لا يألَفُونَ، ويقصدهم بما لا يَعْرِفُونَ وإنْ قلَّتْ نِكايتُهُ في جَنْبِ ما يعهدون؛ فإنَّ مع الاستغْرَاب تَبَلُّداً وحيرة؛ ألا ترى أنَّ الحيواناتِ الوحشيةَ تُصادُ بالنار في الليل لأن استغرابَهَا يُحْدِثُ لها دهشةً منها[2] وإن كانت لا نكايةَ لها فيها فيُقبضُ باليد عليها.

---

(١) في الأصل: استطرافة منه.

(٢) قارن عن "نار التهويل" هذه: الحيوان للجاحظ ٤/ ٣٤٩، ٤٨٥، وثمار القلوب ٤٦٠، والأوائل للعسكري ١/ ٤٣ وما بعدها، وشرح شواهد المُغْني ١/ ٣٠٥-٣٠٦.

قال له الأسد: فأيُّ جنسٍ من الحِيَلِ تكيدُهُ به؟

قال: إنَّ المكيدة المُرَتَّبَةَ المهيَّأةَ ربما وردَ عليها من الاتفاقات الخارجة عن التقدير بما يُبْطِلُهَا. وأَكْيَسُ الأكياس مَنْ كان تلَطُّفُهُ حاضراً معه يفعل بحسب ما يكونُ في وقته كما عَنَّ لبعض الناس وقد أشرفَ على الهلاكِ فتخلص (بحيلةٍ) حاضرة كانت له، وفي أمْرٍ لا يمكن أن يُرَوّى في مثله.

قال: وكيف كان أمره؟

قال: ذُكِرَ أنَّ رجلاً كان في هزيمةٍ وتحته فَرَسٌ يُدِلُّ به، وأنّ رجلاً سأله أن يُرْدِفَهُ [ق١٨أ] فأَرْدَفَهُ خلفه؛ فلما مرّ عليه قليلاً التفت فوجدَ أعداءه قد كادوا أن يُدْركوهُ فعطف على المُرتدف خلفه فقال له: انزل يا هذا وإلّا فنحن نُقْتَلُ معاً! قال له الرديف: والله ما تطيبُ نفسي بالنزول ولا بد عن تَضَبُّطي بما حصلْتُ عليه؛ فإمّا سَلِمْنا معاً أو عطبْنَا معاً. فقال له: أما إذا كان لا بدّ عن القتل فَلأَنْ أموت مقبلاً كريماً خيرٌ من أن أموتَ مُدْبراً لئيماً. وعطف على القوم يحمل عليهم. فلما رآهُ الرديفُ ماضياً يُلْقي نفسه في وسط القوم ألقى نَفْسَهُ عن الفَرَس فعاد صاحبُ الفَرَسِ منهزماً فنجا بنفسه. وإنما ذكرْتُ لك هذا الخبرَ لتعلم أيها الملكُ أنّ الحيلةَ يُحْتَاجُ أن

تكونَ بحسب الوقت الراهن وعلى قدر الحال الحاضر. وقد تُحْدِثُ المُشاهدةُ حالاً لم تكن في الرويّة كما فعل السّلاّل.

قال له: وكيف كان ذلك؟

قال: ذُكِرَ أنّ بعض الملوك كان قد بذل في فَرَسٍ لبعض (أهل) البادية جُملةً من المال فلم يبعه إياه، فجاءَهُ رجلٌ سلاّلٌ فقال: عَدِّلْ ديتي على يد رجل يدفعُهَا إليَّ إذا جئتُ بالفَرَس حتى آتيكَ به، ففعل ذلك؛ ومضى السّلاّلُ يُشاهِدُ حال الفَرَس فوجَدَ صاحِبَهُ قد أفْرَدَ له عبداً يحفظُه ولا يشتغلُ بغيره وقد قَيَّدَهُ وهو يرعى بين يديه؛ فمضى فاتَّخذَ طعاماً طيباً وجاء [ق١٨ب] به فقعد بحيث يراهُ ذلك العَبْدُ يأكُلُ على ساقيةِ ماءٍ وقال له: هلمّ يا أخا العرب! فَتَقَدَّم العبدُ فأكَلَ معه، وأخَذَ يُحادثُهُ ويُدَاعِبُهُ فلمَّا أكَلاَ قال له السّلاّل: هل لكَ أن تُبايِعني على قَفْزِ هذه الساقيةِ على كذا وكذا من الدراهم؟ على أنك إذا فعلْتَ كما أفْعَلُ كانت لَكَ عندي وإنْ لم تفعل كما فعلْتُ أنا كانت لي عندك، فرضي العبدُ بما شرط فوثب السلّال الساقيةَ ووثبها العبد، فدفع السلال إليه الدراهم (التي) بايعه عليها وقال له: أنا أفعل غير هذا؛ وذاك أني أُقَيِّدُ نفسي وأقفزُها فإنْ فعلْتَ كما أفعلُ كان لك عليَّ ضعف ما أخذتَ مني. وطمع العبد في أخْذ الدراهم

واستحلى الغلب فأجابه إلى ذلك فقال: قيِّدْني! فَحَلَّ قَيْدَ الفرس وقَيَّدَهُ به، فجمع السّلاّل رجليه وقفز الساقيةَ؛ فقال العبد: وأنا أفعلُ مثل ذلك! وَحَلَّ القيدَ من رِجْلِ السّلاّل وقيَّدَ نفسه ووثب الساقيةَ؛ فوثب السّلاّلُ على الفرس ومضى به. فهذه الحيلة فيها أَحْدَثَتْها المُشاهدةُ، وأنا أُؤَمِّلُ أنَّ سعادة المَلِكَ تفتحُ لي بابَ الحيلة في عدوه؛ فإنَّ المُقبل يُقْبِلُ بإقْبَاله أصحابُهُ وتَتِمُّ أغْراضُهُمْ في خدمته ومصلحته، وليس ذلك لسعادتهم وإنما هو لسعادته، والجاموسُ وإنْ كان عَدُوَّ الملك فإنه طعامٌ له وأنا أُؤَمِّلُ أن يجعَلَهُ الله [ق١٩أ] على يدي رزقاً له ولأصْحابه فإنَّ المُقبل يأتيه ما يحب من حيث يكره، وينال ما يرجو من حيث يخشى فليأمرني الملك حتى أمْضيَ لتدبيره والحيلة فيه.

قال: إفعل! فمضى حتى أشرف على الجاموس وهو في تلكَ الغَيْضَة فأخذ في مؤانَسَتِهِ ومُحادثَتِهِ. ولم يَزلْ كذلك حتى عَرفَ مَصَادرَ أُمُورِهِ ومَوَارِدَهَا وهو مفكِّرٌ في أمره مُعْمِلٌ في شأنه حتى انفتح له وَجْهُ الحيلة في أمره.

[٨] مشاورة الصديق لصديقه وما في ذلك عليه من ضُرٍّ ونفع. وفيه أيضاً دليلٌ على أنّ الحيلةَ والمكيدةَ غيرُ محظورة إذا أدّت إلى صلاح الجملة

فجاء إلى صديقه الذي يأنَسُ لِيُشاورَهُ في أمره فقال له: يا أخي! إنَّ الصديقَ مِرْآةُ صديقه، وليس المرءُ إلى مِرْآةٍ ينظر فيها وَجْهَهُ وتخطيطَ صورته وهيئتِه بأحْوَجَ منه إلى صديقٍ يرى به أمورَ نفسه.

قال له صديقه: إنّ أصدقاءَكَ كثيرٌ فَشَاوِرْ غيري! فإنه يُريكَ من أمُورِكَ ما أُريك!

قال له الغَوَّاص: ليس كُلُّ مرآةٍ تَصْدُقُ المَرْءَ عن أمْرِهِ. ألا تَرَى أنَّ المرايا المُستطِيلَةَ تُري الوَجْهَ مستطيلاً والعريضة تُري الوجه عريضاً، وليس ذلك [ق١٩ب] لعيب في المرء ولكن العيب في المرآة. وكما أنَّ من المرايا ما لا يرى الوَجْهَ لِصَدَئِهِ، كذلك في الناس مَنْ لا يُريكَ شيئاً من أُمورِكَ لجهله. وقال بعض الحكماء: إذا كنتَ مُستشيراً فتَوَخَّ ذا الرأْي والنصيحة فإنه لا يُكْتفى برأيِ مَن لا ينصح ولا بنصيحةِ من لا رأيَ له؛ وقال الشاعر:

فما كُلُّ ذي لُبٍّ بمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... ولا كُلُّ مُؤْتٍ نَصْحَهُ بِلَبيبِ

ولكنْ إذا ما استَجْمَعا عند واحدٍ فَحقَّ لَهُ من طاعةٍ بنصيبِ[١]

وقد قيل؛ مَن أعطيَ أربعاً لم يُمْنَعْ أربعاً: مَنْ أُعطيَ الشكرَ لم يُمنعِ المزيد، ومن أُعطي التوبةَ لم يُمْنَعِ القبول، ومَن أُعْطِيَ الاستخارة لم يُمْنَع التوفيقَ، ومَنْ أُعطِيَ المُشاوَرَةَ لم يُمْنَعِ الصوابَ[٢]. وقيل: ما استُنبِطَ الصوابُ بمثل المُشاورةِ، ولا حُصِّنَتِ النِعَمُ بمثل المُواساة، ولا اكتُسِبَتِ البغضة بمثل الكِبْر[٣]. وقيل: المُستشير لا يَعْدَمُ عند الصواب

(١) في السعادة والإسعاد ٤٢٦: وأنشد بعضهم لأكثم بن صيفي.. ثم ذكر البيتين، وفي الأغاني ١١/ ١٠٥، ونوادر المخطوطات ١/ ١٦٧ نسبة البيتين إلى أبي الأسود الدؤلي؛ وقارن برسائل الجاحظ ١/ ١٥٠، ونهاية الأرب ٦/ ٧٨، وغرر الخصائص للوطواط (صعب) ص٩٦، والتذكرة السعدية ٣٣٦، وأدب الدنيا والدين (١٢٩٩ هـ) ص ٣٢٦.

(٢) قارن بكتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة ص ٤٦، وسراج الملوك للطرطوشي (ط. المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ) ٦٤، وعيون الأخبار ١/ ٣١. وفي نهج البلاغة (حاشية محمد عبده. ط. بيروت ١٩٧٨) ٤/ ٥٩٢ نسبة القول إلى علي بن أبي طالب؛ لكن القول يرد في يتيمة السلطان (رسائل البلغاء/ ١٩٥٤) ١٥٤، والبيان ٢/ ١٩٧ منسوباً إلى ابن المقفع. وقارن بعين الأدب والسياسة ص ٨٠، وبدائع السلك ١/ ٣٠٤.

(٣) غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٦٠٧: "وكان يقول - يعني كسرى أنوشروان-: ما ضاع المُلك بمثل الإهمال، ولا استُنبط الصوابُ بمثل المشاورة، ولا استُنزل النصرُ بمثل العدل، ولا حُصّنت النعم بمثل المؤاساة، ولا استُنجحت الحوائجُ بمثل الصبر...". وقارن بعيون الأخبار ١/ ٢٧٥. ويُنسَبُ في صوان الحكمة ص ١٨٢ إلى ايسخيلوس. ويرد القول=

مادِحاً وعند الخطأ عاذراً[1]، وقيل: المستشيرُ بين صوابٍ ينفردُ بنفعه أو خطأٍ يُشَارِكُهُ فيه غيرُهُ[2]. وقال بعض البادية[3]: ما أخطأتُ قطّ حتى يُخْطِىءَ قومي! لأني لا أفعلُ شيئاً حتى أستشيرَهُم.

قال له صديقه: إنك [ق٢٠أ] تُشاوِرُني مُشاورةَ الواثق وتعصيني معصية المتهم. وأنا أشفق عليك وأُشيرُ بأنْ لا تَمْضِيَ لما قَصَدتَه.

قال: ولِمَ ذلك؟

قال: إن كُنتَ تتّهمُني فلا تستشرْني، وإنْ كنتَ تثقُ بي فلا تسألني.

=موجزاً في عين الأدب والسياسة ص ٢١، والبصائر والذخائر ٢/ ٥٨٤، ومجالس ثعلب ١/ ١٨٨.

(١) كتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة (ص ٣٩): من شاور لم يعدم في الصواب مادحاً وفي الخطأ عاذراً. وذكر الماوردي (أدب الدنيا والدين، ص٣٠٦- ٣٠٧) القول باعتباره من "منثور الحكم". وقارن بتحفة الوزراء ٣٥، وبدائع السلك ١/ ٣٠٤ (بطليموس).

(٢) أدب الدنيا والدين ٣٠٣، وبدائع السلك ١/ ٣١٠.

(٣) سراج الملوك للطرطوشي (ص ١٤٧): وقال أعرابي: ما عثرْتُ قط حتى يعثرَ قومي... الخ. وقارن بعيون الأخبار ١/ ٣٢. وفي البيان والتبيين ٢/ ٣٠٣: "ما غُبنت قط حتى يُغْبَنَ قومي، قيل: وكيف؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم"؛ وانظر غرر الخصائص ص ٢١٨.

فقال: إني لستُ أُريدُ بمُنَاظرتي إيّاكَ الغَلَبةَ لكَ ولا إقامةَ الحُجَّة عليكَ؛ ولكني جعَلتُكَ كنفسي؛ ألا تَرى أنَّ المرءَ يُناظِرُ نفسه ويُخَاطِبُ رُوْحَهُ فيقول؛ يا نفسُ لِمَ فعلْتِ كذا وكذا، ولِمَ صَنَعْتِ كذا طَلَباً للحق وبحثاً عن الصواب فأينمَا وَجَدَ الحقَّ تَبِعَهُ.

فقال صديقه: إنك قد أقمْتَ على أمْرٍ إنْ كان في أوله حُلْواً فإنه مرٌّ في آخِرِهِ، وإنْ كان حَسَناً في بَدْئه فإنه قبيحٌ في عاقبته. وأنا أخشى عليكَ تَلَبُّسَكَ بِدَم تسفكُه وهذا من الشر وأنا أخشى عليكَ عواقبَهُ وأخاف أن تُعْرفَ به. وقد قيل: مَن أكثرَ من شيءٍ عُرِفَ به وجُوزِي عليه؛ ألا ترى أن الحيّة يقتُلُها مَنْ لا تَلْسَعُهُ، وأنَّ الكريمَ يَوَدُّهُ مَنْ لم يَعْرِفْهُ ويُثْني عليه مَنْ لم ينفعْهُ.

فقال له الغَوَّاص: أمّا ما أتَلَبَّسُ به من دمٍ وقولك إنه من الشر فإني لستُ مُؤْثِراً للشرّ ولكنني مُؤثِرٌ للمُقَابلة على الشرّ والمُقابلةُ [ق٢٠ب] على الشرّ من الخير لأنها إلى الصلاح والتُّقى والخير. وهذا العدوُّ قد قَطَعَ على الوحْش أكثَرَ ما يعيشونَ به وأخافَ السُّبُلَ، وفي موته حياةٌ كثيرةٌ، وقد قيل: إنَّ بعض القتل أقلُّ للقتل(١). وقد علمْتَ أنَّ الفرُّوج يُذْبحُ

(١) ترد العبارة بهذه الصيغة في عهد أردشير ص ٧٧، وغرر السير ٤٨٣. وترد=

لحياة العليل، والعِرْق يُقطَعُ لصلاح البدن فإذا وقع فساد لصلاح هو أكثر منه فليس بفسادٍ؛ فإنَّ الله جلَّ وعَزَّ يبعثُ القَطْر رحمةً لعباده وحياةً لبلاده؛ فيهدم على الضعيف ويُؤْذي المُسافر فلا يُسَمَّى ذلك فساداً بل هو منفعةٌ وصلاح. وليس في الدينا خيرٌ لا شَرَّ فيه ولا صلاحٌ لا فسادَ معه. فَمَنْ طلب من الدنيا ما ليس فيها ظَلَمَهَا وَمَنْ ظلمها كانت أقْدَرَ على الظُّلْمِ منه، ومَنْ تَسَخَّط منها دام سخطه ولم يضرّ بذلك غير نفسه.

قال له صديقه: فإني أخشى عليكَ أنْ يعرفَ الملكُ أنَّ لكَ رأْياً ومكيدةً فيحذرَ منك ولا تأمَنَ مضرّتَهُ عليكَ لخشيتِهِ من جِهتِك.

قال: أَمَّا ما خِفْتَ عليَّ من معرفةِ الملك بِقَدرِ معرفتي ومكيدتي فإنَّ الرأيَ والمكيدةَ إذا كانا في بعض أصحاب الملك وجُندِهِ فإنهما كالسلاح والنجدة في بعض أصحابهِ وجنده [ق٢١أ] فإنْ قُلتَ إنه يخافُ من هذا أن يَسْتَعْملَ ما

=بصيغة "القتل أنفى للقتل" في ثمار القلوب ١٧٨، ومجمع الأمثال ١/ ٨٧، الإيجاز للثعالبي ص٥، والصناعتين ١٨١، وزهر الآداب ٤/ ١٠٦٢، والطراز ٢/ ١٢٧، سر الفصاحة ١٩٧- ١٩٨، الدر الدائر المنتخب (مجلة المجمع العلمي العراقي م ١٦/ ١٩٦٨/ ص ٢٥). وترد أخيراً بصيغة: "بعض القتل إحياء للجميع" في البيان ٢/ ٣١٦، ومجمع الأمثال ١/ ٨٧.

عنده عليه فليَخَفْ من هذا أن يَسْتَعمِلَ ما عنده عليه غير أنه إلى الثقةِ بي أقْرَبُ والسكونِ إلى ما عندي أوْجَبُ لأني لا أطلبُ بما فعلْتُهُ جزاءً منه بل أردْتُ بنُصْرته الحَقَّ الذي هو صاحبُهُ وحِفْظَ السُّنَّةِ التي هو خادِمُها(١).

قال له صديقُهُ: إنّ العُقَلاءَ يُنكرونَ الحيَلَ والمَكَائِدَ ولا يَرْضَوْنَ لأنفُسِهم بها!

قال: يا أخي! إنَّ الحيلَةَ هي فَضْلُ المعرفة، وإنما يَقْبُحُ(٢) استعمالُهَا فيما يحظُرُهُ العقلُ والدينُ وأمَّا فيما يؤدي إلى المنفعة فإنها لا تَقْبُحُ وإنما هي كالآلةِ للصانع والسيف للمُقَاتِلِ إن استعملَها في طاعة الله حُمِدَ وأُجِرَ وإن استعملها في معصيةٍ أَثِمَ وَوُزِرَ. وكُلُّ شيءٍ له موضعٌ يُسْتَحْسَنُ فيه وموضعٌ يُسْتَقْبَحُ عنده. ألاَ ترى النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "الحربُ خَدْعةٌ"(٣) فأمر بالخديعةِ في المُحاربةِ ونهى عنها في المُسالمة. وقد يختلفُ حُكْمُ الفعل باختلاف الوَضْع والقصْد. ألا تَرَى العُقُوبَةَ إذا كانت إلى مُذْنِبٍ سُمِّيَتْ جزاءً وإن كانت إلى غير مُذْنِبٍ سُمِّيَتْ ظُلْماً؟ وإذا حفظ المرءُ

(١) قارن بالسعادة والإسعاد ١٧٨.

(٢) في الأصل: يفتح.

(٣) قارن بصحيح البخاري رقم ١٢٣٨، وصحيح مسلم رقم ١٧٤٠، ومسند أحمد ١/٨١، ٩٠، ١١٣.

للمُحْسِنِ إحْسَانَهُ سُمِّيَ ذلك منه وفاءً، وإذا حَفِظَ إساءَةَ المُسيءِ سُمِّيَ حِقَداً.

قال له صديقه: أنت في الذي قُلْتَ صادقٌ [ق٢١ب] ولكنْ ما كُلُّ ما يُنْكَرُ على المرءِ يُقَابَلُ بالإنكار، ولا كُلُّ مَنْ يُقَابِلُهُ عليه بالإنْكَار له يسألُ عن العلّةِ فيه ويسمع منه، ولا كل من يُسألُ عن العلة فيه يُنْصِفُ في حجته، وإلى ما تجد واحداً يذكر ذلك لك ويسأل عن حجتك قد وجدْتَ أيضاً ألْفاً لا يسألُكَ عنها، وإلى ما تَجدُ واحداً يسألُكَ عنها ويُنْصِفُكَ في احتجاجكَ فيها وقد وجدْتَ أيضاً ألفاً يسألُكَ عنها ولا يُنْصِفُكَ فيها. وقد قال بعضُ البادية[1]: دع عنكَ ما يسبقُ إلى القلب إنكارُهُ وإنْ كان عندكَ اعتذارُهُ. وقال آخر: مَنْ عَرَّضَ نفسَهُ للتهمة فلا يلومَنَّ من أساءَ الظَّنَّ به[2].

(١) القول بغير نسبة في الحكمة الخالدة ص ١٣٧، وتسهيل النظر ص ١٤٧.

(٢) في الموفقيات ١٠٧، وبهجة المجالس ١/ ٤٥٨ وصفوة التصوف للمقدسي (ط: الشرباصي/ ١٩٥٠) ص ٨، ولباب الآداب ص ١٢: "قال عمر: من عرّض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء الظن به". والقول دون نسبة مع تعديل طفيف في عين الأدب والسياسة ص ٢٧، وبلفظه في عين الأدب والسياسة ص ٥٧. وهو في سجع الحمام ٤٢١ بنسبته إلى الإمام علي، وفي صفوة التصوف ص ٩ بنسبته إلى الأحنف بن قيس. وهو عند البيهقي في المحاسن والمساوىء ص ٤٠٤، وفي المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ ص ٣١ جزءًا من حديث نبوي.

قال: يا أخي! وما الحاجةُ إلى رِضَى مَنْ يُرضِيهِ الباطلُ وما الخوفُ من سخط مَنْ يُسْخِطُهُ الحقُّ؟ وما يَسُرُّني أنْ أُخَطَّأَ وأنا على الصواب، كما لا يسُرّني أن أُصَوَّبَ وأنا على الخطأ لأنّ الحق يُعْرَفُ بنفسه لا بشهادةِ مَنْ يشهدُ له ورِضى مَنْ يرضى به.

قال: يا أخي! إنَّ عليكَ في ذلك مشقةً ومكروهاً وإنَّ في إقدامِكَ عليه لخَطَراً.

قال: صدقتَ يا أخي! ولكنَّ المحبوبَ لا يُوْصَلُ إليه إلّا بالمكروه والسلامةُ لا تُنالُ إلّا ببعض الخطر والأجْر لا يُحْرزُ إلّا بالمَشَقَّةِ. وأمْرُ العَالَم مَبْنيٌّ على المُخاطَرةِ، والمرءُ [ق٢٢أ] مُعَرَّضٌ للأخطار في هذه الدنيا المُوبقةِ ولا بُدَّ له منه في صغير أمْرِهِ وكبيرِهِ. ألاَ تَرى أنَّ الذي يشتري حاجةً بدرهم إن سَلَّمَ الثَمَنَ إلى صاحبِ الحاجةِ خَاطَرَ به وكان صاحب الحاجة إليه بالخيار إنْ شاء دَفَعَهَا إليهِ وإنْ شاءَ مَنَعَهُ منها. وإنْ دفع الحاجةَ إليه صاحبُها أولاً كان الخَطَرُ على صاحب الحاجة. ولولا المُخَاطَرَةُ ما تَمَّ في الدنيا عيشٌ، وخَيْرُ الخطر ما كان في ثوابٍ باقٍ وَطَلَباً لسلامةٍ دائمةٍ. وإذا كانت نيتي في الله وثقْتُ بكفاية الله وكُنْتُ مع الله على إحدى ثلاث حسنات: إمّا كفاية أو أجْر أو كفاية وأجر. وإذا كان لا سبيلَ

إلى البقاء ولا بد من الذهاب فإنَّ الذهابَ في طلب الحق خيرٌ من الحياة في الباطل.

قال صديقه: خيرٌ منهما جميعاً أن تعيش على الحقّ.

قال الغَوَّاص: ما كُلُّ مَنْ فاتَهُ جميعُ الخير تَرَك بعضَهُ فإنَّ أَخْذَ بعضِهِ خيرٌ مِنْ تَرْكِ جميعه.

قال له صديقه: فأنت من الظَفَر على يقين؟. فإنَّ العاقل لا يُقْدِمُ على شيءٍ إلّا بعد اليقين والثقةِ.

قال الغَوَّاص: أنا واثقٌ بتَمَامِ الغَرَض وإنْ لم أَكُنْ واثقاً ببلوغ الظَفَر لأن غَرَضي الأَجْر. فإذا عَلِمَ الله ذلك من نيّتي فسواء بَلَغتُ أو لم أَبْلُغْ؛ ظفرْتُ أو لم أظفر!

فقال له صديقه: أما إذا عرفْتَ [ق٢٢ب] فأَرغَبْ في معونتِكَ إلى مَنْ رغبْتَ في طاعتِهِ؛ فإنَّ مَنْ رَغَّبَكَ بالخير قادرٌ على معونتِكَ عليه، ومَنْ سَهَّلَ عليك الخطر في ارتضائه قادرٌ على أن يُسَلِّمَكَ مِنْ بلائه.

[٩] باب ما يجب على المرء في كل عملٍ يعملُهُ

وقد قالت الحكماء: إذا اجتهد المرءُ رأْيَهُ واستشار نُصحاءَهُ واستخار ربَّهُ فقد قضى ما يجبُ عليه ويفعلُ الله بعد ذلك ما أَحَبَّ، فاستَخِرِ الآن رَبَّكَ واستَعِنْ به وامضِ لما قصدْتَ له.

فصلّى ركَعَتَيْنِ واستخارَ ربَّهُ واستعانَهُ، وقال: اللّهمّ إنَّ ما بلغتُهُ وأدركْتُهُ فيما آتيتَني من معرفةٍ وعلمٍ ورأيٍ وما وهبتَني من ذلك وأقْدَرْتَنِي عليه فالمِنَّةُ فيه لكَ، ولما لَحِقَني في ذلك مِنْ عَجْزٍ وضَعْفٍ فلِعَجزي عن الكمال إذ الكمالُ ليس إلّا لَكَ. اللّهمّ ما لم تستطِعْهُ قوتي ولم تبْلُغْهُ معرفتي فتمِّمْ نَقْصي فيه بفَضْلِكَ وقَوِّ ضَعْفي بِقُوَّتِكَ حتى تكونَ النعمةُ كاملةً لكَ.

[١٠] بابُ الانتفاع بعلم النجوم مع التوكّل وكيف يجبُ استعمالُها من حيثُ لا تُضِرُّ بالدين ولا تُنقِصُ من الحزم وهو داعٍ للعاقل أن لا يَطَّرِحَ الْحَزم مع التوكّل ولا يَدَعَ التَّوكُّلَ مع الأخْذِ بالحَزْمِ وأنَّ هذا مُحْتَاجٌ إلى هذا، وهذا مُحْتَاجٌ إلى هذا

ثم أخذَ يرتئي في اختيار الوقت [ق٢٣أ] الذي يسيرُ فيه. قال صديقه: لا تَشُبِ التَّوكُّلَ بما ليس منه.

قال له: إنْ لَزِمَني مع التوكُّل أنْ أدَعَ ما أفادَتْهُ التجربةُ من عِلْمِ النجوم في الأزمنة المُتطاولة لَزِمَني تَرْكُ استعمال العقاقير والأدْوِية التي أفادها طولُ المُمارسة، وإنْ لَزِمني مع التوكُّل أنْ أدَعَ استعمال ما عَلِمْتُهُ لَزِمني أنْ أدَعَ استعمالَ ما رأيتُهُ فإنَّ الرأيَ من العلم وكلاهُمَا مُستفادٌ بالتجارب. وكما أنه يجبُ على المرء أن يستعملَ رأْيَهُ ويتوكَّل على الله كذلك يجبُ عليه

أن يستعمل عِلْمهُ ويتوكّل على الله، وانتفاعُهُ بالله فيهما سواءٌ لأنَّهُ واهِبُهُمَا معاً.

قال: مما يَدُلُّكَ على فساد علم النجوم أنه يُصيبُ مرةً ويُخْطِىءُ مرةً؛ فليس أحدٌ منه على ثقة.

قال: إنْ لَزِمَ لهذا تَرْكُ استعمال علم النجوم لَزِمَ لذلك تَرْكُ استعمال الرامي الرَمْيَ إذا أخطأ السهم.

قال: هذا عِلْمٌ قد أجْمَعَ أهْلُهُ على أنه لا يُحاطُ به ولا يُدْرَكُ من جميع جهاته لكثرة إدلاء الشيء الواحد فيه؛ فإنَّ السعد الذي فيه قد يدفع النحس الذي منه وإذا لم يُدْرَكْ جميعه لم يصحّ تمزيجه؛ فربما قضى المرء بالسعد فيبطله النحس الذي لا يُدْرِكُهُ، وحَكَمَ بالنحس فيدفعُهُ حُكْمُ السعد الذي لا يَعْرِفُهُ لكثرة دلائله فيقضي بشيءٍ يَقَعُ خلافه [ق٢٣ب].

قال: لو كان لا يُنظَرُ في علمٍ لِفَوتِ ما يفوتُ منه أو لِعَجزٍ عما يَعجِزُ عنه لَمَ يَنظُر أحَدٌ في علم، ولو كانَ أحَدٌ لا يجتهد في صواب الرأي لكثرة ما يَخفى عنه من وجُوهِ الرأيِ وتشعُّب طُرُقِهِ لم يَصِحّ لأحدٍ رأيٌ. ولكنه يجتهد فيما يَبْلُغُهُ بمعرفته، ثم يُردُّ إلى الله سبحانه وتعالى ما فضل عن علمه واستطاعته. وإنما مَثَلُ ذلكَ مَثَلُ الحازم وأصحابهِ العَجَزة.

قال: وكيف كان حديثُهُم؟

قال: ذكروا أنَّ قوماً من النُّسَّاك كانوا يتعاشرون في بعض البلدان، وكان في جوار ذلك البلد مُتَنسَّكٌ لأهله لا يزالون ينسكون فيه ويخرجون إليه، وكان في طرِيقِه سِبَاعٌ ولصوصٌ ينفردون بمن يخرج إلى تلك الطريق، وكان من أولئك القوم رجلٌ منقطعٌ إلى الحَزْم والباقون قد خَذَلَهُمُ العَجْزُ لما جُبِلَتْ عليه الأنْفُسُ من المَيْل إلى الراحة التي لا تزالُ الأنْفُس تميلُ إليها، والنفاذ من الكُلْفَة التي لا تُنالُ خيْراتُ الدنيا والآخِرة إلّا بها فتصوّر لهم التواكُلَ في صورة التفويض. وظنوا أنَّ صُورة التقصير من حُسْنِ التصديقِ بالمقادير. فكان الحازمُ لا يخرُجُ إلى ذلك المُتَنَسَّك إلّا بِعُدَّةٍ من السلاح يَحْمي بها نفسَهُ ومَنْ معه فَسَلِمَ بذلكَ زماناً طويلاً. وكان أولئك العَجَزةُ [ق٢٤أ] يتطرّحون في الطُّرُقات فتنال منهم اللصوص والوحوش. فاتَّفق في بعض الأيَّام أنَّ جُنْداً من جُنْدِ ذلك البلد ظَفِروا ببعض اللصوص فقتلوه ومَثَّلوا به. وخَرَجَ الحازمُ ذلك اليوم على عادته ومعه قومٌ من أصحابه. فوقع به بعضُ اللصوص فلمَّا رأَوْهُ في لأْمةٍ من السلاح لم يَشُكُّوا أنه من الجند فتناذروا به وتكاثروا عليه حتى قبضوه أسيراً. ثم تشاوروا في قَتلِهِ والمُثَلةِ بهِ وهُم بين ذلك ينالونهُ بأنواع من

الهوان ولم يَعرِضوا لأصحابه. فلمّا رأى أصحابُهُ ما وقع فِيهِ أَقبلوا يهزؤون به ويضحكون منه ويقولون له: ما نراكَ إلا وقد أُتِيتَ من الحَزم، ولا سَلِمْنَا إلّا بما ظَنَنتَ أنه العَجزُ. أَمَا عَلِمتَ أنَّ في الحَذَرِ تكذِيباً لِلقَدَرِ، وأنَّ الاتّكَالَ مِن أفضَل الأعمال؟!

قال: ما مَثلي ومَثَلُكُم إلّا مثل البُلبُل والعُصفور! قالوا: وكيف كان مَثَلُهُ؟ قال: ذُكِرَ أنَّ عُصفُوراً مَرَّ بِبُلبُلٍ في قفصٍ؛ فقَالَ له البلبل: أيها العصفور! أشكر الله على نقصك فهو الذي خَلَّى سَراحَكَ، وأطلق عِنانك والفضِيلَةُ فيَّ هي التي حَبَسَتْني في هذا القَفَص! فقال له العُصفُور: أَنسِيْتَ أيّها البُلبُلُ أني لو وَقَعْتُ موقِعَك لكنتُ منذ زمانٍ في المِقلَى؟ فاشكر الفضيلةَ التي حَبَسَتكَ فإنها هي التي نَجّتْكَ! [ق٢٤ب] وهو مَثَلي معكم فإنَّ أَخذي بالحَزْم وإن كانَ أوبَقَنِي هذه المرة فقد خَلَّصنِي مِراراً كثيرةً، ولولاهُ لَكُنتُ منذ زمنٍ مع مَن هَلَكَ من أصحابِكُم وسلاَمتي إلى الآن معي فَضل. فلمَّا سَمِعَهُ اللصوص قد ابتدأ في الحديث والمُحاورة أمْسَكُوا عنه لينظُرُوا ما عنده فلمّا فرغ من حديثِهِ استفسروه منه ففسّرهُ لهم. وقَصَّ عليهم النَفَرُ الذين كانوا معه قصتَهُ؛ فلمَّا عَلِمُوا أنه ليس من الجند خَلوا سبيله. فهذا مَثَلُ منْ يستعملُ الاختيار ومن يتركُهُ؛ فإنَّ استعمالَ ذلك الحازم رأيَهُ وعِلْمَهُ به مثل العالِم

بالنجوم الذي يتخيَّرُ الأوْقاتَ ويعملُ بمقتضى علمه. وَمَثَلُ ما اتفق له من الاتفاقات التي لم يكن له إلى العلم بها والاحترازِ منها طريقٌ كمثل ما يخفى على العالم ويعجز عنه من المزاجات وإحْصاء جميع الشهادات التي ليس إلى إحصائها ومِزاجات جميعها سبيلٌ. ومثلُ سلامة ذلك الرجل بحزمه مدةً من الزمان فلما ضَرَّهُ وقتاً ما ذَمُّوهُ ولم يحمدوه على طول السلامة مثل العالم الذي ينتفع بعلمه مدَةً من الزمان فإذا استضرَّ به مرةً أُخرى توكَّلَ الناسُ بذمه والإزْراء على علمه.

قال: فما حاجَتُكَ إلى الاستخارات وأنت تَقْدِرُ بالنجوم على الاختيار؟

قال: أستمدُّ الله قوةً على العلم كما أستمدُّه قوةً على العمل، وكما أسألُهُ صوابَ الفعل كذلك أسألُهُ صوابَ الرأْيِ. وسؤالي [ق٢٥أ] الله أن يُعَلِّمَني كسؤالي له أنْ يُوَفِّقَني. وإنما يجبُ على المرء أَن يجتهد اجتهادَ مَنْ لا يتوكَّلُ ويتوكَّلَ توَكُّلَ مَنْ لا يجتهد.

قال: وكيف يجمعُ التوكل مع الاجتهاد وهما ضدّان؟

قال: لأنَّ التوكُّل في العلم والاعتقاد، والحَزْم في العمل والاجتهاد. وليس التوكُّلُ بالقلب مما يمنعُ الاجتهادَ في الفعل.

[١١] باب (تمام الحيلة)

ثم إنَّهُ مَرَّ يتطلَّبُ وَجْهاً لحيلته فصادف قوماً قد خرجوا لبعض شأنهم يسيرون على الطريق ومعهم سِلاَحٌ وثيقٌ؛ فأَقْبَل الغَوَّاص يَتَعَارَجُ ليُطْمِعَهُمْ في نفسه فَتَبِعوه وهو يسيرُ بين أيديهم مُتَوَجِّهاً نحو الجاموس لا ينالونه ولا يُؤْيسهم من أمْرِهِ حتى قَرُبَ من الجاموس فأسْرع إليه قليلاً والناسُ خلفه وقال له: قد جاءكَ الناسُ ومعهم السلاحُ وهو ذا تراهم وهُمْ قومٌ قد أجْهَدَهُمُ السَفَر وأضَرَّ بهم الجُوعُ، سمِعْتُهُم يذكرونَ أنهم خبروا بخبرك وهُمْ مُتَبَاشِرُون بأمْرِكَ وليس يُنَاظِرُونَكَ حتى يذبحوكَ، فاحتَلْ لنفسِكَ. ورأى الجاموسُ الناس يَتعادَوْنَ نحوه فلم يشكّ في تصديقه فَحَمَلَ عليهم فقاتلوهُ حتى أثْخنوهُ جِراحاً وانْفَلَتَ منهم ودخل أجمةً فيها ماءٌ [ق٢٥ب] ودغلٌ ووحْلٌ امتنعَ بها عليهم وخلا مَكَانُهُ عنهم وسقط وليس به حِراكٌ ولا نهضة. فلما بردت جراحُهُ وأخذه البرد والطين لم يستطع نهضةً وألقى بيديه ورجليه. فمضى الغَوَّاصُ إلى الأسد فقال له: أيها الملك! قد أدركت بُغْيَتَكَ وقتلْتَ عدوَّكَ فإنْ شئتَ أنْ تجِيءَ فتأْخُذَهُ وإنْ شِئْتَ فأَنْفِذْ معي مَنْ يأتيكَ به. فأنفذ الأسدُ معه بعضَ جنده فوجدوا الجاموس على آخِرِ نَفسِهِ فبقروا بطنَهُ وقطعوا أَوداجَهُ وجَرُّوهُ إلى الأسَد، فَأَكَلَ منه وفَرَّقَ على أصحابه.

[١٢] باب (كيف يكون تمامُ الرأْي)

ثم إنَّ الأسَدَ قال للغَوَّاص: لقد أحسنْتَ الحيلة وبلغْتَ ما لا يُبْلغُ بالقوة فَعَرِّفْني بأيِّ شيءٍ أَدْرَكْتَ ما أَدْرَكْتَ من المعرفة؟

قالَ: بانصِرافِ نفسي بأجمعِهَا نحوه وانقطاعِها إليه، ولذلك خُصَّ أضْعَفُ السِّباع بالحيلة لأنَّ النفْس إذا أيسَتْ من القوة انقطعتْ إلى الحِيلةِ وإذا انقطَعَت النفسُ إلى شيءٍ توفَّرَتْ عليه قُواها. وما توفَّرتْ قُوى النفس على شيءٍ إلّا برّزتْ فيه، ولهذا صارت النساءُ أحْيَلَ من الرجال لِضعْفِهِنَّ عنهم، وصار اليهودُ أكثرَ أهل المِلَلِ حيلةً لأنهم لا مُلْك لهم يستندون إليه [ق٢٦أ] ولا قوَّةَ تنصرفُ إليها هِمَمُهُمْ، وتنقطِعُ إليها خواطرهم.

[١٣] باب استعمال الملك كُلَّ واحدٍ من أصحابه في المكان اللائق به

ثم إن الغَوَّاصَ صَبرَ بعد الظَفَرِ ثلاثةَ أيامٍ ثم أتَاهُ فقال له: أيّها الملك! إِني جئتُك مُوَدِّعاً إذْ كنتُ قد بلغْتُ الذي أَمَّلتُهُ من زوال شغلك قلبك، وسدّ الفَتْق المُضِرّ بملكك ورعيتك، ولستُ ممن لا يرغبُ إلّا في راحةِ القلب. ولولا أنني رأيتُ

في نفسي نصيحةً وقُدْرةً على إزالةِ ما كان بقلبك وسَدِّ الفَتْق الذي انفتق عليكَ، وَرَجَوْتُ في ذلك مِنْ صلاحِ نفسي بصَلاَح الرعيّة لمَا تعرضْتُ لَكَ، ولكان في سَعَةِ مُلْكِكَ ما يُخْفي أمْري عنكَ.

قال له الأسد: إني لا بُدَّ لي من استعمالِكَ بعدما ظهر لي منْ غَنَائِكَ ونُصْحِكَ وإلّا كُنْتُ بمنزلةِ من وجد جوهرةً نفيسةً فاطّرحهَا وهو عارفٌ بِقَدْرِهَا وقد كنتُ مَعْذوراً في تَرْكِكَ قبل المعرفةِ بِقَدْرِكَ. وأمَّا الآن فلا عُذرَ لي في ذلك.

قال له: أيها الملك! إنَّ نفسي ليست مُحِبَّةً للرياسةِ ولاَ مَشْغُوفةً بِمُعَاناةِ الولايةِ. وإنما تَبْذُلُ النفسُ في العِنَايةِ بمقدار المحبّة ولا يكون النفاذُ إلّا مع شِدَّةِ العِنَاية [ق٢٦ب].

قال له الأسد: بلى! قد تسمحُ النفس بالعناية على الرهبة أكثر مما تسمحُ على المحبة؛ فنفسُكَ تُعْنَى بما أتطلَّبُهُ منكَ رَهبَةً أكثر مما تسمحُ به محبةً.

قال له: أيها الملك! إن الرَهْبةَ شيءٌ يَرِدُ على النفس من خارج، والمحبة بالطَبْع صِفَةٌ في النفس، وإذا كانت الصفةُ في النفس بقيتْ ببقائها، وإذا كانت من خارج فما أقَلَّ لَبْثَها مع أنَّ الفَرَقَ ربما أعْمَى الخاطِرَ وَبَلَّدَهُ كما أنه ربّما أحَدَّهُ وشحذَهُ.

قال له الأسد: إني أُكْرِهُكَ فتكونَ مُلْجأً إليه وتنصرف نَفْسُكَ.

قال: أيها الملك! إنك تقدر أنْ تُكرهَني على العمل ولا تقدر أَنْ تُكْرِهَني على محبة العمل والاسْتِكْراه لا يُخْرِجُ إلّا قليلاً ممنوناً. وإنما الكثيرُ الطيّبُ ما سمح به الطبع ولم تُنْكِرْهُ عليه النفس فذلك النافع الذي لا يمنُّ به.

قال: وكيف هذا يَمُنَّ بالقليل وهذا لا يَمُنُّ بالكثير؟

قال: لأن الذي يفعلُ بطبعه لا يَثْقُل عليه ولا يُحِسُّ بأذى فيه، والمتكَلِّفُ يُجَاهِدُ نفسه ويستكْرِهُ طَبْعَهُ عند الأسباب القويّة ومع الدواعي الوكيدةِ، ثم يكون أسرع الأشياء رجوعاً. والمطبوعُ في الشيءِ يفعلُهُ لأَيْسَرِ سبب، ومتكلِّف الأمر يتركه [ق٢٧أ] لأيسر سبب لا يصْرِفُهُ عنه الأذى فيه فضلاً عن أنْ يطلب الأُجْرةَ عليه. ألاَ تَرى أنه ربّما أهلكَ الأسَدَ شجاعتُهُ، وأجاعَ الديكَ سَخَاؤُهُ، وأوردَ الغُرابَ الردى بُكُورُهُ؛ فلا يَصْرِفُهَا ذلك عن طَبْعِها. وترى الكَلْبَ يُقَاسي فيما يفعلُهُ بالطبع مِنْ سَهَرِ الليل والحِراسةِ في القرّ وبَذْلِ نفسه دون القوم ويقْنَعُ من الجزاء عليه بالكسرةِ والعَظْم ولا يحتاجُ إلى حاثٍّ يَحُثُّهُ ولا مُحَرِّضٍ يُحَرِّضُهُ ولو دُفع إلى الإنسان في مثله المالُ الجزيلُ أو أُرهِبَ الإرْهابَ الشديدَ لما قدر عليه لأنَّ الذي

يفعلُ الشيءَ بطبعه يَلْتَذُّ بفعله فهو يكفيهِ من الأُجْرةِ عليه اللَّذَّة فيه.

قال له الأسد: أخشى أن أكونَ في قَبولي منكَ بمنزلةِ مَنْ صَدَّقَ أُذنَهُ وكذَّبَ عينَهُ، وأنا قد رأيْتُ منكَ لُطْفاً في الأُمور وإصابةً في التدبير ونَفَاذاً في الرأْيِ ومعرفةً بالأحْوَالِ وأسمعُ منكَ ما يُشكِّكُني، ولست أَدْفَعُ اليقين الذي عندي بالشك الذي يَعْرِضُ لي.

قال له الغَوَّاص: أيها الملك! إنَّ اللطف الذي رأيتَ مني في العلم دون العمل، وما كُلُّ مَنْ عَلِمَ عَمِلَ، ولا كُلُّ مَن عَلِمَ صَبَرَ على جناياتِ العمل [ق٢٧ب] ولَسْتُ أقدر على العمل إلّا ريثما أتَكَلَّفُهُ، والتكلُّفُ قليلُ اللَّبْث سريعُ الزوال. وقد قال بعض الحكماء: أقوى من يكونُ الطبعُ في أواخره، وأقوى ما يكونُ التكلُّفُ في أوائله. وضربوا لذلك مَثَلاً فقالوا: إنَّ المَطْبُوعَ على الشيء كقصبة السكر التي تمصُّهَا من أعلاها فكلما نَزَلْتَ فيها وجدْتَ الثانيةَ أحلى من الأولى ثم هكذا إلى آخِرِهَا. وأَمْرُ المتكلّف ما ليس من طبعه كَمَنْ يمصُّها من أسفلها ثم لا يزالُ الطَعْمُ يتناقصُ في عُقْدةٍ عقدةٍ حتى ينتهي إلى ما لا حلاوة له أصلاً.

قال له الأسد: إنكَ قد عاملْتَني بجميل وبَلَغْتَ من خِدْمتي

مبلغاً حسناً، ولست ممن يرضى لنفسه بالتقصير في مُكافأة ما أُسْدِيَ إليه وقُدْرَتِي واسعةٌ فلا عُذْرَ لي في التقصير وأنت قد استسهلْتَ المشقَّة في الإحسان حتى أتيتَهُ، وأنا على مُكافأتِكَ عليه أَقْدَرُ مع أنك المُبْتدئ وأنا المُكافئ، وأنا أَعْذَرُ لو لم تُحْسِنْ، وأنا أقلُّ عُذْراً إنْ لم أفْعَلْ لأنَّ الابتداءَ بالإحْسانِ نافلةٌ مُستحسنةٌ والمُكافأةُ عليه فريضةٌ مُلْتَزمةٌ، وتاركُ الفَرْضِ مذمومٌ. ولا تُكَلّفني التقصيرَ والذَّمّ فإنكَ إنْ كَلَّفْتني فقد أسأْتَ إليَّ وإذا [ق٢٨أ] أسأت إليَّ فإنَّكَ عدوٌّ لي، وإذا كنتَ عدواً لي فلا تَلُمْني أَنْ لا أَقْبَلَ منكَ.

قال له الغَوَّاص: أيها الملك! إنَّ المُجازاةَ إنما تَحْسُنُ بما ينفعُ لا بما يَضُرُّ. ولو أنّ رجلاً أَرَدْتَ الإحْسَانَ إليهِ وكان عليلاً وعندكَ من الأَطْعِمَةِ الحسنةِ الضارَّةِ له القاتلةِ لمثلِهِ في علّته، وكانت مُشْتهاةً عند غيره وهي تَقُومُ عليكَ بأغلى ثمنٍ، وكان في خِزانتِكَ دواءٌ حقيرُ القَدْرِ قليلُ الثَمَنِ وكان فيه شِفاؤُهُ فَمَنَعْتَهُ منه وأكْرَهْتَهُ على الطعامِ الذي فيه قتْلُهُ لما كان في ذلك إحْسَانٌ إليه لأنَّ الإحْسَانَ إنما يكونُ مع المنفعة، والمنفعةُ بحسب الحاجة لا بكثرة الثمن وعِزَّةِ الوجودِ، فإن الياقوتَ الأحْمَرَ وإنْ كان ثميناً عزيزاً فَأَنْفَعُ منه للعطشان الماءُ للشرب وإنْ كان مبذولاً. وإنْ كان المَلِكُ يُريدُ أجْراً على

نصيحتي وخدمتي فليترُكْني كما كُنْتُ ريِّح القلب، فإن ساعةً من ساعات السلطان تُشيبُ القلب والكبد. وإنما يَحْتَمِلُ المشقَّةَ مَنْ لا يُقْنِعُهُ إلّا الكثير فيحتملُ في بلوغ غَرَضِهِ عظيمَ المشَقَّةِ. وأنا فقليلٌ في خَفْضٍ ودَعَةٍ أحَبُّ إليَّ من كثيرٍ في نَصَبٍ [ق٢٨ب] وخوفٍ. وليست اللَّذَّةُ بحسب الكثرة، وإنما هي بحسب الحاجة، فإنَّ رغيفَ خشكارٍ عند الجائع خيرٌ من الطعام الكثير عند الشبعان.

[١٤] بابُ منفعة العلم والأخبار للملوك وهذا الباب داعٍ للملوك إلى التفتيش عن سِيَرِ الفُضَلاء منهم، وأن يتخذوا من يُنَقِّب عن مَحَاسِنِ ذلك لهُم ويَعْرِضُهُ عليهم

قال له الملك: قد أقررْتُ لك الحُجَّةَ ولكني أرغبُ إليكَ في حاجتي وأَصْدُقُكَ عن ذاتِ نفسي لتتسَبَّبَ لي في طلبتي ولا تطلب منفعتك إلا بما ينفعُني، فإنَّ الكِرَامَ إذا فَعَلُوا حَسَناً رأَوا ذلك دَيْناً يجبُ عليهم رَدُّهُ ولم يَرَوا أَنه دَيْنٌ لهم يُطالِبونَ به، فإنكَ قد تقدَّمَ منكَ جميلٌ وأُحِبُّ منك أنْ تَرُدَّهُ بإسْعافي بحاجتي. إني لم أطلبْ منك ما طلبْتُ إلّا لشدَّةِ محبتي لك، فأردْتُ أن تدومَ المُخالطةُ وتَكْثُرَ المُواشجةُ، فإنَّ العاقل المأمونَ كالكبريتِ الأحمر الذي تسمعُ به ولا تراه. ومَنْ ظَفِرَ

به كان جديراً أن يُمازجَ نفسه ويتَّحِدَ بروحه، فإذا ذهب كان ذَهاب النفس معه. وأنت قد جمعْتَ سَعَةً في النفس وطهارةً في الخِلْقَةِ [ق٢٩أ] ومع سَعةِ المعرفة يكون الرأْي والتدبير والمنفعة. ومع طهارة الخِلْقَةِ يكونُ الوفاءُ وَكَرَمُ العَهْدِ وحِفْظُ المَوَدَّةِ. فأُحِبُّ أن تتلَطَّفَ في البحث عن أمْرٍ تتولاَّهُ مِنْ أمْرِي تدومُ به مَسَرَّتي، وتطولُ به مُخَالَطَتُكَ لي.

فقال: أيها الملك! أمّا إذا كان الأمْرُ على ما وصفْتَ فإني أدُلُّكَ على أمْرٍ يَلَذُّ لي ويَعْظُمُ نفعك به ولا يَضُرُّني.

قال: وما ذاك؟

(قال): إجْعَلْني أعرض عليكَ عقول الناس وآراءهم وعُلُومَهُمْ وأخبارَهُمْ وأُفتّش لك عن زبد العلم والحكمة، فأُباشر المشقّةَ في البحث عنه وتنال أنت المنفعةَ به، كالغَوَّاص الذي يقتحمُ اللُّجَجَ ويُلَجِّجُ ليستخرجَ للمَلِكِ الدُّرَّةَ النفسيةَ والجوهرة الثمينةَ فيأخُذَها المَلِك عَفواً. وقد قيل: ليس الذهبُ لمستخرِجِهِ من مَعْدِنِهِ بأنفعَ منه لغيرِهِ من الناس إذا وصل إليه وأحْسَنَ الانتفاعَ به، فقد كانت الملوكُ تتَّخِذُ الحُكَمَاء معرفةً منهم بقُدْرة(*) العلم ونفعه فتكفي العلماءُ المُلُوكَ مشقَّةَ البحث والتعب، وتكفي الملوكُ العُلَمَاءَ مؤونةَ

(*) ربما كانت: بقدر.

العيش والطَلَب. ويظفرون بالمنفعة من غير مَشَقَّةٍ لأنَّ أَلْبَابَ المُلُوك مشغولةٌ بألفِ أَلْفِ شيءٍ [ق٢٩ب] وغيرهُمُ مشغولٌ بأيْسَرِ شيءٍ، وزمانُ المُلُوكِ مشغولٌ وزمانُ غيرِهِمْ فارغٌ، فهم يوسِّعون زمانَهم بزمانِ غيرهم ويستضيفون فراغ الفراغ لبعض أشغالِهِم(١).

قال الملك: وما ينفعُني من أخبار مَن تَقَدَّمَني فأَشغلَ زماني بما يزيدُ في شغلي، وإنما أنا مُحْتَاجٌ إلى الشغل بمُباشرةِ حالي وتدبيرِ أمْري عن النظر فيما كان فيه غيري، فإنَّ مَنْ تَكَلَّفَ ما لا يعنيهِ شَغَلَهُ ذلكَ عمَّا يعنيهِ.

قال: أيُّهَا الملك! إنَّ الأُمُورَ أشباهٌ بعضُهَا ببعض، وما مِنْ علمٍ من العلوم إلّا وقد صُنِّفَ فيه كُتُبٌ، وقد يرِدُ على العُلمَاء به ما ليس في الكتب فتكون معرفَتُهم بما فيها تستخرج لهم ما ليس فيها. وقد قالت الحكماء(٢): كلُّ شيءٍ

(١) في نصيحة الملوك للماوردي ق٣أ: «إن الملوك أكثر الناس أشغالاً، وأعظمهم أثقالاً، وأبعدهم عن ممارسة أمورهم بأنفسهم، ومُشاهدة أقاصي أعمالهم بأعيُنهم..».

(٢) القول في كتاب الآداب لابن المعتز ص ٥٦. وهو في عيون الأخبار ١/ ٣٤، والبصائر والذخائر ٤/ ١٠٦ بنسبته إلى فيلسوف، وفي نصيحة الملوك (على هامش سراج الملوك/ مصر ١٣٠٦ هـ) ص١٥١ بنسبته إلى بعض الحكماء. وهو في صيغ معدلة في شرح نهج البلاغة ٢٠/ ٣٤١، والتمثيل والمحاضرة ص٤٠٨، وزهر الآداب ٢/ ٩٨٣.

مُحْتَاجٌ إلى العقل، والعقلُ مُحْتَاجٌ إلى التجارب. وقالوا: عليكَ بعلوم أصحاب التجارب فإنها تقومُ عليهم بالغلاء وعليكَ بالمَجّان. والأمُورُ أشكَالٌ وأشباهٌ يُسْتَدَلُّ ببعضها على بعض. وقد يَرِدُ على المرء ما لم يُجَرِّبْ فيكون ما جَرَّبَ دليلاً عليه، ولكنَّ المرءَ لا يقدرُ أن يعيشَ ألف سنة فيُجرّب بل يقدر أن يقرأ أخبارَ الناس في الأُلوف السالفة فيكون كأنه قد عاش معهم [ق٣٠أ] وَجَرَّبَ تجاربَهُمْ. وكما أنَّ الحَيَّةَ مَدفُونةً في الأرض لا تكتفي بقُوتِهَا في ظهورها وثباتِهَا حتى تغتذيَ بالماء الذي يُربِّيهَا ويُنَمِّيها، والبصر الصحيح لا يَسْتَغْني بصحته عن الضياء الذي ينفذه، كذلك العقلُ السليمُ لا يَكْتَفي بنفسه حتى تَأتِيه التجارِبُ فَتُتَمِّمَهُ وتُكْمله.

قال: قد عَرفْتُ منفعةَ الأخبار للملك، فما منفعةُ العلم؟

قال: أيها الملك! كُلُّ شيءٍ يُؤْثَرُ ويُراد، فإنما يُرَادُ لأحدِ سَبَبَيْنِ: إما لِسَبَبٍ يَرْجِعُ إلى نفسه فكالعلم الذي إنما يُرادُ لنفسه وشرفه وقَدره لا لغيره، والذي يُرادُ لغيره فكالمال فإنه لا يُرادُ لنفسه وإنما يُرادُ لِتُقْضى الحوائجُ به. والعلمُ- ويجمعُ هاتين الخُلَّتَيْنِ- فإنه يُرادُ لأجلِهِمَا إذ كان مع شَرَفِهِ في نفسه يُنْتَفَعُ به في غيره. والناسُ كُلُّهُمْ ينتفعون بالعلم والحكمة. ولكنَّ المُلُوكَ أكثرهم منفعةً به لأنَّ العلم إذا كان في غير

المَلِكِ لا يُجاوِزُهُ نَفْعُهُ، وإذا كان في المَلِكِ انتفع هو به وجميع أهل مملكته ورعيته. وأحْوَجُ الناس إلى العلم أحْوَجُهُمْ إلى التدبير والتقدير. وكلُ تدبيرٍ بغيرِ علمٍ واهٍ، وكُلُّ تقديرٍ بغير كلمةٍ فاسدٌ. ولذلك قيل[1]: إذا أراد الله بقومٍ خيراً جعل العِلْمَ في مُلُوكِهِم أو المُلْك في حُكَمَائهم. وأقْدَرُ الناس على العلم أبْسَطُهم في المعرفة. وأعْرَفُهُم في التدبيرِ أوسَعُهُم حيلةً [ق٣٠ب]، وأوسعُهُم حيلةً أحَقُّهُم بالغَلَبَةِ. وكُلُّ فعلٍ أو صنعةٍ أو مهنةٍ فإنها تختصُّ برياضةِ جُزْءٍ من أجزاء الإنسان تُصْلِحُهُ وتُهَذِّبُهُ كالمَشْيِ الذي يُقَوّي الرجْلَيْن على الحركةِ، والكلامِ الذي يُطْلق اللسان ويُعِينُ على الفصاحة. وكُلُّ عُضْوٍ اعتُمد انطلق، وإذا أُهْمِلَ أصابه من التعقيد بحسب ذلك. والعِلْمُ يُقَوِّي الجُزْءَ القياسِيَّ المُمَيّز بين الأشياء ويمرنه ويروّضهُ ويُهَذِّبُهُ. وبهذا الجُزْءِ يكونُ الرأيُ والتدبيرُ والتمييزُ والتقديرُ.

---

(١) ترد العبارة نفسها في نثر الدرّ للآبي ص٣٢ باعتبارها قولاً لكسرى وجّهه إلى الهرمزان، وهي في سياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبداللة ق٣أ. وفي عيون الأخبار ٢/ ١٢١: "قال أبو الأسود: الملوك حكامٌ على الناس، والعلماء حكام على الملوك". وقارن بالمصون في الأدب ص١٣٧. وفي سجع الحمام ص٣٨١ نسبة هذا القول إلى الإمام علي. وفي الكلم الروحانية ص١١٧: "من كلام قراطيس الحكيم... سأله الإسكندر: أي رجل يصلح أن يكون ملكاً؟ فقال: إما حكيم يملك وإما ملك يلتمس الحكمة".

قال له الأسد: فهذا مُرادُ العُلَمَاءِ بِعُلُومهم؟

قال: لا! أيها الملك! إنّ صاحبَ العلم لا يقصد بالعلم وجُوهَ المنافع وإنما يريدُ العلم لنفسه ثم المَنَافِعُ بعد ذلك تَتْبَعُهُ. كَمُعَالِجِ العِطْرِ فإنه لا يَطْلُبُ شَمَّ ريحِهِ ولا التطيُّبَ به، وإنما يطلب الربح والأُجرةَ ثم هو مع ذلك لا يُخْطِئُهُ أن يعبق به ويلتذّ برائِحَته.

فقَبِلَ المَلِكُ كلامَهُ وعَرَفَ مقالَهُ، وصار يتردَّدُ إليه في أوْقاتِ خَلْوَتِهِ وأُنْسِهِ وساعاتِ نشاطِهِ فيُهْدي إليه طُرَفَ العلم وتُحَفَ الأخبار ومَحَاسِنَ الآثار، ومَكَايدَ المُلُوكِ وسياساتِهِم وثاقِبَ آرائهم ودقَّةَ مَرَامِيهِم؛ حتى زاد أُنْسُ الأَسِدِ به واشتغلَ عن كثيرٍ من أصحابِهِ فحسده قومٌ من خواصّه وأجْمعوا على مكيدته[1].

[١٥] بابُ حِيَلِ أصحاب الملوك بعضهم على بعض

وفي [٣١أ] هذا الباب داعيةٌ للمُلُوكِ إلى التَثَبُّتِ فيما يُلقى إليهم عن أصحابهم، والتَنَاهي في الكَشْفِ عنهم، والأضرار مما يُحتَالُ عليهم به، وأنَّ هذا البابَ أعظمُ ما يَدخُلُ عليهم به أعداؤُهُم.

(١) قارن بكليلة ودمنة ص ٥٨ وما بعدها.

وقال قالت الحكماء: ما يبلُغُ أحدٌ من فسادِ الدُّوَل ما تَبلُغُ السُّعاةُ فإنهم إذا سَعَوا إلى الملك بأصحابه أفسدُوهُ عليهم، وإذا أَفْسَدُوهُ عليهم (فسدوا)، وبفسادِهِمْ فَسَادُ المُلكِ. وقال آخر: إذا أعْيَاكَ عَدُوُّكَ فَاحْتِلْ له بِطانته فما هَلَكَ قومٌ قطُّ كهلاكهم مِنْ بطانَتِهِمْ.

قال: فجلس أعداءُ الغوّاصِ ذات يومٍ يتشاورونَ في أمْره وكَيْدِهِ، فقال أحَدُهُم: كيف الطريقُ إليه وليس ممن يتولى أمْراً فيُتَّهَم فيه. قال آخر: إنَّ المُلُوكَ قد تُعَاقِبُ وتسخطُ في أربعة أشياء: إفْشاء السر، والقَدْح في الدولة، وإفساد الحرم، واختزال الأموال[1]. فانظروا أيَّ هذه الأحوال أشبه به فاحتالوا أنْ يَتَّهِمَهُ الملكُ فيه.

---

(١) قارن بالعقد الفريد ١/ ٣٤، ٦٣؛ وقال المأمون: الملوك تتحمل كل شيء إلّا ثلاثة أشياء: القدح(؟) في الملك، وإفشاء السر، والتعرّض للحرم. وانظر كتاب الآداب لجعفر ابن شمس الخلافة ص٤٣. وينسب ابن حمدون في تذكرته ١/ ٣٠٣ هذا القول لأبي جعفر المنصور. ويجعلها أبو الحسن العامري ثلاثة وينسبها إلى "الأكاسرة" (قارن بالسعادة والإسعاد ٥٢، ٣٠٦). وانظر مروج الذهب ٤/ ٣٠٢، وإحياء علوم الدين ٢، والمحاسن والمساوىء ٤٠٢، والتمثيل والمحاضرة ١٣٩، (هارون الرشيد)، والتذكرة ١/ ٣٠٣، وخلاصة الذهب المسبوك ١٩١، ونصيحة الملوك ق٣٤أ، وبهجة المجالس ١/ ٣٤٧، والتاج ٩٤، ورسوم دار الخلافة ٥٠، وآداب الصحبة المنسوب للغزي ٨١، ومحاضرات الأدباء ١/ ١٨٨، ونهاية الأرب ٦/ ٨، وأنساب الأشراف ٣/ ١٩٠، وبدائع السلك ٢/ ٤٧٠، ١/ ٤٧٦، وآثار الأول ص١١١.

قال آخر منهم: كُلُّ واحدٍ من الأشياء يمكنُ أن يتهِمَهُ فيه فلا تغترُّوا بما تَرَوْنَ من حُسْنِ موقعِهِ عنده، فإنَّ ظَنَّ القادِرِ يقينٌ عنده، وصاحبُ الملكِ كالأسْهُم المُفَوَّقَةِ في كَبِدِ القوس أشدَّ ما يكونُ عليها حنواً ولها تقرُّباً أشدَّ ما يكون لها قَذْفاً وإبعاداً. ومع ذلك فإنَّ الغَوَّاص قد كثّر على الملك [ق٣١ب] والناسُ مِنْ طَبْعِهِمْ المِلْكَ لمَا قَدِرُوا عليه والزُّهْد فيما تَيَسَّرَ مَطْلَبُهُ وخفَّتْ مؤونتُهُ عليهم ومُحَافَظَتُهُ على أبوابهم. (والكَلْبُ) وهو من أنفع الحيواناتِ لهم في حِراستِهِ وأكرمها عهداً وأحفظها للشيء، أليس يُرعِبُهُم(*) مع خِفَّةِ مؤونتِهِ ويرغبون في اقتناء الوحوش والسِّباع وإن كان فيها ما هو عدوٌّ لهم؟! فالطفُوا في ذلك فقد يَبْلُغُ الضعيفُ بالحيلةِ ما لا يَبْلُغُ القويُّ بالقوة، فإنَّ الأسد قد يحفر له الصبيُّ الدبْيَةَ فيُوقِعُهُ فيها، وينصب له الفخّ والوَهَقَ فيصيده بهما. وإنما فَضْلُ العقل في دِقَّةِ الحِيلةِ. واعلموا أنه إذا ورد على الملك أولَ مرةٍ ما لا يتحَقَّقُهُ فإنَهُ وإنْ لم يَقْبَلْهُ فسيُؤَثِّرُ في نفسه، وإذا عَاوَدَ إليه مِثْلَهُ أو شِبْهُهُ أثَّرَ مثل ذلك، وإذَا دام فهو سَيُبْلِغُ ما يُرادُ أو أكثره، فقد قالت الحكماء: إنَّ الماءَ يُؤَثِّرُ في الصخرة الصَّمَّاءِ إذا دام عليها قَطْرُهُ وكذلك الكلامُ يؤثر في القلوبِ إذا دام منها

(*) كذا في الأصل.

استماعُهُ. وما هو إلّا أنْ يقرعَ سَمْعَ المَلِكِ شيءٌ فيُنْكِرَهُ ويُعاود إليه مراتٍ إلّا ألِفَهُ واستسهَلَهُ وأنِسَ بما كان ينفر منه. ألاَ ترى أنَّ الغُلاَمَ المُسْتَحْسَنَ الحصيف العاقل إذا تكررت الطلبةُ له فيما يُطْلَبُ من مثله حتى يأْلَفَ إليه سَمْعُهُ وتسكُنَ إليه نفسُهُ أجاب إلى ما يُرادُ منه ولا عِلَّةَ لذلك [ق٣٢أ] إلّا كثرة طُرُوقِهِ سَمْعَهُ وإلْفَ نفسه له. والشيخُ الذي بَعُدَ عَهْدُهُ بِسَمَاع ذلك والفكر فيه وإن كان (قد فعل ذلك في صباه) فإنه ينفر من مثله لو عُرِّضَ له به ولا عِلَّةَ لامتناعِهِ إلّا بُعْد عَهْدِهِ بذكْرِهِ وقِلَّةُ إلْفِهِ لاستماع مِثْلِهِ. ولو تَكَرَّرَ عليه ذلك حتى يأْلَفَهُ لأجابَ إلى ما أجاب إليه الغُلاَمُ. ألا ترى إلى البُلْدان التي يُطْلَبُ فيها من الرجال ما يُطلبُ من الغلمان كيف يُجيبُون إلى ما يُرادُ منهم. وترى من امتناع الغلمان في البلدان التي لا يُطلَبُ منهم فيها هذه الحال كامتناع الرجال. وإجابةُ الرجال في البلدان التي يُطْلَبُ ذلك منهم كإجابةِ الغلمان. وأنت ترى النفوس كيف تفكر (فيـ)ما لا تَعْهَدُ مثلَهُ وإن كان عجباً ولا تُنْكِرُ ما ألِفَتْ وإنْ كان بديعاً. وما هو إلّا أنْ يقرعَ سَمْعَ الملكِ ما يُوقِعُ الهَمَّ بالغَوّاص في ظنه ويدور في فكره وإن لم يُصَدِّقْهُ حتى قد سهل ما صَعُبَ. ويجب أن يُوقِعَ الحيلة في ظِنَّةِ الملك به في هذه الأربعة أشياء التي تُعاقِبُ الملوكُ على واحِدٍ منها، فإنْ أنْكَرَ الملكُ الأولى ودعاه مَوْقِعُهُ عنده وثقتُهُ

به إلى ردِّهَا أثَّرتْ [ق٣٢ب] أثراً لديه الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة.

قالوا: وكيف لنا بذلك؟

قال: أمَّا إفْشَاءُ السِّرِّ فإنَّا جماعةٌ (فتعالوا) حتى ننظر سِرّاً للملِكِ لا يعلمُ أحدٌ ما هو غير الغَوَّاص فيظنَّ كل واحدٍ منا فيه ظناً ولا يَخلُو أن يكونَ الصحِيحُ مع أحدِنا ويرويه. وقد قيل: ما ازدحَمَتِ الظنونُ على شيءٍ إلّا كَشَفَتْهُ، فإنَّ الملكَ إذا رأى اشتهارَ سره وأنه لم يطَّلِعْ عليه غيرُهُ اتَّهَمَهُ. وأمَّا إفْسَادُ الحرم فإنا نحتالُ فيه بما احتالتْ به امرأةُ المَدَنِيِّ على العراقيِّ! قالوا له: وكيف كان أمرُهُ؟ قال: إنَّ رجلين تَصَافَيَا المودَّةَ وَتَمَاحَضَا الصداقَةَ وكانا أديبَيْنِ شَاعِرَيْنِ وكان أحدُهُمَا مَدَنِيّاً والآخرَ عِراقِياً، فكان المدنيُّ يسيرُ مع العراقيِّ فيُقِيمُ بالعراق مع صديقه سنةً، ويسيرُ العِراقيُّ فَيُقِيمُ بالمدينة مع المَدَنيِّ سنةً، فَثَقُلَ على أمْرأةِ المَدَنيِّ أَمْرُ العراقيِّ وطولُ أسفارِ زوجِها معه ورأتْ مِنْ رأيِهَا أَنْ جَعَلَتْ أخاهَا يُلاَطِفُ العِراقيَّ ويُؤانِسُهُ ولم يَزَلْ يُتْحِفُهُ ويُهْدي له ويتودَّدُ إليه حتى احتشم بكثرة أَلْطَافِهِ. فلما سَكَنَ إليه ووثِقَ به وظَنَّ أنه قد صافاهُ وَخَالَصَهُ شكى أخو امرأةِ المدنيِّ إلى العِراقيِّ أنه يعشقُ امرأةً قد أضْنَاهُ حُبُّهَا وأَجْهَدَهُ الوَجْدُ بها، وسأله أنْ يكتُبَ له

[ق٣٣أ] رُقْعةً إليها يذكُرُ فيها حُبَّهُ لها ويَصِفُ لها شِدَّةَ شوقِهِ وعظمَ وَجْدِهِ بها. فأجَابَهُ إلى ذلك وعَمِلَ له أبْياتاً من الشعر وأضاف إليها كلاماً ألَّفَهُ وكَتَبَ بذلك رُقْعةً دَفَعَهَا إلى أخي امرأةِ المدنيّ فمضى بها ودفعها إلى أُخْتِهِ امرأة المَدَنيّ. فلمَّا حَصَلَتْ مَعَهَا وجاءَ إليها زوجُهَا عَلَّقت وجْهَهَا في وَجْهِهِ وأَرَتْهُ أنها مهمومةٌ، فَسَألها عن شَأْنِهَا فلم تُخْبِرْهُ، فأَقْبلَ عليها يستحلِفُهَا وَيَلِجُّ في استخبارِهَا فقالت: إنه جاءَتْني هَذِهِ الرُّقْعَةُ من صدِيقكَ وكرهْتُ أنْ أسوأَكَ فيه فعلِمْتُ أني إن عَرَّفْتُكَ أمْرَها هَمَمْتُكَ في نفسِكَ وفي صديقِكَ، وإنْ كتمتُكَ ذلك خُنْتُك فَغَمّي لهذَيْنِ الأمْرَيْنِ اللذين وقعْتُ بينهما. فلمَّا وَقَعَ الرجُلُ على الرُقْعَةِ ورأى خَطَّ صديقِهِ وشعرِهِ وكلامِهِ لم يَشُكَّ في صِدْقِهَا، فكانَ ذلك سببَ القَطِيعَةَ بينهما وارتحال العِراقيِّ إلى بلده. وفُلانةُ حظيةُ الملكِ وأحَبُّ الناسِ عنده، وقد أحْفَظَهَا شُغْلُ المَلِكِ به عنها فنكتب كتاباً عنه ونتلطَّف في طَرْحِهِ في موضعِهَا فإنها إذا وَقَعَتْ عليه وهيَ تتمنَّى تُهْمةً له أعْطَتْهُ للملك فيكونُ فيه فسادُ حاله. وأمَّا القَدْحُ في الدولةِ فإننا(*) نكتُبُ كتاباً على لسانِ فُلانٍ عَدُوَّ الملك [ق٣٣ب] ونَبْعَثُهُ مع بعض بضائع التُّجّارِ ونبعثُ مَنْ يغمز به الملك

(*) في الأصل: فإنها.

فيأخذ التاجر فيقبض عليه فيُصيبه في متاعه. وأما الملكُ فَسَتَرَوْنَ ما يعملُ فيه.

قال واحدٌ منهم: أما إذا عزمْتُمْ فَتَثَبَّتُوا في الحيلة فربما كان هَلاَكُ المرء في حيلته كما أصابَ عبدالله بن أبي بُرْدَةَ[١].

قالوا: وكيف كان أمرُهُ؟

قال: ذُكِرَ أن سَجَّانَ يوسف بن عُمرَ رفع إليه أسماءَ الموتى فقال عبدالله - وكان مسجوناً عنده-: إرْفَعْ اسمي في جملتهم لعلّي أَخْرُجُ معهم وأقبض هذه العشرة آلاف درهم. فَرَفَعَ اسمَهُ في الموتى. فقال يوسف بن عمر: جئني به! فخشيَ أن يجيءَ به وهو حيٌّ فرجَعَ فجعل المخدَّةَ على وجهه حتى ذهبَتْ نفسُهُ وجاء إليه به[٢]!. وإنما ضربْتُ هذا المَثَلَ لتعلموا أنَّه رُبَّ امرىءٍ أهلكتْهُ حِيْلَتُهُ. فَتَثَبَّتُوا فيما عزمْتُم عليه.

---

(١) كذا في الأصل، وصاحب القصة هو بلالُ بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري على الأرجح، ولي قضاء البصرة ثم إمارتها بين ١٠٩ و١٢٠هـ، له ترجمة في وفيات الأعيان ٣/ ١٠- ١٢، والكامل للمبرد ٢/ ٤٢، ٥٢-٥٣، وتهذيب ابن عساكر ٣/ ٣١٨، وتهذيب التهذيب ١/ ٥٠٠، وخزانة الأدب ٣/ ٣٥- ٣٦. وقد ذكر أبو الحسن المدائني الأخباري (-٢٢٥هـ) والهيثم بن عدي أن المقتول في القصة عبدالله وليس أخاه بلالاً، قارن بالبيان والتبيين ٢/ ١٦٦، والوفيات ٧/ ١٠١.

(٢) القصة في الأوائل لأبي هلال العسكري ٢/ ٣٦، وأخبار الأذكياء ١١٦، وخزانة الأدب ٣/ ٣٦. ويوسف بن عمر ولي العراق أيام هشام بن عبد الملك بين ١٢٠ و١٢٤ هـ، قارن عنه: وفيات الأعيان ٧/ ١٠١- ١١٢.

فأولُ ما عَمِلُوا أنهم كتبوا كِتَاباً في مُلفّفٍ ترجموهُ باسم الغَوَّاص إلى حظيةِ الملك يذكُرُ لها أنّ محبتَهَا قد أضْنَتْهُ وقَتَلَتْهُ وأنَّ الضُرَّ الذي به وقلَّةَ المَطْعَمِ وخُشونةَ اللباسِ ومُجانَبةَ الناسِ ليس من الزُّهْدِ وإنما هو من محبتِهِ لها، وأنه إن زاد عليهِ هامَ في البراري والقِفار. وطَرَحوهُ في مكان حظيةِ المِلكِ ومرقدِها فأصابَتْهُ فَمَضَتْ به إلى الملك فَعَظُمَ ذلك عليه ولم يُصَدِّقْهُ وقال: أنا أعْرِفُ الغَوَّاصَ وما هو بهذه المثابةِ ولعلَّ عَدُوّاً حَسَدَهُ، ولعلَّ هذه المرأةَ ثَقُلَ عليها موضِعُهُ، فإنَّ النساء أصْلُ كُلِّ بلاء [ق٣٤أ]. وأَسَرَّ ذلك في نفسه وصار يختلجُ به خاطِرُهُ.

ثم إنه كان من أصحاب المَلِكِ نَمِرٌ قد ولاَّهُ بَلَداً من البُلْدَان وظهر له خُروجٌ من الطاعة، وأراد أن يصرفَهُ وخافَ أنْ يُجاهِرَ بالعِصْيَانِ ويمتنعَ عليه فشاور الغَوَّاصَ في أمْرِهِ ولا ثالث لهما، فقال: ما ترى في أمْر النمر، فإني أُرِيدُ أَنْ أصْرِفَهُ عن عمله لِمَا أخشى من أمْرِهِ. فقال له الغَوَّاص: إنَّهُ قد استوحش وإن صرفْتَهُ حملْتَهُ على المُجاهرةِ وخَلْعِ اليد من الطاعة، وقد كانت الملوكُ إذا أرادوا كَيْدَ أحَدٍ اجتهدوا في أنْ يمحوا صُورةَ الحَذَرِ من نفسه، وزادوا في أُنْسه وإكْرَامِهِ ليسترسِل، وقد قال الأولون: إنَّ صرعة المُسترسِل لا

تُستقالُ، وأنت على العدو القويِّ إذا كان مُسْترسِلاً أَقْدَرُ منكَ على العدوِّ الضعيف إذا كان حَذِراً، ولكني أحْتَالُ لكَ في ذلك. وأنفذ الغَوَّاصُ إلى ذئبٍ كان من أصحابِ المَلِكِ فقال له: إنْ دَلَلْتُكَ على ما تكتسِبُ فيه مالاً عظيماً وولايةً لا يهتدي خاطِرُكَ إلى تَمَنِّيها أتَجْعَلُ لي شَطْرَ ما يَصِيرُ إليكَ؟ فَضَمِنَ له ذلك. فقال له: إني قد اطّلَعْتُ على رأْيِ المَلِكِ على أنه ليس أحدٌ أَعَزَّ عليه من فُلاَنٍ النمر، وإنه لو سَأَلَهُ في أعَزِّ الأشياء عندهُ وما يَصْعُبُ على الملوك لاستسهل ذلك واستلذّهُ ولم يتريَّثْ(*) [ق٣٤ب] في قضائِهِ فَسِرْ إليه وسَلْهُ أَنْ يكتُبَ إلى المَلِكِ في أَمْرِكَ كتاباً يسألُ لكَ في الناحيةِ الفُلانية تتقلَّدُها وأنا الضامِنْ إجابَتَهُ إلى ذلك. ولكنْ عاهِدْني على أنه ما حَصَلَ منها كان لي نصفُهُ. وأراد بهذا أنْ لا يفطنَ لمقصده، ويُقدّر أَنَّ مُرادَهُ فيه الانتفاعُ بما يصيرُ إليه. فعاهَدَهُ على ذلك. ومضى ذلك الذئبُ إلى النمر يطلُبُ ما قال الغَوَّاصُ، وعرَّفَ الغَوَّاصُ الأسَدَ ما كان من تدبيره وقال: قد عملتُ كذا وكذا ليسترسِل ويُقَدِّر أنه ما جاء إليه يسألُهُ إلّا وقد تحقَّقَ حُسْنَ رأْيِكَ فيه، وأوهمْتُهُ أني إنما أُرِيدُ بذلك مُقَاسَمَةَ ما يَحْصُلُ له ليخفى مقصدي عنه: فابْتَدِ أنت أيها

(*) في الأصل: يترتب.

الملكُ بتقريظ النمر ووصفِهِ وإذاعةِ حُسْنِ رأيِكَ فيه في أهل مملكتِكَ ليَتَّصِلَ الخَبَرُ به. واكتُبْ إليه كتاباً فيه تزيدُ في إكْرامِهِ وتبجِيلِهِ وتَصِفُ له ثِقَتَكَ به. وإذا ورد عليكَ كتابُهُ فأنْفِذ إليه خِلَعاً للنمر وخِلَعاً للذئب. وأنْفِذْ التقليدَ بهذهِ الناحيةِ مع الخِلعَ. فإذا استقرَّ الذئبُ في عمله فإنَّ تلك الناحيةَ ثَغْرٌ ولا بُدَّ فيها من هَيْج فأنْفِذْ إلى النمر بأنْ يُقَوِّيَهُ بأقوياء عسكرِهِ ويستمدَّ الجند بعد الجند ويأمر بتجهيز العساكر إلى الأطراف، وتَعِدُهُ أَنَّ ما فتح كان له. فإذا بقي بغير جُنْدٍ صار تحتَ قبضتِكَ.

ثم إنَّ الذئب أنفذ [ق٣٥أ] نحو النمر متوجِّهاً فلما بلغ إليه طَرَحَ نفسه عليه وسأله في الذي جاء لأجله، وعرَّفَهُ ما تَصَوَّرَ عنده من جهة التخبير من حُسْنِ رأْيِ الأسد فيه. ثم تواتَرَتِ الأخبارُ بما أذاع الأسَدُ من تَقريظه وَوَصْفِهِ، وتلا ذلك الكتاب منه بتبجيله وإكْرامِهِ. فسكَنَتْ نفسُهُ وقال: أتْلُو ذلك بكتابٍ إليه في أمْرِ هذا الذي قَصَدَني واسأَلُهُ فيما سألَني. فكتب إلى الأسد يسألُهُ في أمْرِهِ فأنفذ إليه خِلعاً للذئب وتقليداً بالناحية[1].

(١) قصة محاباة النمر وإيثاره وتقريبه ليغتر بذلك فيأمن فيؤخذ على غرّة، تُشبه من وجوهٍ عدةٍ قصة مماثلة صنعها أبو أيوب المورياني (-١٥٤هـ) وزير الخليفة=

فاجتمع أعداءُ الغَوَّاص ذات ليلةٍ فقال أحدهم للآخر: ما ترون في أمْرِ إجابةِ الملك للنمر إلى ما سأله وتقليده الذئبَ ناحيةً جليلةً بسؤاله وأحسانه إلى عدوه مع ما ظهر له منه. ونحن نعلم أنه لم يفْعَلْ ما فعلَ إلّا بعد مشورة الغَوَّاص وإطلاعه على سره وما أظنُّه إلّا أمْر سُوءٍ يُريدُهُ به. وقال له صاحبه: إنَّ الملوكَ قد تعفو عن الذنب الكبير لتَعْظُمَ به المِنَّةُ عند صاحبه، ويخشى من مُعاودته، واجتِلاباً لشدةِ نصِيحتِهِ، وبَذْلِ المجهود في طاعتِهَا إذا رأى عظيمَ المنة عقيب الإساءةِ، فإنَّ الإحسانَ ربما كان أقْتَلَ من السيف. وقد تَقْتُل على الذنب الصغير حتى لا يجترىء عليه غيرُه [ق٣٥ب].

قال الآخر: بالجملة إنَّ المَلِكَ لم يرِدْ بالإحسان إلى النمر وهو عدوه إلّا أحد حالين: إمّا الاستسلال لِمَا في قلبه واستجلاب النصحية منه، أو مكيدة ليطَّرح الاحتِراس فتبدو مقَاتِلُهُ. ولكنْ امضِ أنت فَقُلْ إنَّ الخابِرَ الصَّدوقَ خَبَّرَكَ أنَّ المَلِكَ إنما أراد بما فَعَلَهُ من الإحْسان إلى النمر استِصلاَحَهُ، وأمضي أنا فأقُول إنَّ المَلِكَ لم يرد بما فَعَلَ إلّا مكيدةً للنمر، فلا بد من أحد المَعْنَيَيْنِ أنْ يَصِحَّ، فَفَعَلاَ ذلك. وَرَقَى الخَبَرُ

=المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ) عندما أراد الأخير الفتك بأبي مسلم الخراساني، قارن بتاريخ الطبري ٣/١٠٨- ١٠٩.

إلى الأسد فَزَادَتْ تُهْمَةُ الأسد للغَوَّاص وقال: ما عَرَف سِرّي غيره وغيري. فأما أنا فمن نَفْسي على ثقةٍ أني لم أُبْدِ ذلك لأحدٍ، وما أراهُ إلّا من جهتِهِ. واجتمع ذلك إلى ما كان وَقَرَ في نفسه، وأراد أنْ لا يعجَلَ بشيءٍ دون كَشْفِهِ ولكنه أَخَذَ في الاحتراز منه والتَّقَبُّضِ وَطَيِّ أسْرَارِهِ عنه، فظهر التَغَيُّرُ له في أَلْحاظِهِ وشمائِلِهِ، وانصرف بوجْهِهِ إلى غيره. فلما رأى الغَوَّاصُ ذلك منه وتأمَّلَ التغيُّرَ في شمائِلِهِ وحركاتِ أَلْحاظِهِ فَكَّرَ في أمْرِهِ وقال: لعلَّ ذلك لِشِدَّةِ ثِقتِهِ بي فإنَّ الحُكَمَاءَ قد قالت: إذا خَدَمْتَ رئيساً فلا تَتَّكلنَّ على (ثقته) بِكَ وإكْرامِهِ لَكَ فإنه ربما قَبَضَهُ عنهما الثقةُ بما وَقَعْتَ عليه من رأيِهِ. ولا يُوحِشَنَّكَ [ق٣٦أ] تقريبه مَنْ هو دونك وزيادته إياه (وداوِمْ على) القيام بشروط الخدمة وبَذْل المَجْهود في المُنَاصَحَةِ فإن النفوسَ الضعيفةَ ربما انصرفَتْ عن الانكِماشِ في الخدمة إلى التعنُّتِ والمُقَايَسَةِ بين سَعْيها وَسَعْيِ مِنْ قَصَّرَ عنها. وإنما ذلك لقلةِ صَبْرِها وضعف نَجْدتِهَا. وقال آخر: إذا وَثِقْتَ بِنِيَّةِ السلطان فيما بينك وبينَهُ فلا تُنْكِرْ في لِقَائِكَ (إياه) النَبْوَةَ ولا تَعَرَّفْ سَبَبَهَا، فإنَّ للسلطان أحْوَالاً من أشغَالِهِ ينفرِدُ لِمُعَاناتِهَا تَغْلِبُ على قلبه، وتنكَّبِ الاسْتِرابةَ به فإنها تُبْرِم المَصْحُوبَ وتَجْني على الصاحب. واعْلَمْ أنَّ استِرابَتَكَ به تُخْبِثُ قَلْبَكَ عليه (في)ظْهَرُ ذلك له في نَظَرِكَ وطَرْفِكَ وشمائِلِكَ وحَرَكَاتِكَ.

وإذا ظهر ذلك منكَ لم يَخْفَ عليه، وإذا لم يَخْفَ عليه أنكرَ مِنْ حَالِكَ ما عَرَّفَكَ. وليس إلى مُوافقةِ السلطان والاستقصاء عليه سبيلٌ، فإنَّ ذلك مما يُفسِدَ الإخوانَ المُتَصَافِيْنَ فكيف بالملوك القادرين. فَوَجِّهْ حُسْنَ الظن به إليه ما استَطَعْتَ.

وقال أيضاً: إذا كنتَ للملك أَنْصَحَ من جماعةٍ تُساوي أُجرتُهُمْ أُجْرَتَكَ فلا يكرثنَّكَ ذلك لأنكَ تَأْخُذُ ما فَوَّضَهُ لَكَ الرأْيُ وهم يأْخُذُونَ [٣٦ب] ما بَذَلَهُ لَهُمُ الهوى الذي لا يلبث مع التكشُّف.

وقالَ: مَنْ كانت الفضيلةُ في طَبْعِهِ كان عَمَلُهُ في خدمةِ المُلُوكِ آثَرَ عنده من الرِفْعَةِ لديهم، وزيادة الأُجْرَةِ مِنهم، ومَنْ لم تَكُنْ الفضيلةُ في طَبْعِهِ تَأَسَّفَ على تقصيره حالِهِ عن حالِ غيرِهِ وأكْثَرَ التَمَنُّنَ بِسَعْيِهِ، وَنَسَبَ الملكَ إلى الجهل بالترتيب حتى يركبَ من الطَعْنِ عليه أكثر مما أَسْدَاهُ إليه. وقال بعضُهم: لا تُلْزِمَ نَفْسَكَ عِلْمَ ما لا ينفعُكَ عِلْمُهُ وَلاَ يَضُرُّكَ جَهْلُهُ من خَبَرِ السلطانِ فإنه إنْ عَرَفَكَ بالبحث عن سِرِّهِ أغْلَقَ به عنكِ باب من ينصح فيك ثم ردّ عليكَ الإيضاح والتَثَبُّت، وقَبِلَ من عدُوِّكَ فيك الظَّنَّ والتشبيهِ. وقال آخر: إحْذَرْ أنْ يعرفَكَ السلطان بالطعن عليهم في اختيار الكُفَاةِ وإن أخطأُوا في اختيارِهِمْ، أو المُصافاة لِمَنْ باعدوا وإنْ قَوِيَتِ الأسبابُ

بينك وبينهم، فإنَّ الأولى تُغريهم بك، والأخرى تُوحِشُهُمْ منكَ، تَوَسَّط الحَالَيْنِ فاكْتفِ من عَيْبِ مَنْ اصطفوا بالإمْسَاكِ عن تقريظِهِمْ عندهم، ومن مُخَالَطَةِ من أقْصَوا بالتَّأتّي لتقريبِهِمْ منهم. وقال آخر: لا يفتننَّكَ تقريبُ المَلِكِ الأشْرارَ فإنَّ ذلك إنما يكونُ عند ضرورتِهِ إليهم كما يضطر إلى [ق٣٧أ] الحجَّام والكسَّاح عند نبغ الدم وفيض الكنيف، ثم ينبذ مَنْ قَرَّبَهُ منهم بعد ارتفاع الحاجة إليه حتى يعود إلى مجلسه. وصاحبُ الفضيلةِ قريبٌ مِنْ قلبهِ في وقت الحاجة إليه والاستغْنَاء عنه. والمنازلُ عند الملوك لا تُنَالُ بالمسألةِ، وإنما تُنَالُ بالكِفَايةِ. ويجبُ على الحازم أنْ يَحْرُسَ منزلتَهُ في بقائها مثلما أنشأها في ابتدائِهَا فإنها كالكرمة التي يُحْتَاجُ من القيام عليها في ثباتِهَا كمثلِ ما احتيجَ إليه في غَرْسِهَا. ولا ينبغي لصاحِبِها أن يتَّكِلَ مِنْهَا على ما كان مِنْ قِيامِهِ عليها فإنَّ تَرْكَ الذي (....) أَحَقُّ الأشياء بأن (....) وقد قال بعض العلماء الحكماء: حَقٌّ على صَاحِبِ السلطان أنْ لا يَسْتَحْدثَ منزلةً وقَدْراً إلّا أحْدَثَ له ذلك خِيْفَةً وتوقِيفاً. وليعلم أنَّ على قَدْرِ العُلُوّ الهويّ، وأَنَّ على قَدْرِ موضع النعمة موقع زوالِهَا، وأَنَّ اختِلافَ أصحابِ الملك في ذلك بمنزلة قوم ترقّوا مَصْعَداً صَعْباً فلما ترقوا فيه

زالت أقْدَامُهُمْ عنه إلى القرار فكان أبعدهم مرقى أقربهم إلى التلف، وأَدْناهُم من القَرَار أحْراهُم بالنجاة(١).

ثم إنَّ أعداءَ الغَوَّاص لمَّا رأَوا انقباضَ المَلِكِ عنه طَمِعُوا فيه وقَوِيَتْ أَنْفُسُهُم في كيده. ونظروا بعض التجار فضمِنُوا لِغُلامٍ كان لَهُ (مالاً) حتى أَثْبَتَ جميع ما وَرَدَ به التاجر من مالٍ ومتاعٍ ثم كتبوا كتاباً على لسانِ النمر إلى الغَوَّاص يذكرون فيه أنه قد وصل مع الذئب إليّ به وشافَهَني بما ألقيت إليه مما لم أَثِقْ بِإِيداعِهِ بَطْنَ كتابٍ، ووعَيْتُ ذلك وحَصَّلْتُهُ وأُحِبُّ التمام؛ فإنَّ المرء مُخَيَّرٌ [ق٣٧ب] في الأمْرِ ما لم يَبْتَدِئ به فإذا ابتدأ به لَزِمَهُ إتْمامُهُ. وأنا لَكَ على أكثر مما وافقْتُكَ عليه فَتَمِّمْ ما وافقْتَني عليه. وقد أنفذْتُ لكَ من المال كذا ومن الكُسى كذا. وأَثْبتوا جميعَ ما مع التاجر من مالٍ وبضاعةٍ، ودفعوا الكتابَ إلى الغُلام وسأَلُوه أنْ يجعله في بعض رَحْلِ صاحِبِهِ، ففعل ذلك. وبعثوا إلى الملك مَنْ سَعَى بالتاجر إليه وقال إنَّ معه مالاً قد حَمَلَهُ لأصحابكَ يَحُثُّهُمْ عليكَ وكُتُباً. (و)لم يَذْكُرُوا الغَوَّاصَ ليكونَ أَوْكَدَ لِمَا رامُوا

---

(١) قارن بأمثال مشابهة في كتاب الآداب لابن شمس الخلافة ص ٢٨، وبهجة المجالس ١/ ٣٥٤، ويذكر الكلاعي القول في إحكام صنعة الكلام ص١٨٤ دون نسبة. بينما ينسبه أبو حيان في البصائر ١/ ٥٢٤ إلى إبراهيم بن هرمة.

وأقلّ للعلم بما داولوا. فأنفذ الأسد فقبض على التاجر وقرَّرَهُ فلم يُقِرّ لأنه لم يكن قد عَلِمَ بشيءٍ مما احتيلَ به عليه، فقبض على متاعه فوُجدَ الكتابُ وفيه ثَبْتُ جميع مَتَاعِ التاجر. فلمّا وقَفَ الأَسَدُ على الكتاب وَرَدَ عليه ما أَذْهَلَهُ وحَيَّرَهُ وَهَمَّ بقتل الغَوَّاص. ثم قال: إني أَعْرِفُ مِنْ سَعَةِ معرفتِهِ وبُعْدِ غَوْرِهِ ما يُشْبِهُ أَن يكُونَ هذا مِنْ فعله، وأَعْلَمُ مِنْ وفائه وطهارةِ أَخْلاَقِهِ ودينه ما يُبْعُدِ هذا في نفسي منه. ولكنها واحدةٌ قد تَقَدَّمَتْ لها أَخَوَاتٌ تُحقِّقُها وأَمْثَالٌ تَشهدُ لها. وقد دُفِعْتُ إلى أَحَدِ أَمْرَيْنِ ما في واحدٍ منهما حَظٌّ ولا دَرَكٌ: إمَّا قَتَلْتُهُ فأكُون قد جازَيْتُ كثيرَ إحْسَانِهِ إليَّ بإساءةٍ، وإمَّا عفوتُ عنه فلا يتأَخَّرُ أحدٌ عن إتْيَانِ كبيرةٍ ولا يخشى أَحَدٌ من المُقَابَلَةِ على إساءةٍ. ولقد ظهر لي من الغَوَّاص ثلاثةُ أُمورٍ تَقْتُلُ الملوكُ على الشُّبَه في واحدٍ منها. ولو كان الذي يخشى من مَضَرَّةٍ ما أقدم [ق٣٨أ] عليها وهو ما بدا منه لكان عِلْمي قد دَفَعَ عني كَيْدَهُ باحترازي منه. ولكنه فسادٌ لجميع أهل المملكة ومُجَرِّئٌ لهم على الإساءة.

وَحَدَّثَ نفسَهُ بِقَتْلِهِ فكان في أصحابِهِ رجُلٌ بينه وبين الحق صداقةٌ لا يَدْخُلُ فيما لا يعنيه، لا يَحْمِلُهُ حُبُّ المُؤَانسة على التثقيل، ولا تهجُمُ به كثرة الانقطاع على الإيحاش. وكان

يَسكُنُ إليه في أُمورِهِ ويُفْضي إليه ببعضِ الأسْرارِ، وكان بينه وبين الغَوَّاصِ معرفةٌ فأَحْضره سِرّاً وبَثَّهُ ما في صَدْرِهِ، واستكْتَمَهُ ما أَمْضى إليه مِنْ سِرِّهِ.

واستشاره (الملكُ) في أَمْرِهِ فقال له: أيها الملك! إنَّ أَوَّلَ مَن اتخذ السجنَ(١) كان حكيماً، وللبديهةِ حيرةٌ تمنعُ مِنْ فضْلِ الحكومةِ. وكان الملوكُ يتّهِمُونَ حُكُومةَ الغَضَبِ ورأْيَ البديهةِ ويستعينونَ عليهما بالمُهلة فإنَّ الليلَ والنهارَ يهتكانِ الأَسْرار. وقال بعض الحكماء: الغَضَبُ يُشبِهُ الفَرَس المداد الذي يَظُنُّ أَنَّ شِدَّةَ جريه لِراكِبِهِ وهو عليه. وأحَقُّ الناسِ بالتثبُّتِ في العُقُوبةِ أَقْدَرُهُم عليها متى شاء. وما فوق يدِكَ يَدٌ فيفوتك ما تطلب. ولتَثَبُّتٌ(*) على بصيرةٍ أحسن مِنْ أَنْ تُقْدِمَ على شُبْهَةٍ. والذي تُريدُهُ اليوم أنت تقدرُ عليه غداً مع السلامةِ مِنْ هُجْنَةَ الرأْيِ في إمْضَاءِ الحُكْم عن غير رَوِيَّةٍ وفضْل القضاء على البديهة. وقد قالت الحُكَمَاءُ: أَنت على فِعْلِ ما لم تَفْعَلْ أقدرُ منكَ على رَدِّ ما فَعَلْتَهُ(٢).

(*) في الأصل: ولا تثبت.

(١) في الفرج بعد الشدة ١٦/٤ عن الشعبي أنه قال لمصعب بن الزبير: إن أول من اتخذ السجن كان حكيماً... الخ. وقارن عن السجن ونظرة المسملين إليه: F. Rosenthal: The Muslim Concept of Freedom (Leiden 1960) 35-77.

(٢) قارن بالمحاسن والمساوئ ص ٣٩٥ (والقول منسوبٌ هناك لكسرى=

فَفكَّرَ الأَسَدَ في نفسه. فقال: [ق٣٨ب] لَعَمري! إنَّ الأَولى أنْ أَحْبِسَهُ وأستوثق منه بحيث ينحبسُ عني شَرُّهُ وما يُخْشى من كيدِهِ، ثم أكون من وراء الكَشْف عن أمرِهِ. وأَمَرَ بِحَبسِهِ (....) منه ولم يُطْلِعْ [أحداً في] الكَشْف عن أمْرِهِ ولا الذي أَوجَبَ تُهْمَتَهُ له وسُخْطَهُ عليه لأَجله. فاجتمع أعداءُ الغَوَّاص فقال بعضُهم لبعض: هَلُمُّوا نُظْهِرْ للمَلِكِ أنَّا نُريدُ استِصْلاحَهُ له ليكونَ أَخْفَى لما يَكونُ منا في أمْرِهِ، وأعدَلَ لشهادتنا عليه وقَوْلنا فيه، وأبْعَدَ للظِّنَّةِ بنا في أَمْرِهِ. فقد يَجِبُ على الحازم أَنْ يُظْهِرَ مِنْ أَمْرِهِ ضدّ ما في نفسه ليكونَ أَخْفَى لقصدِهِ كما فَعَلَ بعضُ الأَكْياس حين أرادَ أَنْ يُخَلِّصَ رجلاً من يدي بعض الأمراء.

قالوا له: وكيف كان ذلك؟

قال: ذُكِرَ أَنَّ أَميراً من الأُمَرَاءِ كان مُبْغِضاً للبادِيةِ حَنِقاً عليهم يستلذُّ قَتْلَهُمْ والتنكيلَ بهم، فأُخِذَ رجلٌ في جُرْمٍ اجتَرَمَهُ فقُدِّمَ بين يديهِ لِيُقَامَ الحدُّ عليه، فقال له رجلٌ- كان جليساً له، كانت له بذلك عِناية-: أيها الأمير! إنَّ هذا الرَجُلَ يجبُ

=أنو شروان) وفي تذكرة ابن حمدون (ص ٧٦): قال أحدهم... إلخ. وفي الفرج بعد الشدة (ص ٦٠) للتنوخي نسبةُ هذا القول إلى طالبي في سجن هارون الرشيد. وانظر بهجة المجالس ١/ ٣٤٧، وكتاب الآداب لابن شمس الخلافة ص ٤٩. وقارن بما سبق.

عليه القَتْلُ لا الضَرْبُ! قال: وَلِمَ ذلك؟ قال: إنه قَتَلَ كثيراً من البادية! فالتفتَ ذلك الأميرُ إلى صاحب شُرْطتِهِ فقال: أَطْلِقِ الرجُلَ! وإنما حَدَّثْتُكُم بهذا الحديث لتُظْهِرُوا ضدَّ ما في صُدُورِكم ليكونَ أبْعَدَ للظِّنَّةِ عنكم.

قال واحدٌ منهم: أنا أعرفُ خبراً يُشْبِهُ [ق٣٩أ] هذا المعنى. قالوا: وما هو؟ قال: ذُكِرَ أَنَّ رَجُلاً كان عليه دَيْنٌ يَشْهَدُ به شُهودٌ، وأَنَّ خَصْمَهُ سألَ الشُهودَ أَنْ يَحْضُرُوا معه في ذلك اليوم ليشهدوا عند القاضي. فجاء المَدْيُونُ إلى صديقٍ له فَبَثَّهُ أَمْرَهُ وشكى فَقْراً وإمْلاقاً، فقال له صديقُهُ: أنا أُخَلِّصُكَ منه! فلمَّا غدا من غدٍ إلى دار القاضي وجد صديقَهُ مع شُهُودِ صاحبِ الدَّيْنِ والذين يشهدون عليه فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! أَقْررْتُ له بما عليَّ ودِلَلْتُه على سِرِّي، وزِدْتُ في أذى نفسي! فلمَّا خَرَجَ القاضي ورآهُمْ مُجْتَمِعِيْن، قال: مَنْ هؤلاء؟ قيل: شهودٌ يشهدونَ لفلان! ورأى ذلك الرجُلَ فيهم، فأمَرَ بالاستخْفَافِ بهم وطَردِهِمْ وألّا تُقْبَلَ شهادةُ أحدٍ منهم! فجاء إليه المَدْيُونُ فَقَال له: بأي شيءٍ احتلْتَ؟! فقال: إنَّ القاضي يعرفُني بشهادةِ الزُّور فجئتُ بين شُهُودِ خَصْمِكَ فاستَرَاب بهم لمّا رآني معهم. وهذا لمَّا أَظْهَر خلافَ ما في نفسه بَعُدتِ الظِّنَّةُ عنه فيما فعله وظَنَّ باطِنَ الأَمْر كظَاهِرِهِ.

وقال آخر: قد فعل عمرو بن العاص مثل ذلك! قالوا: وكيف كان ذلك؟ قال: ذُكِرَ أَنَّ سَلْمَانَ الفارسيّ خَطَبَ إلى عُمَر بن الخطّاب رضي (الله) عنهما فأجابهُ فشَقَّ ذلك على عبد الله بن عُمَرَ [ق٣٩ب] فشكى إلى عمرو بن العاص فقال: أنا أكْفيكَهُ! فقال: أَخْشَى أن تُغْضِبَ أميرَ المؤمنين ـ يعني عمر رضي الله عنه، فقال: ولا يغضبُ أميرُ المؤمنين! وتركه ومضى إلى سَلْمَان فَلَحَقَ به وقال: هنيئاً لكَ أبا محمد! هذا أميرُ المؤمنين يتواضَعُ بتزويجِهِ إيَّاكَ! فَغَضِبَ سلْمَانُ وقال: أَبي يَتَوَاضَعُ؟ والله لا تَزَوَّجْتُ إليهِ[1]! فهذا ممن أَظْهَر خلافَ غَرَضِهِ فكان سبباً لِنَجاحِ أَمْرِهِ.

قال آخر: هذا يُشبِهُ ما فعل خالدُ بن يزيد! قالوا له: وكيف كان فِعلُهُ؟ قال: ذُكِرَ أَنَّ الحَجَّاجَ خطب إلى عبد الله بن جعفر ابنتَهُ فخافَهُ فأَجَابَهُ إلى تَزْوِيجِهِ وكتب يشكو ذلك إلى خالد بن يزيد، (فصبر) حتى جَنَّ الليل فجاء إلى عبد الملك بن مروان واستأْذَنَ فأذنَ له. فلمَّا دَخَلَ عليه قال له عبد الملك: ما الذي جاءَ بِكَ في هذا الوقت؟ قال: أَمْرٌ خشيتُ أَنْ يعْجلني الموتُ قبل الصباحِ عنه! قال: وما هو؟

---

(١) قارن بالقصة في لطف التدبير للإسكافي ١٩٩، والعقد الفريد ٥/ ٩٠، وغرر الخصائص ص ٦١، وعيون الأخبار ١/ ٢٦٨.

قال: قد علمْتَ يا أميرَ المؤمنين ما بين آلِ حَرْبٍ وآل الزُّبير، ولقد تَزوّجْتُ إليهم ووالله ما على وَجْهِ الأرضِ اليومَ قومٌ أَحَبّ إليّ منهم حُبّاً لأُختهم، وإنَّ الحَجَّاجَ يسفك (دماءهم) وقد عزم على التزويج إلى عبدالله بن جعفر، وقد عَلِمْتَ حالَ آل أبي طالب (وقد علمتَ ما يُقَالُ فيهم في آخر الزمان)[1]؛ فقال: وَصَلتْك رَحِمٌ! وكتب إلى الحَجَّاج يَعْزِمُ عليه أنْ لا يتزوَّجَها. قال [ق٣٩ب] بعضُهم: مثل هذا ما ذُكِرَ عن بعض المُلُوك في خَبَرِهِ مع معلمه، قالوا: وكيف كان ذلك؟ قال: ذكروا أنَّ بعضَ المُلُوكِ كان لا يفتحُ مدينةً إلّا خرَّبها وقَتَلَ أهْلَهَا وأَنَّهُ فَتَحَ مدينةً كان مؤدِّبُهُ فيها: فَخَرجَ إليه فألْطَفَهُ

(١) في الأصل بياض، وما أثبتناه عن العقد الفريد ٥/ ١٢٢. وفي الكامل ١/ ٣٠٣: فكيف أذنت للحجاج أن يتزوج في بني هاشم، وأنت تعلم ما يقولون ويقال فيهم!
وقارن عن خالد بن يزيد بن معاوية: أنساب الأشراف ٤/ ٢/ ٦٥- ٧١، والفهرست ٣٥٤، وتهذيب ابن عساكر ٥/ ١١٦، وتاريخ الحكماء للقفطي ٤٤٠. أما عن الحجاج بن يوسف (٩٥هـ) الثقفي الذي ولي العراق منذ عام ٧٥هـ وحتى وفاته، فقارن، دراستي بالألمانية:
Die Revolte des Ibn al-Ashath und die Koranleser (Freiburg 1977) 99 ff.
والقصة في الكامل للمبرد ١/ ٣٠٣- ٣٠٤، وأخبار النساء لابن الجوزي ٥٨- ٥٩، وأنباء نجباء الأبناء لابن ظافر ص ٩٢- ٩٤، والمحبر لابن حبيب ص ٤٣٩، والعقد الفريد ٥/ ١٢٢. وهي في العقد ٢/ ٧١- ٧٢ بشكل آخر.

المَلِكُ وأَعْطَاهُ[1] فقال له: أيها الملك! إنَّ أَحَقَّ مَنْ زَيَّنَ لك أَمْرَكَ وأَتَاكَ على مُرادِكَ أنا، وإِنَّ أَهْلَ هذه المدينةِ قد طمعوا فيكَ (لمكاني منك)[2]. فأُحِبُّ أَنْ لا تُشَفِّعَني فيهم وأَنْ تُخالِفَني فيهم في كُلِّ ما سَأَلْتُكَ لهم! فأعْطَاهُ من ذلك ما (لا)[3] يقدر على الرجوع عنه. فلمّا تَوَثَّقَ منه قال: فإنّ حاجتي أنْ تَدْخُلَهَا وتخرّبَها وتقتُلَ أهلَهَا. قال: ليس إلى ذلك سبيلٌ ولا بُدَّ من مُخَالَفَتِكَ[4]!

قال آخر: مثل هذا ما ذُكِرَ في بعض الأمْثَال.

قالوا: وكيف كان ذلك؟

(قال): إنَّ اثنين اختصما في شاةٍ فَمَرَّ بهما إبْلِيسُ في صورة رجلٍ فاحْتَكَمَا إليه فقال لهما: إقْطَعُوهَا نصفَيْنِ ولِيأْخُذْ كُلُّ واحدٍ منكما نصفَها. فلم يَرْضَيَا بذلك. ثم إنهما تَرَاضَيَا بأَوَّل مَنْ يَطْلُعُ عليهما أَنْ يَحْكُمَ بينهما، وأَنَّ رجلاً طَلَعَ عليهما فذكرا له حالَهُمَا فقال: إنْ كُنتُما (لا) ترضيان فلا

---

(١) في البيان ٢/ ١٦٥، وأعظمه.

(٢) من البيان ٢/ ١٦٥.

(٣) من البيان ٢/ ١٦٥.

(٤) ترد القصة في البيان والتبيين ٢/ ١٦٥ (عن المدائني)، كما ترد في العقد الفريد ١/ ١٢٤، وغرر الخصائص ص ٦٠- ٦١، والملك هناك هو الإسكندر.

[ق٤٠ب] تُتعِباني! فضمنا أنهما يرضيان به. قال: احلفا، فحلفا يميناً لا يقدران على الرجوع عنها. فقال: أنا أحكم أن آخذها أنا (اجتناباً) للمُجاذبة! فلم يقدرا على مخالفته.

وقال واحدٌ منهم: هذا مثلُ ما ذُكر من خبرِ الهرمزان! فإنه لمَّا جيءَ به إلى عمر أَمر بقتله فسأل عمر أن يتقدم بسقيه ماءً فأَمَر به، فجيءَ له بِقَدَحٍ فيه ماءٌ فأظهر الفَزَعَ ولم يشرب. فقال له: لِمَ لا تشرب؟ فقال: إني أفزعُ أَن أُقتَلَ قبل أَن أَشربَهُ فآمِنِّي أنك لا تقتُلني أو أشرَبَهُ! فَأَعْطاهُ الأمانَ حتى يشرَبَهُ، فَرَمَى بالقَدَحَ فَكَسَرَهُ فَعَلِمَ عُمر أن لا سبيلَ له إلى قَتْلِهِ فلم يتعرَّض له(١).

قال بعضهم: هذا مثل ما ذُكرَ مِنْ خبر رجُلٍ مع شبيب الخارجي! قالوا: وكيف كان أمْرُهُ قال: ذُكِرَ أَنَّ شبيباً الخارجيّ عَبَرَ برجُلٍ يغتسل في ماءٍ وفَرَسُهُ بين يديه فأَرَادَ قَتْلَهُ، فقَال: ليس هذا من الإنْصاف! أنت فارسٌ وأنا راجلٌ، وإنك بسلاحٍ وأنا عارٍ فآمِنِّي حتى أركبَ وأتسلَّحَ. فأعطاهُ

(١) قارن بالقصة في عيون الأخبار ١/ ١٩٥- ١٩٦، والعقد الفريد ١/ ١٢٥، وأخبار الأذكياء ص١٠١، والكامل للمبرد ١/ ١٢١، ومحاضرات الأدباء ١/ ١٤٤، وربيع الأبرار للزمخشري ١/ ٧٩٢- ٧٩٣، والبصائر والذخائر ٢/ ١/ ١٢٠- ١٢١، وتاريخ خليفة ١/ ١١٩، ونهاية الأرب ٦/ ٧٧١، وغرر الخصائص، ص٦١، والفاضل للوشاء ٢/ ١١٥.

الأمانَ إلى أنْ يأخُذَ السِّلاَحَ ويركَبَ. فقال له: لا حاجَةَ لي في الركوب بعد الأمان! فتركه [ق١٤١أ] وانصرف(١).

قال بعضهم: هذا مثل ما ذُكِرَ من خَبَرَ الحارث بن عُبَاد! قالوا: وكيف كان أمْرُهُ؟ قال: ذُكِرَ أَنَّ الحارِثَ بن عباد نظر إلى فارس يَفْري الصفوفَ في حَرْبِ البَسوس فَرْياً شديداً فشدَّ عليه فأسرهُ وهو لا يَعْرِفُهُ، فقال له: مُنَّ عليَّ وأنا أَدُلُّكِ على مُهَلهِلٍ، فقال له: إنْ دَلَلْتَني على مُهَلْهِلْ فَلَكَ الأمان! فأعْطَاهُ الأمانَ حتى توثَّقَ. فلمَّا وَثِقَ بإعْطَائِهِ قال: أنا مهلهل! فَخَلاَّهُ الحارث وانصرف(٢).

قال بعضُهم: لا تتكلَّف بإطالة الأحاديث فكُلُّ مَنْ أَرَادَ حِيْلَةً لو لم يُظْهِرْ خِلاف ما في نفسهِ لَعُلِمَ مقصِدُهُ فلم تنجَحْ حِيْلتُهُ. قال الأول منهم: لم أَقُلْ لكم أَخْفُوا مقاصِدَكُمْ وحِيَلَكُم فإنَّ هذا مما لا تحتاجونَ فيه إلى وصيةٍ، وإنما قُلْتُ لكم: لا تُظْهِرُوا أن بودّكم سوءًا أبداً ينالُهُ، وأظْهِرُوا أنكم

---

(١) عن شبيب الخارجي (٧٩هـ)، قارن: الطبري ٢/ ٨٨٢ وما بعدها. والقصة في المحاسن والمساوئ للبيهقي ص ٤٧، والمحاسن والأضداد ص ١٣٠، والبصائر والذخائر ٢/ ٥٤٩- ٥٥٠، وعيون الأخبار ١/ ١٩٥.

(٢) قارن بالقصة في شرح الحماسة (نشرة فرايتاغ) ١-٢٤٨، ٢٥١، والأغاني ٥/ ٤٨- ٥٠، والعقد الفريد ٦/ ٦٦، وجمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٣٣، والمحبّر لابن حبيب ص ٣٤٨، وخزانة الأدب ١/ ٤٧١.

تَسْعَونَ في خَلاَصِهِ وتُريدونَ الحِيْلَةَ لتكونَ شهادتكُمْ عليه أَعْدَلَ والتُّهْمَةُ عنكم في أَمْرِهِ أبعد.

ثم إنهمْ اجتمعوا عند الملكِ بعد ذلك وهو لا يعلم ما في ضميرهم فقال أحدُهُم: إنَّ الغَوَّاص له عليكَ حقُّ خِدْمَةٍ وحُرْمةٍ، وقد كان عندكَ موثوقاً [ق٤١ب] به لم يَقْدَحْ قطُّ في مُلْكِكَ ولا رأيتُهُ أَفشى شيئاً مِن سِرِّكَ. وقد رأت جميع عَبيد الملك ما كان منه إليه وفَسَدَتْ نياتُهُم. وهو منْ أهل الدين والتُّقى وليس يَصْحَبُ غيرَكَ فتخشى منه مقاماً تَكْرهُهُ. وإنما صَحِبَكَ لمّا أَكْرَهْتَهُ على ذلك وإلّا فهو مُؤْثِرٌ للعِبادة. وقد حَصَلَ له مالٌ جمٌّ في خدمتِكَ وأيامِكَ، فلو أَخَذْتَهُ منه وتركتَهُ يسيحُ في الجبال ويعبُدُ ربَّهُ لكان ذلك من حقِّ خِدْمتِهِ لَكَ!. فلمَّا سَمِعَ الملكُ ذِكْرَ "مالٍ جَمٍّ" ازداد تعجُّبُهُ وأَراد أَنْ يكشف ذلك.

وقال واحدٌ من أصحاب أعداء الغَوَّاص - وهو مُظْهِرٌ للإزْراءِ على صاحبه-: وهل الغَوَّاصُ ممن يَدَّخِرُ المالَ ويكتسِبُهُ؟ وإنما هو رَجُلٌ ناسِكٌ زاهِدٌ طالبُ عِلْم ودينٍ. ولئن كان عندهُ مالٌ فما هو إلّا من ارتفاقٍ في جنايةٍ أو رشوةٍ على مكيدةٍ وإلّا فما هو مِنْ ذوِي الأعمال التي تُكْتَسَبُ من مثلِها الأمْوالُ. وكانوا قد دَسُّوا مالاً إلى بعض التُّجّار وكتبوا عليه

اسمَ الغَوَّاصِ وضمِنُوا للتاجِر مالاً، وقالوا: إنْ سألَكَ المَلِكُ هل عندكَ مالٌ للغَوَّاص فأنْكِرْ ولا تُقِرّ إلّا بعد ضَرْبٍ ينالُكَ!

قال أَحَدُهُم: أنا أمضي إلى الغَوَّاص أيها الملكُ وأَنْصَحُهُ وأحلفُهُ بالله وبدينه وبرأس الملك أن يخرُجَ عن جميع ما يَمْلِكُهُ، وأُعْلِمُهُ أَنَّ في ذلك استسلالَ ما خامَرَ قلبَ المَلِكِ فإنَّ محبتَهُ لِرِضاهُ وإشْفَاقَهُ من الحِنْثِ في اليمين لشدةِ تَحَرُّجِهِ [ق٤٢أ] يَحْمِلاَنِهِ على بَذل جميعِ ما عنده لأنه شديدُ التحرُّج والديانة[١]. فلمَّا سَمِعَ المَلِكُ ذِكرَ المال وما قَدَّموا من المُقدَّماتِ أَحَبَّ أن يَكشِفَ ذلك فَسَكَتَ سُكُوتَ الراضي بما قالوا.

وقال (المتنصح): لِيُنفِذِ المَلِكُ معي مَن يَثِقُ به لِيَحضُرَ ما يجري بيني وبينه، وأراد أن يكونَ شاهداً عليه في اليمينِ، وأنفذَ معه مَنْ يثِقُ به ومَضَوا إلى الغَوَّاص، فقال له الذي كان يُضْمِرُ عداوتَهُ، إنَّ المَلِكَ وُصِفَ له عندَكَ مالٌ كثيرٌ هو (لك) أَوْغَرَ نَفْسَهُ عليك. ولا خَلاَصَ لكَ من يدِهِ إلّا بالخُرُوجِ له منه، وإنما تَصُوْنُ دَمَكَ بِبَذلِ مالِكَ وتُكْرِمُ نفسَكَ بإهانتِهِ، فإنَّ المالَ إنما يُرادُ لصيانةِ النفس، وليست النفسُ تُرادُ لصيانةِ المال، فابْذُلْ مالَكَ تَصُنْ نَفْسَكَ! وأَكْرِمْ نفسَكَ التي يَكْرُمُ

(١) قارن بكليلة ودمنة ص ٥٥ وما بعدها حيث يمضي دمنة إلى الثور شنزبة.

المالُ من أَجلِهَا. وٱعلم أَنَّ جميعَ ما يُعْنَى به المرءُ في هذه الدنيا ثلاثة: النفس والجسم والمال. وإنما يُرادُ المالُ لِصَلاَحِ الجسم، والجِسْمُ لِصَلاَحِ النفس. والحازمُ المُوَفَّقُ العَالِمُ مَنْ بَذَلَ الأَنْقَصَ في صَلاَحِ الأَفْضَل، واستعملَ الشيءَ فيما يُرادُ لأَجْلِهِ فجعل مَالَهُ خادِماً لجسمه، وجسمَهُ خادماً لنفسه. والعاجزُ العادمُ التوفيقَ مَن بَذَلَ نفسَهُ في صَلاَحَ جِسمِهِ وجِسْمَهُ [ق٤٢ب] في صلاحِ ماله. وإنما الجسمُ ثوبٌ تنزعُهُ والحُطَامُ شيءٌ يَدَعُكَ أو تَدَعُه!

فقال الغَوَّاص في نفسِه: يا لها من نصيحةٍ لو خَلَصَتْ من شوائِبِهَا، ويا لها من مَوْعِظَةٍ لو كان باطِنُهَا مثل ظاهِرِهَا. ولكنها غِشٌّ في نُصْحٍ كالسُّمّ الذي يُجْعَلُ في الشيء الحُلْوِ فإنَّ النفسَ له أَقْبَلُ وهي من النجاةِ مِنهُ أَبْعَدُ لِقَبولِهِ في الطبع وقِلَّةِ بشاعتِهِ في النفس فيكون أشدّ تَغَلْغُلاً في الجسم، وإني لأرى في ظاهِرِكَ ناصِحاً وأَظُنُّكَ في باطِنِكَ ذابِحاً.

ثم إنه (أحلَفَ) الغَوَّاص أن يكونَ في ملكِهِ شيءٌ منه إلّا ظاهره الحقير فقال: إذا كان كذلك فاحْلِف بالله وبدِينِكَ وبرأسِ المَلِكِ أنك لا تَمْلِكُ شيئاً منه فلعلَّ معرفَتَهُ لَتِحرُّجِكَ تعتذرُ عندهُ لك. فاستَحْلَفَهُ بكل يمينٍ مُحْرِجةٍ من الحِنْثِ فيها من كل دين، وشَهدَ عليه بذلك الأمينُ، وجاءوا إلى المَلِكِ

فأخْبَرُوهُ بذلك ثم مَضَوا وبعثوا مَنْ ينصَحُ إلى المَلِكِ أنَّ للغَوَّاصِ مالاً عند فُلاَن التاجر، فأنفذ الأسَدُ إليه فَقَبَضَ عَليه وقَرَّرَهُ فأنكر وضرَبَهُ فأَقَرَّ، فأَنفذ معه مَنْ أَحْضَرَ المالَ- وكان مَدْفوناً في دُكَّانِهِ وعليه اسمُ الغَوَّاص مكتوب- فوردَ على الملكِ ما أَذْهَلَهُ وغَلَبَ على عَقْلِهِ، فقال له بعضُ أعداء الغَوَّاص: أيها الملك! إنما كان يظهر من الغَوَّاصِ زُهْدٌ في المالِ وَوَرَعٌ في الدين، وقد حنثَ في اليمين وثَبَتَ شَرَهُهُ في المالِ ويُوشِك أن يكونَ ما كانَ يُظْهِرُهُ مكيدةٌ مُضِرَّةٌ اختزالُ المال في جَنْبِهَا يسيرٌ. ومع ذلك فقد [ق٤٢أ] اجترأ على اليمين برأس المَلِكِ كاذباً!

فقال آخرُ منهم: أيها الملك! لولا أنَّ الحكماءَ قد قالوا، المعصيةُ إذا خَفِيَت لم تَضرّ إلّا صاحبَها وإذا أُعْلِنَتْ ولم تُغَيَّر ضَرَّتِ الكَّافَةَ لَكَانَ في فَضْلِ المَلِكِ ما يُوجِبُ العَفْوَ عَنْهُ. قال آخر: كان الغَوَّاصُ مع متسمِّحٍ عليه مسترسِلٍ إليه مُسْتَغْنٍ به وقد قيل: أقبحُ ما شَرِقَتْ عليه النفوسُ غِشُّ المُسْتَرْسِلِ واستغنامُ المتسمِّح وأَخْذُ ما لا يُحْتَاجُ إليه. وما دُهِيَ الملكُ إلّا مِنْ ثقتِهِ به، وقد قَالَ بَعضُ الحُكَمَاءَ: أَخْطَرُ الأشياءِ بالمرءِ غلطةٌ في الثقة!

فبقي الملك في أمر قد ذُهل منه حتى امتنع من الأكل

والنوم، وكانت معه نفسٌ صابرةٌ تمنعه المُعاجلة إلا بعد الإحاطة بالأمر من جميع وجوهِهِ. فتَرَكَ نَفْسَهُ حتى ذهبتْ عنه سَوْرةُ الغضب وحيرةُ البديهة غير أنه قد كان وَكْدُهُ الفكر في ذلك الأَمْر حتى امتنع عليه كثيرٌ من الأكْل والشُرْب والنوم. فبينا هو ليلة من الليالي مفكرٌ في أَمْرِهِ إذْ رأى مِنْ رأْيِهِ في كَشْفِ أَمْرِهِ أَنَّ رجلاً من أصحابِهِ كان يَثِقُ منه بِصِدْقِ اللهجةِ والأَمانةِ وذَكَاءِ النفس والديانةِ فأمر أن يحضر بحضرتِهِ. فلمَّا حَضَرَ انتهره وأَغْلَظَ في القَوْلِ له وأَمَرَ بِحَبسِهِ من غير أنْ يُعْلِمَهُ ما السببُ في فِعْلِ ذلك به ولا أَعْلَمَ [ق٤٣ب] أحداً مِنْ خاصَّتِهِ. فلمَّا جَمَعَهُ الحبسُ والغَوَّاصَ سأَلَهُ الغَوَّاصُ عن أَمرِهِ وشأْنِهِ فَذَكَر أنه لا يعلمُ شيئاً في حَبسِهِ ولا جُرماً يُتَعَلَّقُ به عليه. فَقَاسَ أَمْرَهُ بنفسه وشَبَّهَهُ به وأَخفى التعجُّبَ في قلبه. فلما استَقَرَّا في الحبس أَنْفَذَ إلى آخَرَ يَجري عنده مَجْرَى الأول في الصدق والأمانة فَفَعَل بِهِ مثل ذلك الفِعْل وأَمَرَ بِحَبْسِهِ. فلمّا دَخَلَ الحَبْسَ سأَلاَهُ عن حاله فَذَكَرَ أنه لا يَعْرِفُ لنفسه ذَنْباً ولا يعرفُ لها جُرْماً. ثم إنَّ كُلَّ واحدٍ منهم أقبل يُخْرِجُ لصاحِبِهِ ما في نفسه ويشكو إليه ما في قلبه. وقالوا: لعلّ المَلِكَ خُولِطَ في رأْيِهِ وَتَغَيَّرَ طَبْعُهُ. وكان فيما قال الغَوَّاص: قُبْحاً للدنيا الغَرَّارَةِ ما أَعجبَ أَمْرَها، يأْتي فيها

الخوفُ من جهةِ الأَمْنِ[1]، وَيَرِدُ العَطَبُ مِنْ طُرُق السلامةِ فإنَّ المرءَ يأْكُلُ الغِذاءَ ويشربُ الماءَ والذي يتَغَذَّى بهما جِسْمُهُ وينمى عليهما دَمُهُ وتَقُومُ بهما حياتُهُ وتنشأُ بهما طبائعهُ التي بهما تبقى نفسُهُ وبهيجَانِ بعضِهَا يكونُ مَمَاتُهُ. فهي أمْضَى فيه من السيف القاطع والسُّمِّ القاتل، فغذاؤُهُ الذي هو سببُ حياتِهِ هو السببُ في مماتِهِ فكيف يرجو المرءُ سلامةً في دارٍ يأْكُلُهُ الموتُ فيها ويشربُهُ [ق٤٤أ] وربما يَشْرَقُ بالماء الذي يحيا بِهِ فيقتله ويحيا بالسُّمِّ الذي به مَمَاتُهُ.

ثم أخذ في الفكر في أَمْرِهِ فقَال: لعله أراد مني زيادةً في ابتذال نفسي بين يديه وقد قال بعض الحكماء: أسْرَعُ الناس إلى ابتذال نفسه للملوك وأصبرهم على (تحكُّمهم) أسرعُهم إلى ذَمّهِمْ عند تَغَيُّر سُلْطَانِهِمْ. ولعله أرادَ مِنِي أنْ أُواصِلَ إطْراءَهُ وأُكْثِرَ منه وقد قال بعضُ الحكماء: أَضَرُّ مَنْ عاشَرْتَهُ مُطْريكَ إذا ظَفِرَ بِكَ. وقالوا: لا تمدَحْ عاقلاً بما ليس فيه فيكون ما زدْتَهُ عما يَعلَمُهُ من نفسهِ نَقصاً لَكَ عنده، ومَن مدحك بما ليس فيكَ عند رِضاهُ ذَمَّك بما ليسَ فيكَ عند

(١) في قوانين الوزارة ص ١٥٨ عن سليمان النبي: "إذا صَحّت العافية نزل البلاء، وإذا تمّت السلامة ظهر العطب، وإذا تمّ الأمن علا الخوف". وقارن بسراج الملوك ص ٣٥٦.

سَخَطه[١]. وقالوا: الفاضلُ مَنْ كان الفضلُ ذريعةً له، والناقص مَنْ كان التَّملُّقُ أوكدَ الأسباب عنده. ولعله أرادَ مني مُوافَقَتَهُ في كل ما يقولُهُ ومُتَابَعَتَهُ في هواه وقد قالت الحكماء: إخدم الجاهلَ من الرؤساءِ باتّباعِ رِضاهُ والعاقلَ بإحْرازِ الحُجَّةِ عليه[٢]. وقالوا أيضاً: إذا خَدَمتَ رئيساً فلا [ق٤٤ب] يتبَيَّنْ منكَ مُساواتَهُ والزيادةَ عليه إلّا في الدِّينِ والصَبْرِ والرأْي، وخَلِّ له ما سِوى ذلك من لبسٍ وهيئةٍ وتَرَفُّهٍ. واحْذَرْ من أنْ تُرى مُساوياً له فيها. وما أنا ممن يُفاخِرُ بملبسٍ ولا يشتهرُ بمأكلٍ ومشربٍ ولا يستأْثِرُ بنعمةٍ. وقد كُنْتُ أَجْتهدُ له رأْيي ما استَطَعْتُ وأَمْحَضُهُ النصيحةَ ما تَمَكَّنْتُ.

فهو في مخاطَبتِهِ بذلك لنفسه إذ أقْبَلَ إليه صديقُهُ الذي كان يُشَاوِرُهُ في أَمْرِهِ فَقَال له: (أتيتُ إليك) فقد سأَلني لَكَ صِدْقُ ظَنِّي فيكَ ولكنَّ الله عَزَّ وجلَّ قد يبعثُ المكارهَ فيجعلها سبباً للمحابّ. فكم مِنْ محنةٍ في جنبِهَا مِنَّةٌ، وكم مِنْ نقمةٍ في ضمنِهَا نعمةٌ. وربما كان العطاءُ إمْلاءً والإحْسَانُ ابتلاءً والنعمةُ

(١) ينسب صاحب عيون الأخبار ١/ ٢٨ القول إلى وهب بن منبه. ويورده ابن المعتز في آدابه ص ٢٤، وهو منسوب لأفلاطون في الكلم الروحانية، ص١٢، ومختار الحكم ص١٦٢. وهو بغير نسبة في قوانين الوزارة للماوردي ٢٣٠، والبصائر والذخائر ٧/ ٧٣.

(٢) القول في كتاب الآداب لابن شمس الخلافة ص٣٠ منسوباً لأفلاطون.

اختباراً والمحنَةُ تأْديباً وإذْكاراً. فاشكر الله على بلائِهِ كما تَشكُرُهُ على نَعْمَائه فَرُبّ مُغْتَبِطٍ بأَمْرٍ هو داؤُهُ، ومرحوم في أمْرٍ فيهِ شِفَاؤُهُ. وقد قالت الحُكَمَاء: المِحَنُ تُصْلِحُ من الأنْفُس بمقدار ما تُفْسِدُ من العيش، والنِعَمُ تُصْلِحُ من العَيْشِ بمقدارِ ما تُفْسِدُ من الأَنْفُس. فارْدُدْ إلى ربِّكَ ما فَضَل من قُوَّتِكَ، واَعْلَمْ أنَّ الله يحفَظُ مَنْ تَوَكَّلَ عليه من جِهَاتٍ لا يَهْتَدي خاطِرُهُ إليها وَلا يُعَوِّلُ فِكْرُهُ عليها. ثم بقي ساعةً [ق٤٥أ] مُطْرِقاً إلى الأرض ذاهباً في الفكر. فقال له الغَوَّاص: مَا لَكَ لا تسأَلُني عن أمْرِي في جَزَعي وصَبْري؟

قال: إنَّكَ من المُخَالطةِ لي كنفْسي فإذا سأل عنكَ قلبي استغنى عن سؤال غيري، ولكنْ صِفْ (لي) من الأُمورِ التي طرأت عليكَ ما لَعَلَّهُ يُخبِرُني عنكَ.

[١٦] باب حاجة أصحاب المَلِك إلى بعض المُقاربةِ واللطف في إيراد النصيحة

قال: ما أَرى لي ذنباً إليه ولقد كُنْتُ أَمحضُهُ النصيحةَ وأَصْدُقُهُ في الأمرِ!

قال له صديقه: فأظنّ هذا النّصْحَ الذي قُمتَ به هو ذَنبُكَ الذي يؤاخذُكَ به، وأَحْسَب أمرَكَ كأمْرِ امرأةٍ طَلَّقَهَا زوجُهَا. قال: وكيف كان ذلك؟. قال: ذكروا أنَّ امرأةً طلقها زوجُهَا

فقالت: تطلِّقُني بعد طُول الصُّحبة؟ فَقَالَ: والله ما ذنبُكِ غيرها[١]! وأنا أظُنُّ أَنَّ ذنبَكَ إليه ثقلُ نصيحتكَ عليه، وأحسبُهُ كما قال الشاعر:

صيَّـرْتُ(*) حُبَّـكَ شافعـي فـأُتيتُ مِنْ قِبَـلِ الشـفيـعْ

قال له الغَوَّاص: يا أخي! ما أسعد جَدّي إن كانت النصيحةُ ذنبي(**)! وأَقَلَّ وَجْدي إذا كان الصِدْقُ والوفاءُ جُرمي! قال له صديقهُ: حَقّاً [ق٤٥ب] لا يَصْلُحُ لِصُحْبَةِ الدنيا إلّا أهل الدنيا ولا يليقُ بصحبة الأشرار إلّا الأشرار، كما قال ثعلبٌ مَرَّةً.

قال له الغَوَّاصُ: وما الذي قال؟

قال له صديقهُ: ذُكِرَ أنَّ أفعى كانت قائمةً على جرزة شَوْك فاحْتملَهَا السَّيْلُ فرآها ثعلبٌ فقال: لا يَصْلُحُ لهذه السفينة إلّا هذا الملاَّح[٢]. وقد قالت الحكماء: ما أقلَّ طَمَعَ صاحب السلطان في السلامة، وذلك أنه إنْ عَفَّ جَنَى عليه العَفَافُ

(*) الأصل: سيرت.

(**) الأصل: ديني.

(١) في البيان والتبيين ٣/ ١٥٠: "وطلق أبو الخندق امرأته أمّ الخندق فقالت: أتطلقني بعد طول الصحبة؟ فقال: ما دهاكِ عندي غيره!".

(٢) في صوان الحكمة المنسوب لأبي سليمان المنطقي ص ١٨١ نسبة القصة والمثل إلى إيسخيلوس.

عداوةَ الخاصَّةِ وإنْ بَسَطَ يَدَهُ جنى عليه البَسْطُ أَلْسِنَةَ المُتَنَصِّحِينَ(١). وما أَشْبَهَ صاحبَ السلطان بِسَهْمِ الرامي الذي أشدّ ما يكون له تقريباً أشدّ ما يكونُ له إبعاداً. وقد ينبغي لِمَنْ خَدَمَ السُّلْطَانَ أَنْ يُقَارِبَهُ في الأَمْر (وأن يخلط المصانعة) بمرارةِ النُّصْحِ. وقد قالت الحكماء: لا تحمّل الناسَ فوق وسعِهِم فتثقُلَ نصيحتُكَ عليهم فإنّ المتطبِّبَ الحاذقَ إنما يأمُرُ من الدواء بحسب ما يحتملُ الجِسْمُ والناسُ يحتاجونَ إلى المُقاربةِ وأَنْ يكونَ المرءُ معهم بحيثُ هم، ولا يُبْدِي لهم فضيلةً عليهم فيكون فضلُهُ عليهم سبباً لِنَقْصِهِ عندهم. كما ذُكِرَ عن مَلِكٍ مرةً.

قال: وكيف كان أَمْرُهُ؟

قال؛ [ق٤٥ب] ذُكِرَ أَنَّ مَلِكاً من المُلُوكِ قال له مُنَجِّمُوهُ: إنَّا نَجِدُ في عِلْمِنَا أنه مَنْ شَرِبَ من ماء هذه السنةِ المُقْبِلَةِ تَغَيَّرَ عَقْلُهُ وخُولِطَ، فإنْ رأى الملكُ أنْ يأمُرَ بادّخارِ الماءِ لنفسهِ وخاصَّتِهِ فليفعَلْ ولا يشربوا من ماء هذه السنةِ المقبلةِ. فأَمَرَ بالمَصَانِعِ فاتُّخِذَتْ وادّخَرَ فيها من الماء ما يكفيهِ. فلما جاء

---

(١) قارن بالقول مع اختلافات طفيفة في كليلة ودمنة (شيخو/ ١٩٢٣) ص٢١٩-٢٢٠، والبصائر والذخائر ٢/ ١٨٨، وقوانين الوزارة وسياسة الملك ص١٧٥، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (دار الفكر/ ١٩٥٦) ٤/ ٢٩٦.

المطرُ وشرب الملكُ من الماء الأول هو وخاصَّتُهُ لم يُصِبْهُمْ ما أصابَ العوامّ. فلما رأتْهُمُ العامةُ على خِلاَفِ حالهم قال بعضُهُمْ لبعض: إنَّ مَلِكَنَا وأصحابَهُ قد خُولِطُوا وَتَغَيَّرَتْ عقولُهُمْ وما الرأيُ إلّا خَلْعه والاستبدال به ملكاً منا عاقلاً مثلَنَا! ثم إنهم أَتَوْهُ فقالوا: إنا نُريدُ خَلْعَكَ والاستبْدالَ بكَ لأنه قد تغيَّرَ علينا أمْرُكَ وَفَسَدَ تدبيرُكَ. فعرف قصَّتَهُ، فقال لهم: يا قوم! إني قد عرفْتُ ذنبي وأنا أُعْتِبُكُمْ منه وقد صبرْتُمْ على ما كَرِهْتُمْ مني مدّةً فأَمْهِلُوني أياماً يسيرةً مع ما مضى فإن رأيتمُوني على ما يُرضيكُم وإلّا فما تُريدونَهُ بين أيديكم! فأجابُوهُ إلى ذلك. فلم يلبثْ أَنْ شرِبَ من مائهم فصار مثلَهم! فقالوا: ما أحسنَ ما رجع الملكُ إلى الأحسن به! وما أسرعَ ما أعْتَبَنا من نفسه! وجاءوهُ فأطنبوا في تقريظه وشكره[1]! وإنما حَدَّثْتُك [ق٤٦ب] بهذا الحديثِ لِتَعْلَمَ أنَّ الناسَ يحتاجونَ أنْ يُساسُوا بما تحتملُهُ عقولُهُم ويكون المرءُ معهم بحيث هم، فإنَّ الخَيْلَ تستجيبُ إلى الشربِ بالصفير أكثر مما تستجيبُ إليه بالكلامِ البليغ واللفظ الجميل. والمرءُ إذا أراد أن يُخَاطِبَ صبياً بما يقبَلُهُ ويُسَرُّ به تَصَابَى له في حديثه ومَخَارِجِ أَلْفَاظِهِ وقارنَهُ وتَشَبَّه به في كلامهِ فليس اطِّراحُهُ عند

---

(١) القصة بعينها في لطف التدبير ص ٢٢٥- ٢٢٦.

ذلك عَقْلَهُ ناقصاً فَضْلَهُ لأنَّ الشكلَ للشكلِ آلِفٌ والمِثْلَ للمِثْلِ قابل والضدّ عن الضدِّ نافر. ولا عيبَ على المرء في المُقَارَبَةِ، وما لا يُعْلَمُ ما غَرَضُهُ فيه من مَواضِعَ تَحْسُنُ فيها العاقبةُ وإنْ لم يعرِفْ ما مُرادُهُ منه، كما فعل بعض نساء البادية.

قال: وكيف كان أَمْرُها؟

قال: ذُكِرَ أَنَّ عجوزاً أعرابيةً كانت في بيتٍ لها منعزلٍ فَأَحَسَّتْ بلصٍّ معها في البيت فأقْبَلَتْ تلومُ نفسها وتُخَاطِبُ زوجَهَا وتقولُ - وترفَعُ صوتَهَا - يا نفسُ! لقد أسأْت الاختيار، ورضيتِ بالوحدة مع ما خَوَّلَكِ الله من المالِ والعبيدِ، ولو تَزَوَّجْتِ بغلامٍ شابٍ لكانَ في ذلك قُرّة عَيْنٍ وكُنْتِ تُرْزَقِينَ ثلاثةَ أولادٍ ذُكُورٍ فكنت تُسَمِّينَ أحدهم صخراً [ق٤٧أ] والآخر بكراً والآخر عمراً. وإذا نزلت بِكِ نازِلَةٌ أَو أَلَمَّت بِكِ مُلِمَّةٌ صِحتِ: يا صخر! يا بكر! يا عمرو! وَرَفَعَتْ بذلك صوتَهَا- وظَنَّهَا اللصُّ مُتغيِّرَةَ العقل-؛ وكان في جوارِها ثلاثةُ رجالٍ هذه أسماؤُهُم فأقبلوا إليها فقالت: دونكم اللِّصَّ! فتناولُوهُ بالخشب[1]. فليس هذا التَّغابي بغباء. وأظُنُّكَ كنتَ تستقبلُهُ بالإنكَارِ لبعضِ هواهُ. وإنما صادقَكَ بالرأي. والرأْيُ

(١) قارن بقصة مشابهة في نشوار المحاضرة ٢/ ٢٣٩ وما بعدها.

عدوُّ الهوى. وقد قالت الحكماء: إذا أَتَيْتَ ما يُوجِبُهُ الرأيُ فامزجْهُ بشيءٍ من الهوى فإنَّ الرأيَ وَحْدَهُ يَحشُّ عليكَ والهوى وحده مُضِرٌّ بِكَ. وقد قالوا أيضاً: مَنْ لم يُصانِعْ طبيعتَهُ ببعضِ الإغماضِ حال طَبْعُه بينه وبين استتمام ما شرع فيه من طاعةِ الرأْيِ، وكان شدةُ طلبِهِ للحق مقصّراً به عن الحقِّ. ألاَ ترى أَنَّ الطبيبَ الحاذقَ يمزُجُ مَرارةَ الدواء بشيءٍ من الحلاوةِ ليسوغ شربُهُ ولو مَحَضَ الدواءَ ولم يَسْتَعْمِلْ ما يسيغُهُ معه ويقبَلُهُ الطَبْعُ لأجله لم يقدِرْ على تَنَاوُلِهِ، ولو تناوَلَهُ لم يلبَثْ في معدتِهِ. أَوَ لَسْتَ تعلمُ أنَّ العالِمَ الحكيمَ لا بُدَّ له من مُقَارَبَةِ نفسه فالأولى أن يكونَ هكذا مع نفسه والأولى أن يكون هكذا مع غيره. وإذا كان المُلُوكُ يحتاجونَ [ق٤٧ب] إلى كثيرٍ من المُصانعة والتَألُّفِ لرعيتهمْ فالرعيَّةُ أولى بِمُصَانَعَةِ مُلُوكِهِمْ.

قال له الغَوَّاص[(١)]: يا أخي! إنَّ الشقيّ البَحْتَ مَنْ العلماء مَنْ سقطت فوائدُهُ في إنكارِ ما يظهرُ منه. وقد علمتُ أني ما استقبلْتُهُ بإنكار شيءٍ منه، وإنما كنتُ أضرب له الأمْثَالَ وأَذْكُرُ ما أُرِيدُ في ضِمْنِ الأَخْبَار وأَرْوي له أَقوالَ الحُكَمَاءِ. وما جهلْتُ أَنَّ بعضَ النَهْيِ إغْراءٌ لا سيما للملك القادر. ولقد

(١) قارن بكليلة ودمنة ص ٨٨ وما بعدها.

فكَّرْتُ في أَمْري فوجدْتُهُ لا يخلو من أحَدِ ثلاثةِ أقسامٍ: إما أَنْ يكونَ لأمْرٍ يرجِعُ إليَّ أو لأمْرٍ يرجعُ إليه أو لأَمْرٍ يرجِعُ إلى غيري وغيرِهِ. فأمَّا ما يَرْجِعُ إليّ فإني على ثقةٍ من نفسي فيه أني لم آتِ ما أسْتَحِقُّ له بعضَ ما كان منه. وأمّا ما يرجع إليه فإني على ثقةٍ منه ثقتي بنفسي فيه لأنه لا يفعلُ هذا بي من غير أن يقومَ في نفسِهِ استحقاقي له لأنَّ المرءَ يعرفُ صاحبَهُ، قالت الحكماء: إن سكت ليومه وإنْ نطق لوقته. وَلَمْ يَبقَ ما تُوجِبُهُ القسمَةُ إلّا أَنْ يكونَ الأَمْرُ يَرْجعُ إلى غيرِنا معاً وغيرُنا لا يقدرُ أن ينقُلني عن نصيحتي ولا يقدرُ أن يَنْقُلَهُ عن كَرَمِ طَبْعِهِ، ولكنه يقدرُ أن يُشَبِّهَ وَيَلْبسَ وَيَحْتَالَ ويُمَوِّهَ فيشبّهَ عليه فيّ ويُشَبّه عني فيه فإنه قد يُحتَالُ على المرء فيما لا صُنْعَ له فيه ولا قُدْرةَ له على الاحترازِ منه، كما فعل وزيرُ ملكٍ [٤٨أ] مرةً.

قال له صديقه: وكيف كان ذلك؟

قال: ذُكِرَ أَنّ ملِكاً كان له وزيرٌ قد خُصَّ به وكان له عدوٌّ من خاصَّةِ المَلِكِ فأرادَ الاحتيالَ عليه فقَصَدَ بالإِحْسَان بعضَ فَرَّاشي المَلِكِ من غيرِ أَنْ يسألَهُ حاجةً ولا يذكُر له غَرَضَهُ. حتى إذا أَحسَّ أَنه قد أحْشَمَهُ وعلم أنه يتمنَّى قَضَاءَ حاجةٍ قال له: لي إليك حاجةٌ يسيرةٌ لا مَشَقَّةَ فيها عليكَ وهو أَنَ تُعَرِّفَني

ما يجري بين الملك وبين وزيره يوماً يوماً. فكان ذلك الفرَّاش ينقل إليه جميع ما يجري بينهما. فخبَّره في بعض الأيام أنَّ المَلِكَ أُتيَ بِنَدَّةٍ وأنه قسمها بينه وبين وزيره فتبخَّر بِنِصْفِهَا وبَخَّر الوزيرَ بالنصف. فدَخَلَ ذلك الرجل على الملك- وكان مقبولَ القول عنده قد خدعه بالأمانة جُهْدَهُ- فقال له: أيها الملك! إنَّ وزيرَكَ اجتمع اليومَ مع أصحابِهِ فقال: ألاَ تَرَوْنَ إلى شُحِّ المَلِكَ ودناءَةِ نفسِهِ وضِيْقِ هِمَّتِهِ، لم تِطبْ نفسُهُ بأَنْ يُبَخِّرَني بندَّةٍ كاملة حتى تَبَخَّرَ بنصف ندّةٍ وبَخَّرَني بباقيها، فجاء الملك بعَلاَمَةٍ يعرفها. فلما حضَر الوزيرُ قال له: يا ويلك! إني لم أدفع إليكَ بنصف الندَّة شُحَّاً مني ولكني ساويتُكَ بنفسي وجَعَلْتُكَ نظيري. وقد كان فيما أنعمْتُ عليكَ به من الضِياعِ والأَمْوَالِ معتَبَرٌ إلى أني لا أَشُحُّ بهذا المقدار. وأمر به أن يُنَكَّس مُعَلَّقاً (على المجمر) [ق٤٨ب]، ولم يَزَلْ شجرُ النَّدِّ والعنبر تحته حتى خَنَقَهُ الدخان فمات[١]. فهذا ما أَشبَهَهُ مما لا يمكنُ المرء الاحتراس منه إلّا بَلُطْفِ الله الذي لا غَنَاءَ عنه.

---

(١) مصدر القصة كتاب بغداد لابن أبي طيفور ١٣١- ١٣٣. وترد أيضاً في الأوراق للصولي ص ٢٣٥- ٢٣٦، والهفوات النادرة للتنوخي ص ٢٥٣- ٢٥٤، وغرر الخصائص ص ٦٩، والفخري ص ٢٠٦- ٢٠٧، وتذكر هذه المصادر أن الواقعة جرت للوزير أحمد بن يوسف مع المأمون.

قال له صديقُهُ: إنَّ الحكماء قد قالوا إنَّ الملكَ كالبحر وأَصْحَابه كالرياحُ تُصَرِّفُهُ كيف تَصَرَّفَتْ فإنْ هاجَتْ هاجَ وإنْ سَكَنَتْ سَكَنَ أو كالبَدَنَ الصحيح إذا كُثرَتْ عليه الأغْذيةُ الرديئةُ فإنها لا تلبثُ أن تُحيلَهُ من الصحةِ إلى السقم. وقد قال بعض الحكماء: استعمِل في فَرْطِ النصيحة ما تستعملُهُ الخَوَنَةُ من حُسْنِ المُدَاراة. مع أنَّ الكلامَ في الفائِتِ غير نافع. وأَنا أُوصيكَ بِخُلّةٍ: أَحْسِنْ ظَنَّكَ بالله فإن الحَسَنَ الظَنّ بالله المُتوكّل عليه محفوظٌ من جهاتٍ لا يَهْتَدي إليها فكرُهُ ويُعَوّلُ خاطِرُهُ عليها. واعلم أَنَّ الله عزَّ وجلَّ لم ينقُصْ حيواناً من جهةٍ حتى عوَّضَهُ من جهةٍ أُخرى فإنَّ العصفور لمَّا مُنِعَ قوةَ الدفْع أُعطِيَ قوةَ الهَرَب، فهو ينجو بخفته كما ينجو الأسدُ بِشِدَّتِهِ وشجاعتِهِ، وترى البَقَّ بصولتِهِ يمتنعُ على الفيل في عَظَمَتِهِ وشدَّتِهِ، والنملة لمَّا مُنِعَت التصرف في البرد جُعِلَ في طبعِهَا الاحتكار والادّخار، فتنال النملةُ باحتكارها كما تنالُ الطيرُ المُكْتَسِبَة باكتِسَابها، والحيوان الذي هو في حال (الصِغَر) لمَّا أعجزه (ذلك) عن الاكتساب جُعل له من أبويه ما يقومُ له مقام القدرة [ق٤٩أ] على الاكتساب. وَتَيَقَّنْ أنَّ الذي كَمَّلَ هذا النقص المُرَكَّبَ في الخلقةِ هو قادرٌ على دَفْع المضارّ المُعْترِضةِ بأَلْطافِ من التوفيق مسبَّبةٍ، فارددْ إلى الله ما فضل عن قُدْرَتِكَ واستطاعتِكَ، فإنَّ مَنْ رَكَّبَ في كل حيوانٍ

ما تدعُوهُ إليه الحاجَةُ هو كافيهِ ما خرج عن الطاقة. وتأمَّلْ جميعَ الحيواناتِ تجدْهُ قد جعل فيه المقدار الذي يحتاجُ إليه مرْكُوزاً في خِلْقَتِهِ ومجبولاً في جِبِلَّتِهِ، فإنه لمَّا مَنَعَ البهائمَ ما أَقْدَرَ الناسَ عليه من اللباس الذي يقي من الحَرِّ والبَرْد جَعَلَ من الوبر والصوفِ ما يقومُ لها مَقامَ اللبس، ولمّا أَعْدَمَ الحيوانَ التمييزَ والرويةَ الذي يَعْلَمُ به النَفْعَ ويَسْتَدْفِعُ به كثيراً من الضَرَر جعل في كل حيوانٍ ما تدعوهُ إليه حاجتُهُ مما لو اجتهد فيه المرءُ بلطْفِهِ وعقله لم يقدر على مثله وكل أمور العالم هكذا ولكنْ منه جليّ وخفيّ. ولم يمنع الله شيئاً من الحيوان من الأمور إلّا وقد أعطَاهُ ما ينوبُ عنه. وأعلم أنّ الذي جعل ذلك في أصْل الخَلْقِ قادرٌ على مثله في تَصَرُّفِ العَيْش.

ثم تَعَانَقَا ودَّع كُلُّ واحدٍ منهما الآخر [ق٤٩ب]. وانصرف.

وكان قد جاءهُ مع صديقه صديقٌ له آخر كان ناقصَ النحيزةِ مدخولَ السريرة، قد جعلَ التأْنيبَ حَظَّهُ من المَعُونةِ والتقريعَ نصيبَهُ من المنفعة، يُكْثِرُ الإزْراءَ ويُقِلُّ الغَنَاءَ يقال له اللوّام. وكان قد جاء إليه فقال له إنَّ صُحْبَةَ السلطان كما قيل في خَبَر جَمَل بَدَوِيٍّ مَرَّةً، قال: وكيف كان أمْرُهُ؟

قال: ذُكِرَ أنَّ أعْرابياً كره جَمَلَهُ وغضبَ وحَلَفَ أنه يبيعُهُ بدرهم. فلمَّا صحا من سُكْرِهِ نَدِمَ فأَخَذَ سِنَّوْراً فربَطَهُ في عُنُقِهِ ومضى به إلى السوق ليبيعهُ، فقال له رَجُلٌ: بكم هذا الجَمَل؟ فقال: بدرهم! ولكني لا أبيعُهُ إلا لمن يشتري هذا السِنَّوْرَ معه. قال: وبكم هذا السِنَّوْر؟ فقال: بخمسمئة درهم! فقالَ: ما أرخَصَهَا من سلعة لولا هذه القلادةُ[1]! وكذلك خدمةُ السلطان ما أطْيَبَهَا لولا ما فيها من التَعَرُّضِ للتَلَفِ فحدِّثْني أَمْرَكَ لَعَلّي أقدر على نَفْعِكَ كما نفع ذلك الرجُلُ صديقَهُ لمّا صَدَقَهُ عن أَمْرِهِ.

قال: وكيف كان ذلك؟

قال: ذُكِرَ أنَّ رجلاً قد سأَل حاجباً لبعض الملوك إيصالَ رُقْعَةٍ له إلى الملك في حاجةٍ فأجابَه إلى ذلك. وكان في كُمِّهِ رُقْعَتَانِ إحْداهُمَا قد [ق٥٠أ] كَتَبَهَا في حاجتِهِ والأُخْرى قد كَتَبَهَا إلى صديقةٍ له يَصِفُ لها عِظَمَ وَجْدِهِ بها وَشَدَّةَ غرامِهِ بحبها وشوقه إليها ويسألَهَا في وَصْلِهَا. فأرادَ أن يُسَلِّمَ الرُقْعَةَ التي إلى المَلِكِ إلى الحاجب فَسَلَّمَ الرقعةَ التي إلى عشيقتِهِ من غير أنْ يفتحها. فلمَّا دخل الحاجبُ أحسَّ ذلك الرجل

(١) قارن بالقصة في الأذكياء لابن الجوزي ١٠٩، وأخبار الظراف له ١٥٠. وفي الهفوات النادرة للتنوخي ص ٥٥ أنها جرت مع كوفي.

بخَطائِهِ على نفسه وانتبه لشأْنِهِ فنظر الرقعةَ التي في كُمِّه فإذا التي كتبها إلى الملِكِ معه ولم يَجِد التي كَتَبَهَا إلى صديقتِهِ فأيقَنَ بالهَلاَكِ، فرأى صديقٌ له اضطرابَهُ فسألَهُ عن أمْرِهِ فصدقه عن حالِهِ فقال: إذهبْ فإني ألطفُ في خَلاَصِكَ. فلما دخل الحاجبُ بالرقعةِ إلى المَلِكِ ورآها استشاط غَضَباً وقال: عليّ بصاحِبِهَا! فخرج الحاجبُ يطلُبُهُ وسأل عنه صديقَهُ لما لم يَرَهُ فقال: جاءهُ الساعَةَ مَنْ عَرّفَهُ أنّ الرجلَ الذي كتب تلك الرقعَةَ إلى امرأتِهِ قد أحَسَّ بشكْواهُ وأنه قد عزَم على الهَرَبِ وقد مضى ليطْلُبَهُ قبل ذَهابِهِ، فقال: ويحك! وكيف هذا الحديث؟ فقالَ: إنَّ رجلاً أراد (إ)فسَادَ امرأتِهِ فكُل وقتٍ يجدُ رقاعَهُ إليها، فأخذ هذه الرقعةَ التي دفعَهَا إليكَ وقد أَشْرفَ على خَرابِ بيتِهِ ويُتْمِ أوْلاَدِهِ! فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون (.....) على نفس الرجل! فَدَخَلَ على المِلكِ فعَرَّفَهُ ذلك فقال: إذا وقع في يدِكَ [ق٥٠ب] هذا الرجُلُ المُفْسِدُ لامرأتِهِ فَطَهِّرِ الأرْضَ منه!. وإن كنتَ أخْطأتَ فلا عَجَبَ من ذلك، وقد قالت الحكماءُ: أيّ جوادٍ لا يكبو وأيّ صارِمٍ لا يَنْبُو[١]، ولكنّ الحازمَ إذا أَخْطأ استدرَكَ خطأَهُ كَمَا فَعَلَ عمرو بن العاص لمّا بَعَثَهُ عُمَرُ بن الخطّاب رضي الله عنه إلى

(١) ينسب ابن حمدون العبارة إلى علي (التذكرة ص٥).

مصر[١] نزل على غَزَّةَ يُحَاصِرُهَا فأَرسل إليه صاحِبُها: أَرْسِلْ إليّ رجلاً من أصحابِكَ أُكلِّمْهُ(*) بكلمةٍ. فنظر عمرو فقَال: ما أرى لهذا أحداً غيري. فخرج فدخل على مَلِكِهَا فكَلَّمَهُ كلاماً لم يَسْمَعْ بمثله، فَقَال: حدثْني هل في أصحابِكَ مثلك؟ قال: لا تُسْأَلْ مِنْ هواني عليهم! لو لَم يَكنْ من هواني عليهم إلّا أنهم بَعَثُوني إليكَ وعَرَّضُوني لِمَا عَرَّضُوني له لا يَدْرُونَ ما يُصْنَعُ بي!. فتناظَرا في شيءٍ مما هُم فيه فقال عمرو: حتى أخرج وأستشيرَ أَصْحَابي! فأَمر له بجائزةٍ وكسوةٍ، وبعث إلى الأبواب: إذا مَرَّ بكَ فاحدِرْ عليه حَجَراً فاقْتُلْهُ وخُذْ ما معه! فَخَرج من عنده ومَرَّ برجلٍ من نصاري العرب فعرفه فقال: يا عمرو! لقد أحسنْتَ الدخولَ فأحْسِنِ الخُروجَ! ففطِنَ له فعاد إلى المَلِكِ فقَال له: ما الذي ردَّكَ؟ قال: إني أردْتُ أن أُشاورَكَ في أنْ أجيئَكَ بعشرةٍ من أصحابي يسمعونَ منكَ كما سمعْتُ! فَقَال في نفسه: أَقْتُلُ عشرةً خَيْراً من واحد! فقال له: صَدَقْتَ فافْعَلْ! وبعث إلى البَوَّابِ [ق٥١أ] أنْ لا تَتَعَرَّضْ

(*) في الأصل: وكلمه.

(١) قارن بالقصة في لطف التدبير ص ٢٠٨ (وهي تجري مثلها هنا في غزة). بينا تجري في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣١٦ في الاسكندرية، وفي تاريخ الطبري ١/ ٢٣٩٩ أمام أجنادين. وانظر أخبار الأذكياء لابن الجوزي ٣٢-٣٣، والعقد الفريد ١/ ١٢٤.

له! فخرجَ عمرو وهو يتلفَّت وحلَفَ(*) أنْ لا يَغْتَرَّ بمثلها. فاسْتَدْرِكْ أمْرَكَ كما استدْرَكَ ذاك الرجُلُ الفَطِنُ أمْرَهُ عندما ظهر منه ما شَقَّ على امرأتِهِ.

قال له الغَوَّاص: وكيف كان ذلك؟

قال: ذُكِرَ أن رجلاً تزوج امرأةً فقالت: إنَّ بي تقزُّزاً وأخافُ أنْ أرى منكَ بعضَ ما أتَقَزَّزُ منه فتنصرِفَ عن محبتِك نفسي! فقال: أرجو أنْ لا يكونَ الذي تكرهين من ذلك. فمكَثَتْ معه أياماً. فقعَدَتْ ذات يومٍ تتغَذَّى معه فلمَّا رُفِعَتِ المائدةُ أخَذَ يتناولُ ما تحتها من اللُّباب وهو غافل، فقالت: ما كفاك ما فوق المائدةِ حتى تأْكُلَ ما تحتها؟! ففطِنَ لِخِطَابِهَا فقال لها: والله ما أكلْتُهُ جُوعاً ولكني سمعْتُ أنه يزيدُ في الجماع! فكانت بعد ذلك تتغَفَّلُهُ وتَفُتُّ له الخبز كما تَفُتُّ للفرُّوج(١).

وإنما حكيتُ لك هذه الحكاية لتعلم أنَّ الرجُلَ المُسَدَّدَ

(*) الأصل: اختار.

(١) القصة في البصائر والذخائر ٤/ ٢٥٠- ٢٥١، وقد ضبط المحقق هناك الكلمة الأخيرة هكذا: الفُروخ. وفي ثمرات الأوراق لابن حجّة الحموي ص ١٠ (ت. محمد أبو الفضل إبراهيم ١/ ١٩٧١) أن هُدبة بن خالد القيسي (٢٣٩هـ) علّل أمام المأمون (٢١٨هـ) إقدامه على تناول ما سقط تحت المائدة بحديث للرسول نصه: "من أكل ما تحت مائدةٍ أمن من الفقر".

يقدر أنْ يَتَلافى زلَّتَهُ عند أول ما تظهر له فيُخرجَ لها وجْهَاً ينتفعُ به فيها، ويصيرُ ما كان يخشى مضرَّتَهُ سبباً لمنفعتِهِ، وربما قُلِبَت الحيلةُ التي عليه فصارتْ حِيلةً له، كما ذُكِرَ عن عُمَر بن هُبيرة وكان قد أعْيَتْهُ الحِيَلُ في ترضية (هشام بن عبد الملك)، وإنَّ رجلاً من أصحاب هشامَ كان يسعى في فسادِ [ق٥١ب] حالِ عُمَرَ بن هُبيرة (عنده)، وكان هشامٌ مُعْجباً بالخيل فاتَّخذ ذلك الرجُلُ عدّةً من الخيل فَضَمَّرَهَا وأَمر مُجْرِيها أن يُعارضوا بها هشاماً إذا ركب وإنْ سَألَهم عنها قالوا إنها لابن هُبيرة، فركب هِشامٌ يوماً فعُورِضَ بالخيل فاستحْسَنَها وقال: لِمَنْ هذه؟ قالوا: لابن هُبيرة! فاستشاط غَضباً وقال: واعجباه! قد اختانَ من مالي ما اختان ثم يستأثرُ بالخيل الجِيادِ دوني! عَليَّ بعمر بن هُبيرة! فدُعي فجاء مُسْرِعاً فقالَ له هشام: ما هذه يا عُمر ولِمَنْ هي؟ ورأى الغضبَ في وجهه فَعَلم أنه قد كِيد فقَال: خَيْلٌ لكَ يا أميرَ المؤمنين! عَلِمْتُ عجَبَكَ بها فاخترْتُها من مَظَانِّها فَمُرْ بقبضِها! فكان ذلك سبباً لإقْبالِهِ عليه بعد سخطهِ عليه، ولم يتهيَّأْ لذلك الرجل أن يتكلم فانعكسَت الحيلةُ عليه حيلةً له[1]. وقد

---

(١) قارن بالقصة في سرح العيون لابن نباتة (ت. أبو الفضل إبراهيم/ ١٩٦٤) ص٢٩٤- ٢٩٥. وعدو ابن هبيرة في القصة هو خالد بن عبد الله القسري=

يتلطَّفَ الحازمُ في الخلاص من الحيلة كما تَلَطَّفَ بعضُ الوُزراء من حيلةٍ احتيل بها عليه.

قال: وكيف كان أمْرُهُ؟

قال: حُدِّثْتُ أنَّ مِلِكاً كان لَهُ وزيرٌ صالحٌ لا يأْمُرُ إلّا بالخير ولا يَحُضُّ إلّا عليه[١]، وكان الملك يُبْغِضُ النُّسَّاكَ وكان الوزير يُقْبِلُ (عليهم) [٢] فَحَسَدَهُ قرابةٌ للملك فأتَوا المَلِكَ فقالوا له [ق٥٢أ]: إنَّ هوى وزيرِكَ أن يُخْرِجَكَ من مُلْكِكَ فإن أردْتَ عِلْمَ ذلكَ فقُلْ له: إني قد عزمْتُ أن أخلع ملكي وأَلْحَقَ بالنُّسَّاك فإنك سترى من سُرورِهِ بذلك ما يَدُلُّكَ على نفسه! ففعلَ الملكُ ذلك فرأى ما قالوا. وفَطِنَ الوزيرُ بما وَرَدَ على نفس المَلِكِ من تَغَيُّرِ وجْهِهِ وحَرَكَاتِ طَرْفِهِ فانصرفَ حزيناً كئيباً[٣] فَعَرَّف ما كان لبعض أصحابه فقال له: قد

=والي العراق أيام هشام بين عامي ١٠٦ و١٢٠هـ لكن صلاح الدين الصفدي يذكر في الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٧١ في ترجمة الأبرش الكلبي (سعيد بن الوليد، كاتب هشام) أن الأبرش هو الذي كاد ابن هبيرة بهذه المكيدة التي تخلص منها بسرعة بديهته.

(١) قارن بالقصة في لطف التدبير للإسكافي ١٤٧- ١٤٨، والبصائر والذخائر لأبي حيان ٤/ ٢٩٤- ٢٩٦.

(٢) موضع الكلمة بياض في الأصل والإضافة عن لطف التدبير.

(٣) في رواية أبي حيان للقصة (البصائر ٤/ ٢٩٥) زيادة هنا هي: "وقد كان مرّ=

حَسَدَكَ أصحابُهُ والحيلةُ في هذا أنْ تلبس المُسُوحَ فتأتي بابَ دار المَلِكِ في الغَلَسِ فإذا عَلِمَ بمكانِكَ ودعا بكَ وسألَكَ عن قصتِك فَقُلْ: إنَّ الملِكَ دَعَاني إلى أمْرٍ المَوْتُ أَحَبُّ إليَّ منه، ولكني (كرهْتُ خِلاَفَهُ)[1] وأردت أن أكُونَ معه ففعلْتُ ذلك! فعاد الملكُ إلى ما يَعْهَدُهُ منه.

قال له الغَوَّاص: إنَّ هذا الوزيرَ لمّا عَلِم بالمكيدةِ احتال في الخَلاَصِ منها. وقد قال بعضُ الحكماء: إنَّ الغَضَب إذا كان عن سببٍ يُعْرَفُ كان الرضا سَهْلاً يسيراً، وإنْ كان بلا سببٍ كان الرضا صعباً ممتنعاً، وذلك أنَّ المُحالَ موجودٌ في كل حال. ولو علمْتُ بما احتيلَ به عليّ لكنتُ أَتَسَبَّبُ إلى الخَلاَص! ولعلي [ق٥٢ب]، كنتُ أَرُدُّ كَيْدَ مَنْ كادني عليه كما فَعَلَ مرةً وزيرٌ كان لبعض مُلُوكِ الهند.

قال: وكيف كان أَمْرُهُ؟

=في بعض مسيره برجل ظاهر الأمانة فقال: أيها الوزير! ضمني إليك فإن لك عندي ما تحب! قال: وما ذاك؟ قال: أنا رجل أرتُقُ الكلام. قال: وما رتقُ الكلام؟ قال: إذا وجدتُ فتقاً رتقته! قال: أنا أفعل ذلك.. فذكر الوزير قوله فدعا به.. فقال: أيها الوزير قد حسدك بعض أقاربه.. والوجه في ذلك أن تلبس مسحاً..».

(١) الموضع بياض في الأصل والإضافة عن لطف التدبير.

قال: ذُكِرَ أَنَّ مَلِكاً من ملوكِ الهند[1] كان له وزيرٌ يَعْملُ برأيِهِ، وكانت البراهمةُ تُبْغِضُ ذلك الوزيرَ وتتمنَّى موتَهُ وموتَ المَلِكِ ليستريحوا منه. فمات الملكُ فصار ابنُهُ مكانَهُ واتَّخذَ ذلك الوزيرَ وزيراً كما كان لأبيهِ فَثَقُلَ على البراهمةِ فاحتالوا له - ومُلُوكُ الهند لا تُخالفُ البراهمةَ لأنهم أصحابُ الدين والزهد في الدينا، فاحتال البراهمةُ بأَنْ زوَّروا كتاباً على لِسان الملِكِ وشبّهوهُ بخطِّهِ وكلامهِ وخاتَمِهِ إلى ابنِهِ يُعْلِمُهُ أنه قد صار إلى كل ما يُحِبُّ وإلى كلّ حُبُورٍ ونعمةٍ، وأنه ما يفقدُ شيئاً يُنَغِّصُ عيشَهُ فَقْدُهُ غير وزيرِهِ ذاك. ويسأَلُهُ أن يبرَّهُ ويُؤْنِسَهُ بأَنْ يبعثَهُ إليه. ودسُّوا الكتابَ مع رجلٍ زَعَمُوا للملكِ أنه كان ماتَ ثم عاشَ، وأَنَّ الملكَ أَرْسَلَهُ بكِتَابِهِ إلى ابنه. فلمّا صار ذلك الكتابُ إلى الملك الثاني ابن الملك الأول اغتمّ لذلك ولم يَشُكّ أنَّ الخَبَرَ حَقٌّ. فدعا وزيرَهُ فَدَفَعَ إليه الكتابَ فخشيَ الوزيرُ أن يقولَ هذا مُفْتَعَلٌ فلا يُصدِّقُهُ ولا يقدر على تكذيب البراهمةِ [ق٥٣أ] فقال: أَصْلَح الله المَلِكَ! هذا هو خطُّ أبيكَ وكلامُهُ وخاتَمُهُ ولا أشُكُّ فيه، وقد كنتُ على أنْ أبتدئَ الملكَ وأسأَلَهُ أنْ يُوجِّهني إليه ولكنْ تؤخِّرُني أياماً حتى

(١) يروي الإسكافي هذه القصة في لطف التدبير ١٢٦- ١٢٨ عن بكّار بن ماهويه. ولها مشابه في قصة "كليلة ودمنة" ص ١٩٠- ١٩٢.

أوصيَ وأُحْكِمَ ما أُرِيدُ أنْ أُحْكِمَهُ قبل أنْ أُحْرِقَ نفسي. وكانوا لا يَقْتُلُونَ بالسيف إنما يُحْرِقُونَ بالنار، وعندهم أنهم يعودون في خَلْقٍ جديد إذا أُحْرِقُوا. ثم إنَّ الوزيرَ حَفَرَ سرداباً في داره إلى الصحراء وأَنْفَذَهُ وجَعَلَ على بابِهِ تُراباً يسيراً على قَدْر ما إذا ضربَهُ الضاربُ بِرِجْلِهِ انخسفُ وأمر بِجَمْعِ الحَطَب فجمع قريباً من ذلك السَرَبِ وهيَّأ له طريقاً شبيهاً بالزُّقاق وبنى حائطاً حول ذلك الموضع. وحضر الملكُ والبراهمةُ وأخذَ الوزيرُ ناراً ليُشْعِلَ بها ذلك الحَطَبَ والناسُ ينظرونُ إليه. فلمّا اشتعل وعلا الدُّخانُ والتهب ضَرَبَ رأسَ النقْبِ فصار في ذلك السَرَبِ وتوارى أشهراً. واشتعلت النارُ فلم يشُكَّ الملكُ والبراهمةُ في احتراق الوزير لِمَا رأوا مِنْ إظْهارِهِ القَبُولَ لذلك والحِرْصَ عليه. ثم أتاهُ بعد زمانٍ بكتاب على لسان الملك يتشكَّرُ له فيه [ق٥٣ب] على إرْساله إليه الوزيرَ وأنه رأى أَنْ يُؤْثِرَهُ به لِحَاجَتِهِ إليه، ولِمَا بَلاَهُ من نصيحتِهِ وطاعته. وسأله أَنْ يُعينَهُ ويُؤْنِسَهُ ويَسُرَّهُ بأن يُوَجِّهَ إليه أربعةَ آلافٍ من البراهمة. فلمَّا أتاهُ لم يَشُكّ أنه صادقٌ وأنه قد كان احترق ومات ورجع بكتابِ أبيه، فجمع البراهمةَ وَهَيَّأَ لَهُم حَطَباً كثيراً وأظْهَرَ لهم كتابَ أبيه مع الوزير، فأَحْرَقَهُم ورجعَ كيدُهُم عليهم!

قال له اللَّوَّام: أنتَ امرؤٌ فيكَ قِلَّةُ حَذَرٍ مع تَعَاطِيكَ المعرفَةَ بوجوهِ الحَذَرِ، والعلمُ لا ينفعُ إذا فارقَهُ العَمَلُ، ولقد تعرَّضْتَ لما (لا) تُحْسِنُهُ فكان مَثَلُكَ مَثَلَ بعض المعلِّمين.

قال له: وكيف كان أمْرُهُ؟

قال: ذُكِرَ أَنَّ معلِّماً كان يعلِّمُ صبياً وكان لا يُجيدُ الكتابةَ فعبر به رجلٌ فقَال: يا معلم! لِمَ لا تُعَلِّمُ الصِّراع؟ فقال: لأني لا أُحْسِنُهُ. فقال: هوذا يُعَلِّمُ الكتَابَةَ ولا يُحْسِنُهَا! ولو قاربْتَ أصحَابَهُ لنجوْتَ من كَيْدِهِم.

قال له الغَوَّاص: ما كُنْتُ مقاربَ أصحابه إلّا بالبُعْدِ عن أغْرَاضِهِ.

قال له اللَّوَّام: إنَّ المرءَ الرفيقَ قد يمكِنُهُ أن يسلم على الضررين بلفظهِ ويخلص سالماً منهما بِرِفْقِهِ، كما فعل رجلٌ مرةً مع امرأة صديق له.

قال له: كيف كان ذلك؟

قال: [ق٥٣أ] ذُكِرَ(١) أَنَّ فتَيَيْن كانا يتنادمانِ وكان لكلِّ واحدٍ منهما امرأةٌ فأرسلت امرأة أحدِهِما إلى صديقِ زوجِهَا تدعُوهُ إلى نفسها فأبى ذلك عليها مُحافظةً منه على صاحبه.

(١) يروي الإسكافي القصة في لطف التدبير ١٣٥- ١٣٦ عن المدائني.

وأَلَحَّتْ وأرسَلَتْ إليهِ مع مولاةٍ لها: لئن لم يَفْعَلْ لتقولَنَّ لزوجها أنه قد راودَها عن نفسِهَا، وأنها امتنعت عليه. فأَحَبَّ الرجل أن يحتالَ لها بحيلةٍ لا يخونُ صاحبه ولا يُلْجِىءُ المرأةَ إلى أنْ تَتقوَّلَ عليه بما تهدّدَتْهُ به. فأرسل إليها: إذا أبيت وكان هذا جداً منكِ فأنا والله أعشقُ لكِ منكِ لي، وما كان يمنعُني من طَلَبِك إلا مخافة أن (لا تُجيبيني)(١) وليس لي منزلٌ يَحْتَمِلُ دخولَكِ ولا أثِقُ بأحدٍ، وليس منزلي بأجمَلَ لكِ، وأحرى أن تمكننا الفرصة في منزِلِكِ، فالرأيُ أنْ تقولي لزوجِكِ أَنك تريدينَ زيارةَ أهْلِكِ يوم كذا، وأقول أنا لزوجِكِ أنَّ لي صديقَةً أُحِبُّ أن أجيءَ بها إلى منزِلك، فإذا صرتِ إلى أهلِكِ انسللتِ مع مولاتي هذه إلى منزلِكِ وأصيرُ أنا إليكِ فيه، وكأنكِ أنتِ تلك التي أعلمْتُهُ أنها تزورُني. فأجابتْهُ إلى ذلك فأرسل إليها أني لستُ آمَنُ أن يظهَر شيءٌ من أَمِرنَا، ولكني أُريد إنْ بَلَغَهُ شيءٌ من هذا [ق٥٤أ] أنْ أحلفَ إنكِ امرأةٌ ما رأيتُ لكِ وجهاً قط ولا كَلَّمْتُكِ كلمةً قط فأصير إليكِ في الظُلْمَةِ! فأجابَتْهُ إلى ما قال، وفَعَلَتْ ما أَمَرَهَا به. فلمَّا صارت إلى منزل أهلِهَا ورجعت إلى منزلها قال: إنّ صديقتي قد جاءتْ، وأراهُ أنه يدْخُلُ عليها واندسَّ في موضعٍ

---

(١) بياض في الأصل وما أثبتناه عن لطف التدبير.

لم يَصِلُ إليها ولم يُعْلِمْهُ بمكانه. وقال لزوجها: إني قد احتَلْتُ لصَديقتي هذه الحيلةَ لأحْمِلَكَ عليها فقلت لها: لا أراك ولا ترينني ولتكوني في ظُلْمةٍ ولا تُكَلِّميني ولا أُكلِّمُكِ. فلما رجعَ قال لزوجها: قُمْ إليها فدخل إليها وهو يُقدِّرُ بأنها صديقَةُ صاحِبِه، وكان قد سأله أن يقطع خصْلَةً من شَعْرِهَا فَفعل ذلك فخرج فدفع الشَعْرَ إلى صديقِهِ، فلمَّا حَصَلَ الشَعْرُ معه وَثِقَ بنفاذ حيلتِهِ فقال لمولاتها التي كانت الرسولَ إليها: أعْلِميها أنَّ زوجَهَا هو الذي صار إليها وقد قطع من شعرها خصلةً ودفعها إليّ، وأخبرها كيف احتال لها. فانصرفت إلى أهلها ثم أرسَلَتْ إليه تحلف أنها لا تعودُ لِمِثْلِهَا أبداً. وإنما أخبرْتُكَ هذا لتعلم (أنَّ) ذا اللطف يقدر أن يتخلّص من المختلفين في غرضهما. وربما أَلْجَأ الدهرُ المرءَ إلى أَمْرَيْنِ ضارَّيْنِ يُقَدِّرُ أَنْ لا مَخْرَجَ منهما فيأتي الحازم [ق٥٤ب] أمْراً بينهما يسلمُ به من مضرتهما كما فعل بعضُ اللصوص.

قال: وكيف فَعَلَ؟

قال: ذُكِرَ أَنَّ رجلاً تاجراً كان له مخزنٌ في موضع وأنه جاء إليه يوماً من الأيام ليفتحه فلم يُنكرْ منه شيئاً في غلقهِ وقفلِهِ وخَتْمه ووَجَد جميع ما كان فيه على حاله إلّا ألف دينار كان قد تركها في المخزن، فاشتدّ لذلك قلقُهُ، وجاء إلى

صاحب الشرطة فشكا ذلك إليه فلم يجد صاحبُ الشرطة أمْراً يتعلَّقُ به فحار في القصَّة غير أنه أخَّرَ الحَيْرَةَ وأَخَذَ كُلَّ مَنْ تتوجَّهُ إليه التهمةُ، وكان فيمن قبض عليه غُلامٌ حسنُ الصورة رطب البدن فَعَرَّاهُ بمحضرٍ من الناس ليضربه ويُقرِّرَهُ فلم يبقَ أحدٌ حتى رقَّ للغلام وبكى تَوَجُّعاً له، فهو قد هَمّ بضربه حين قام إليه شيخٌ في زي الصوفية من بين الناس فقال: لا تَعْجَلْ على الغُلام وأروني الموضع لعلي أَنْ أدلّكُمْ على آخذه! فركب صاحبُ الشرطة وسار الناسُ معه حتى جاءوا إلى المخزن فقال ذلك الصوفي لصاحب المخزن: أرِني كيف [ق٥٥أ] كان مخزنُكَ في إقفالِهِ وخَتْمِهِ وجميع أمره عندما جئتَ إليه فأراهُ ذلك كله فقال: افتحه ففتحه! ودخل الصوفي المخزنَ وقال: أقفل الآن عليَّ بجميع الأقفال حتى أتأمَّلَ الموضعَ من داخِلِهِ ففعل ذلك. وأَخَذَ الرجُلُ يُسْمِعُهُم حسَّهُ هُنيهةً ثم ذهب عنهم فلم يسمعوه فنادوه فلم يُجِبْهُمْ ففتحوا البابَ فلم يُصادفوهُ فحاروا في أمْرِهِ بُرْهةً ثم (جعلوا) يفتشون المخزن فوجدوا نقباً تحت قطعةٍ من لادن كانت مُلْقَاةً في المخزن، ينفذ إلى خربةٍ مُجاورةٍ لذلك الموضع فإذا الرجُلُ هو الذي أخذَ المالَ، وخرج من النقب. فهذا الرجُلُ لما رحم الغلام وصار بين أمرين ضارَّيْن عنده، إمَّا أن اعترف فعطب وإمّا أن سكت فأعْطَبَ غيره، تلطَّفَ في بَرَاءَةِ غيره وخَلاص

نفسِهِ [هندية ٦٣أ]. وقد قال بعض الحكماء: لا تُرْضِ أحداً في سخط مَنْ هو أقدر عليك منه.

قال الغَوَّاص: مع أني ما فعلْتُهُ إلّا لله تعالى، ولعل الله عزَّ وجلَّ أن يقضي لي بالسعادة بأن يرزُقني الشهادة. ولا بأس بفساد دنياي إذا كانت سبباً لصلاح آخرتي. مع أني أكاد أتحقّق خلاصي.

قال له اللَّوَّام: وما الذي دلَّكَ على ذلك؟

قال: ثقتي ببراءَتي تكادُ تشهدُ لي بنجاتي، وعِلْمُ الله سبحانه بحالي يُخبرني بجميل صنعه في أمْري.

قال له اللَّوَّام: توكُّلُكَ أنساكَ الحَزْمَ، وصَوَّر لكَ التضييعَ في صورة التوكّل!

قال له الغَوَّاص: يا هذا! الإنسانُ لا يمكنُهُ الاحترازُ من جميع أمور الدنيا حتى لا يُصيبَهُ شيءٌ وإنما هو كرجلٍ يُرمى بالنُشَّاب من جميع الجهات فلا يصْرِف خاطره إلى الاحتراز من ناحيةٍ فيسلم منها إلّا أصابه من جهاتٍ أُخرى أكثر. وقد شبَّهَتِ الحكماءُ صاحبَ الدنيا بالذي يطلب أن يتخلَّل بين نُقَط المطر لئلا يُصيبَهُ. غير أنَّ المحنة إذا كانت بالاتفاق يُرجَى الخلاصُ منها بالاتّفاق. وإذا كانت بغير ذنب رُجي

الخلاصُ منها بغير اجتهاد. وكما اتفق لبعض مَنْ يُجْلّدُ الدفاتر!

قال اللوام: وكيف كان ذلك [هندية ٦٣ب].

قال: ذُكِرَ أنَّ مجلِّداً بالموصل قال: أعطاني بعضُ أُمراء بني حمدان(*) دفتراً أُجلِّدُهُ وتأكَّدَ عَليَّ في الوصية بحفظه والاحتياط عليه. فتوجَّهْتُ إلى دُكّاني وكان طريقي على دجلة فنزلْتُ على شرعةٍ أَتَوَضّأ للصلاة، فسقط الدفتر من كُمّي فتناولْتُهُ عَجِلاً قبل أنْ يغرق وقد ابْتَلَّ فلم أشكَّ أنْ سيجري عليَّ من ذلك الأمْر مكروهٌ عظيمٌ من ضَرْبٍ وحَبْسٍ وأخْذِ مال. فعوَّلْتُ على الهرب من الموصل. ثم قلت: أُجفّفُهُ وأُجلِّدُهُ وأجتهد في أنْ أُسلّمه إلى أحد غلمانه وأستتر فهو أهْوَنُ للقصة. فجللتُ الورقَ وجَفَّفْتُهُ حتى جفَّ ونقلتُهُ حتى رجع بعض الرجوع وجلَّدْتُهُ وتنوَّقْتُ في تجليده. فلما فرغْتُ منه جئتُ لأُسَلّمَهُ إلى الحاجب من باب الدار وأمضي فصادفْتُ الحاجبَ جالساً في الدهليز فسلَّمْتُ إليه الدفتر فقال: ادخُلْ فَنَاوِلْهُ من يدك إلى يده فإنه يتوقَّعُكَ ولعله يأْمُرُ لكَ بشيءٍ! فقلت: أنا مستعجل! فقال: لا يجوز! وأمر مَنْ أدخلني إليه فلم أشكّ أنّ ذلك من الاتفاقات الرديّةِ. فمشيتُ

(*) الهندية: همدان.

في صحن الدار وكأني أُساقُ إلى الموت من عظيمِ هيبتِهِ فوجدْتُهُ جالساً على بركةِ ماءٍ في صحن داره والغلمانُ قيامٌ على رأسه فأخرجْتُ الدفتر من كمّي، فقال لأحد الغلمان: خُذْهُ من يده! وناوِلْني! فجاء الغلام من جانب البركة [هندية ٦٤أ] وأنا من الجانب الآخر ومدّ يده فأعطيتُهُ إياه فحين حصل في كفه سقط في البركة حتى غاب وغاص إلى قعرها. فاستشاط الأميرُ غضباً على الغلام وشتمه وأمر بضرْبِهِ. فحمدْتُ الله على سلامتي من حيث لا أحتسبُ وخرجْتُ والغلامُ يُضْرَبُ! وإنما حدَّثْتُكَ بهذا الحديث لتعلم أنَّ المحنة إذا كانت بالاتفاق يجري الخلاصُ منها بالاتفاق بغير اجتهاد.

قال له اللَّوَّام: وهذه أيضاً تشبهُ حديثَ ذلك الذي حلف لا يَحضرُ دعوةً ولا يُشيِّعُ جنازةً!

قال: وكيف كان ذلك؟!

قال: ذُكِرَ أنَّ رجلاً كان حلف على ذلك فسُئلَ عن السبب، قال: كنتُ انحدرْتُ من بغداد إلى [هندية ٦٤ب] البصرة في كتبٍ أنفذها معي بعض الأشراف إلى بعض أُمرائها فوصلْتُ إليها ليلاً فصعدْتُ من بعض المشارع عِشاءً فاستقبلني رجلٌ فكنَّاني بغير كُنيتي وأحْفى في مسألتي عن أهلي وعن قوم لا أَعرفهم وحلف عليَّ لأنزل عنده. وكنتُ

غريباً لا أَعرفُ مكاناً قريباً أَنزل فيه فقلت: أبيتُ الليلَةَ عند هذا إلى الغد، وأطلب موضعاً، فتمنَّعْتُ قليلاً فجذبني إلى منزله - وكان معي دراهم في كمي - فدخلتُ إليه فإذا عنده دعوةٌ والقومُ على نبيذ. وكان قد خرج لحاجةٍ فشبَّهَني بصديقٍ له لسُكْرِهِ. وكان فيهم رجلٌ معه غُلامٌ أمرد، فلما أخذوا مضاجعهم للنوم قام واحدٌ من الجماعة ففسق بالغلام ورجع إلى موضعه، وكان قريباً من صاحب الغلام. فاستيقظ في الحال وتقدم إلى غلامه ليفسُقَ به فقال له: ما تريد؟ ألم تكن عندي الساعة ففعلْتَ كذا وكذا؟! فقال: لا والله! فقال: لقد جاءني الساعةَ إنسانٌ ففعل بي وظَنَنْتُهُ أنت فلم أحْتَرِكْ ولم أظنَّ أحداً يجسر عليك! فقام الرجل [هندية ٦٥أ] وجرَّ سكينه من وسطه وأنا أُرعَدُ فَزَعاً فلو دنا مني حين كنت أُرْعَدُ لقتلني ظناً منه أني صاحبُ القصة. فلما أراد الله عزّ وجلّ بصاحب القصة أن وضع يده على قلبه فوجده يخفق قد تناوم عليه يرجو بذلك السلامةَ فوضعَ السكين في قلبه ومسكَ فَمَهُ فاضطرب ومات، وأخذ بيد غلامه وفتح الباب وانصرف. فورد عليّ أَمْرٌ عظيم وقلت: أَنا غريبٌ وصاحبُ البيت ينتبه ولا يعرفني فلا يشكُّ أني صاحب القصة فأقتل بغير جُرْم! فأَخذْتُ نعلي ومزودي وطلبْتُ البابَ فلم أَزَلْ أمشي ولا أدري أين أقصد والليلُ منتصف. وخفتُ العَسَسَ فرأيتُ آتون

حمّامٍ لم يُوقدْ بعد فدخلتُ إليه وقلت: أختبئ فيه إلى أنْ يُفتح الحمَّام وأدخل! فجلستُ في ناحيةٍ من الأتون، ولبثْتُ حيناً وإذا أنا بحسِّ رجل وهو يقول: قد رأيتكَ يا ابنَ الفاعلة! ودخل الأتونَ وأنا كالميت من الفزع لا أتحرَّكُ. فلما لم يجد حِسّاً أَدْخَلَ يده يُومئُ بسيفٍ، كان معه في الأتون، وإذا أنا بعيدٌ من أن ينالني فصبرْتُ وجلسْتُ مستسلماً [هندية ٦٥ب] فلما لم يُحسّ بأحدٍ في الأتون خرج ثم عاد ومعه جاريةٌ فأدخلها الأتونَ فذبحها ومضى وتركها[١]. فرأيتُ توقُّدَ الخلخالين في رجليها فنزعتُهُمَا وخرجْتُ فإذا الحمَّامُ قد فُتح فدخلتُ وخبأْتُ ما معي في ثيابي عند الحمَّامي، ثم خرجْتُ وقد أصبحْتُ فأخذتُ حوائجي وطلبْتُ الطريقَ وقصدْتُ دار ذلك الأمير الذي جئتُ إليه بالكتب، والحُلِيُّ في مِخْلاةٍ كانت معي. وكنتُ أتردَّدُ إليه ويُمازحُني فقال: هات! أيّ شيءٍ جئتَ به لنا؟ أَرِني مخلاتك فإني أراها ثقيلة! فقلت: ما جئتُ بشيء! فقال: بلى! ولكنك تُهديه لغيرنا! فبدر إليّ واحدٌ من غلمانه فأخذها وقال: والله يا مولاي ثقيلة! فقال له: فرِّغْها! فإذا الحُلِيُّ! فحين رآها احمرَّتْ عيناه واسودّ وجهُهُ وقال: من أين لك هذا؟! فقلت: أَعطِني الأمان! فقال: أنت آمِن!

(١) قارن بواقعة مُشابهة في الفرج بعد الشدة للتنوخي ص ١٣٠- ١٣١.

فحدّثْتُهُ الحديث كُلَّهُ في سفري ذلك، فدخل مسرعاً إلى دارٍ خربةٍ ثم خرج إليّ وقال: أتعرفُ الرجل الذي قَتَلَ الجاريةَ؟ قلت: لا! لأنَّ الظلمةَ كانت حائلةً بيننا ولكني إنْ سمعْتُ كلامه [هندية ٦٦أ] عرفْتُهُ! فأَعَدَّ طعاماً وخرج وعاد ومعه شابٌ من الجند فكلَّمهُ وغمزني عليه فقلت: نعم! هو الرجل! ثم أكلنا وحضر الشراب فحمل عليه بالنبيذ فسكر ونام في موضعه فأَغْلَقَ بابَ الدار وذَبح الشابَّ وقال: إنَّ المقتولة أختي، وكان هذا قد أفسدها وبلغني الخبرُ منذ أيام ولم أصدّقْ إلّا أني طردْتُ أُختي إلى خربةٍ بجنب الدار فمضت إليه، ولستُ أعرفُ ما كان بينهما حتى قتلها. وإنما عرفتُ الخلخالَيْنِ فقتلْتُهُ كما ترى، فَقُمْ حتى ندفنه. فلم أَزَلْ حتى دفنّاهُ. ثم إني خرجْتُ من عنده في وقتٍ قائلةٍ في يومٍ شديد الحر لحاجةٍ لي فاستقبلَتْني جنازةٌ يحملُها رجلان، فقال لي أحدُهُما: لعلك تُعِينُني بنفسك فإني قد لَظَّني العطشُ والإعياءُ بأن تدخُلَ مكاني لحظةً وأَعُودُ إليك فإنَّ لك في ذلك ثواباً. فدخَلْتُ عوضه وغاب عني وطال الأَمْرُ عليّ فصحْتُ بالحمّال الآخر فقال: إمش واسكُتْ فقد انصرف ولن يعودَ! فقلت: الساعة والله أرمي بها! فقال: والله إن فعلْتَ لأَصيحنَّ! فاستحْييتُ وقلتُ: ثوابٌ [هندية ٦٦ب] ساقهُ الله إليّ! ولم أَزلْ حتى حطَّيْنَاها في مسجد الجنائز. فلما استقرتْ في

الأرض هرب الحمَّالُ الآخرُ فقلت: يا هؤلاء الملاعين! والله لأُتممنّ الثوابَ! وأخرجْتُ من كُمّي دراهم وقلت: يا حفّار! أين قبرُ هذه الجنازة؟ فقال: لا أدري! فقلت: احفر لها وخُذ هذه الدراهم! فحفر قبراً. فلما أَنزلْتُ عليه الجنازةَ لتُدفن وثب الحفّارُ من القبر وضمَّني وجعل عمامتي في عُنُقي وصاح: يا قوم! هذا قتيل! فاجتمع الناسُ فسألوه فقال: هذا الرجل جاء بهذا المقتول بلا رأس! فَحُلَّ الكفنُ فوجدوا الأَمرَ كما قال، فدهشْتُ وبُهِتُّ وتحيّرْتُ وجرى عليَّ من المكروه ما لا أُحْسِنُ وَصْفَهُ حتى كادت نفسي تتلف. وحُمِلْتُ إلى صاحب الشرطة فأخبروه الخبر فجُرِّدَتِ السياطُ وأنا ساكِتٌ ذاهل. وكان له كاتبٌ عاقلٌ فلما رأى حيرتي سأله أن يُنظِرَني ليكشف عن قصتي فقال: أظنه مظلوماً! وقام فَخَلاَ بي وسألَني عن أَمْري فأخبرْتُهُ خبري ولم أَزِدْ فيه ولا أنقصْتُ. فطلب الجنازةَ وفتَّشَهَا فوجد عليها مكتوباً أنها للمسجد الفُلانيّ في الناحية الفلانية [هندية ٦٧أ]. فأَخَذَ معه رجاله ومضى إلى المسجد متنكراً فوجد فيها خياطاً فسأله عن جنازةٍ كأنه يُريدُ أن يحملها، فقال الخياط: لهذا المسجد جنازةٌ إلّا أنها قد أخذها منذ الغداة أهلُ تلك الدار- وأومأ إليها- ولم يردُّوها بعد! فكبسها الكاتب (مع) رجالة الشرطة وأَخذَ مَنْ بها وأحضرهم وأخبر صاحِبَهُ بالخبر فقرَّروا القومَ فأقرُّوا أنهم

تغايروا على غلامٍ أمرد معهم فقتلوه وطرحوا رأسه في حفرةٍ حفروها في الدار، وحملوا الجثَّة على تلك الحال. وكان الحمّالان من جملة القوم فَضُربتْ أعناقهم وخُلّي سبيلي فهذا سببي في أني لا أحضُرُ دعوةً ولا تشييع جنازة.

(قال اللَّوّام...): ولعمري إنه تيقن الخلاص بغير اجتهاد، إلّا أنه ما الذي تأمُلُ خلاصَكَ به؟ فقال: جوابي عليك مثل جواب بعض نساء البادية وقد سألها رجلٌ: من أين تعيشون؟ فقالت: لو أنّا لم نَعِش إلّا من حيث نعلم لم نعش! وأنا لو لم أتخلَّص إلّا من حيث أعلم لم أتخلَّصْ! وإذا أَراد الله أَمْراً يَسّرَ أسبابَهُ كما ذُكِرَ أنّ غُلاماً نجا من القَطْعِ بشظيةِ قصبةٍ [هندية ٦٧ب]!

قال: وكيف كان ذلك؟

قال: ذكر بعضُ ندماء المعتمد[1] أنه اشتهى أن يُتخذَ له

---

(١) المعتمد على الله، الخليفة العباسي (٢٥٦- ٢٧٩هـ/ ٨٧٠- ٨٩٢م). يذكر اليعقوبي في "مشاكلة الناس لزمانهم" ص ٦٤ أنّ "المعتمد آثر اللذة واعتكف على الملاهي، وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الأمور...". ويؤكد ابن الطقطقى في "الفخري في الآداب السلطانية" ص ٢٢٠- ٢٢١: "وكانت دولة المعتمد عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمّي بإمرة المؤمنين، ولأخيه كلمة الأمر والنهي وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومُرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء. وكان المعتمد مشغولاً عن ذاك بلذاته".

فرش ديباج وستور وجميع آلات الفرش من المطارح والبسط والستور على صفةٍ واحدةٍ بصورةٍ صوَّرها واقترحها. فَعُمِلَ له ما طلب وحُمل إليه فوصل على غرضه فسُرَّ بذلك سروراً (شديداً) وأمرَ به فَنُجِّدَ وبُسِطَ ونُضِّدَ. واحضر الندماءَ وأحضرني من جملتهم وطُلِبْنَا لوصْفِهِ فما منا إلّا مَنْ وصفه. وقام لينامَ وينتبه فيقعد يشرب عليه وتفرقْنَا. فما شعرْنا إلّا وقد امتلأت الدارُ ضجةً وصياحاً. فدعا بنا فوجدْناهُ يزأَرُ كالأَسَدِ ممتلئاً غيظاً، وإذا نصفُ سترٍ من تلك الستور قد قُطِعَ وهو يقولُ: ليس بي قَطْعُهُ ولا قيمتُهُ لأنني أقدر وأتمكن من استعمال مثله. وإنما بي أنه نغّصَ عليَّ لذتي وسروري به أوّلاً واجْتَرَأَ عليَّ فيما فعل. وأصعبُ من هذا كله أنه قطعه وأن أداه (؟) (...) وغاب عن عيني. ثم دعا بنحرير أُستاذ قصره وحلف بأيمانٍ مغلَّظةٍ إن لم يبحث إلى أن يحضر الجاني ليضربنَّ عنقه! وجلس على حاله مغتاظاً ومضى [هندية ١٦٨أ] الخادمُ فيما أنفذه، فأحضر صبياً من الفرَّاشين كأنه البَدْرُ وقطعةُ الديباج بيده وقد اعتذر وبذل التوبة وهو يبكي وسألَ الإقالةَ فلم يسمع منه المعتمدُ وأمر أن يُخْرَجَ فتُقْطَع يدُهُ. فأُخرج وما منا إلّا مَنْ أَلِمَ قلبُهُ لملاحته وصِغَرِ سنه. وليس منا مَنْ يجسر على مسألة المعتمد فيه ونحن قيامٌ سكوتٌ وهو يعبثُ بيدِهِ غيظاً فما شعرنَا إلّا وقد صرخ صُراخاً عظيماً قد

دخل في إصبعي الساعة شيءٌ! وزاد الألم، وجيء بنقّاش فأخرج من إصبعه شظيةً من قصبةٍ كأنها الشعرةُ، فما ندري من أي شيءٍ نعجب، من صِغَرِها، أو من دخول مثلها في لحمه مع ضعفها، أو من شدة ألمها، أو من كونها في بساط ديباج! فطرح نفسَهُ ساعةً فلما استراح قال: يا قوم! إذا كان مثل هذا القَدْر اليسير وقد آلمني هذا الألَمَ العظيم، فما حالُ ذاك الذي أَمَرْنَا بقطعِ يده؟! إبعثوا لنحرير الخادم أن يمنعه من قطْعِهَا إنْ كان ما قطعها! فتسابق الغلمانُ إليه فلحقوا الزيتَ قد أُغلي وهم [هندية ٦٨ب] مُعَوِّلونَ على قطْعِ يد الغُلام فأمروه أَنْ لا يتعرضَ له. وإنما حدَّثْتُك بهذا الحديث لتعلم أَنَّ الله عزّ وجلّ إذا أراد خَلاَص المرء لم يُحوجْهُ إلى الشُّفَعَاء، وسِلَّمَهُ بأحقر الأشياء وأصغرها.

قال له اللَّوَّام: أظن أنك كما قال الغُلامُ لأُمه!

قال الغَوَّاص: ما قال لها؟

قال: ذكروا أنَّ امرأةً كانت مغنيةً في شبابها فلما كبرت لزمت الزهد، فدخل عليها ابنُهَا في حاجةٍ له مُسرعاً فوجدها ساجدةً فانتظر جُلُوسَهَا ليخاطبها فطال عليه سُجُودُها، فقال لها: لو تركْتِ النوم على القفا لم تحتاجي إلى كثرة السجود على الوجه! وكذا أَنتَ لولا تَعَرُّضُك لما تعرَّضْتَ له مما لا منفعة لكَ فيه لم تحتجْ إلى انتظار المقادير.

قال له الغَوَّاص: فيما بَيَّنْتُهُ لكَ من غرضي في طلب الآخرة ما يُغْنيني عن مُعاودة الخطاب فيه، ولكنْ قُمْ أنت يا أخي لئلا تؤخَذَ بجُرمي ويُتَعلَّقَ عليكَ ببعض أمري.

فتعانقا وودّعَ كُلٌّ واحدٍ منهما صاحبه وافترقا. فلما فارقه قال الغَوَّاص: إنَّ لكل محنةٍ [هندية ١٦٩أ] تماماً، وأرجو أن يكونَ هذا تمام المحنة وآخر المُصيبة. فقُبْحاً لصديقٍ يُعَذِّب المرءَ بقوله ولا ينفعه بفعله. ولكنْ كما قال حقاً إنّ الصديقَ المذموم كالسهم الذي وَقْعُهُ شديدٌ ونَزْعُهُ أشَدُّ. والصديقُ المحمودُ كالنجيب(؟) من السلاح إنْ لبِسْتَها نَفَعَتْكَ، وإنْ نزعْتَهَا لم يدخل عليكَ ضررٌ من جهتها.

ثم إنَّ الأسدَ بعد ذلك أنفذَ فأخرج أحد اللَّذين كان حبسهما من غير جُرْمٍ. وإنما أراد أن يجعلهما صاحِبَي خبرٍ من حيث لا يعلمان فيروّيان فيما يحكيان أو يتوافقا على ما يذكرانه ويتخيران ما يعيدانه. فأجلسه بين يديه وقال: أخْبِرْني ما قالهُ كُلٌّ واحدٍ من المحبوسين من أول ما دخلْتَ الحبسَ إلى أنْ خرجْتَ. فذكر جميعَ ما سمعه من أوله إلى آخره. فعزله ناحيةً وأنفذَ مَنْ أخرَجَ الآخر من الحبس واستخبره فحكاه له. فلمَّا وجده مُوافقاً لما حكاه الأول أجازهما وصرفهما. ثم أخذ يفكر في الكلام الذي جرى بين الغَوَّاص

وبين صديقه، وبينه وبين اللوّام ويقيسُ بعضَهُ ببعض. وأخرج الرقعةَ التي كانت [هندية ٦٩ب] دَفَعَتْهَا له حظيتُهُ فوجدها مترجَمةً باسم الغَوَّاص فقال: إنَ مما يريبُني في هذه الرقعة أنها مترجمةٌ باسمه، ولو كان كاتبها لم يذكر اسمه فيها، ولكنْ أسأل حظيتي، مَنْ دَفَعَهَا إليها. ثم إنه أرسل لحظيته فسألها عن الرقعة مَنْ أعطاها إياها فقالت: إني وجدْتُهَا مطروحةً في موضعي ولم يرفعْها إليّ أحد! فازدادت استرابتُهُ بها.

ثم رأى أنْ أحضر واحداً ممن كان يسمع السر الذي فشا من أمر النمر فسأله ممن رقي إليه الخبر فلم يَزَل يسأل واحداً عن واحدٍ إلى أن انتهى الخبر إلى واحد من أعداء الغَوَّاص أصحاب الحيلة فقال: من خَبَّرَكَ بما قُلتَ؟ قال: الغَوَّاص خَبَّرني ولي عليه شهود. قال: مَنْ شُهُودُكَ؟ قال: فلان وفلان! وسمَّى له الجماعة الذين اجتمعوا! فأمر بإحضارهم فسألهم عن ذلك فشهدوا به. فأمر أن يُفرَّقوا[1] وأقبل يسألُ كل واحدٍ وحده أين أخبرهم الغَوَّاص، وهل كانوا مجتمعين أو متفرقين، وفي أي محلٍّ ذكره لهم، فاختلف كلامُهُمْ في

(١) عن بدايات تقليد تفرقة الشهود في الإسلام، قارن بالأوائل ١/ ٣٠٠- ٣٠١، وجمهرة الأمثال ١/ ٩٣، كلاهما لأبي هلال العسكري.

ذلك فتيقَّن أنها مكيدةٌ منهم. وقال: كما أني لم أعجل على الغَوَّاص كذلك ينبغي أنْ لا أعجل عليهم حتى أقِفَ على جَلِيَّةِ الأمْرِ. وأمر بإحضار التاجر الذي وُجد الكتابُ في رَحْلِهِ فآنسه ولطف به وقال له: ما تقولُ في الكتاب الذي كان في رَحْلِكَ؟ فحلف أيماناً مغلَّظَةً إنْ كان له علمٌ به ولا دري كيف هو. قال: فَمَنْ تتهمُ في هذا الأمْر؟ وما الذي يختلجُ ظنُّكَ به؟ قال: ما علمْتُ أحداً دَخَلَتْ يَدُهُ في رحلي إلّا غُلاَمٌ لي، فأحضر الغلام وقرَّره وبعد أنْ ضربه أَقَرَّ على رجلٍ وافقه على ذلك. فسأله عنه فذكر أنه لا يعرِفُهُ، فعرض عليه القومَ الذين كان اتهمهم بذلك، فعرف واحداً منهم فقال: هذا هو! فازداد يقيناً أنّ أولئك أصحاب الحيلة فاحتفظ بهم، وأَنفذ إلى التاجر الآخر الذي وجد المال عنده فضربه حتى أَقَرَّ على أحدهم أنه وافقه على ذلك. فورد على الملك ما أذهَلَهُ من عِظَمِ ما ورد عليه من الحيلة في مقابلة(*) الإحسان بالإساءة. ولم يلبث [هندية ٧٠ب] أنْ أَمر بقَتْلهم وإخراج الغَوَّاص. فلما وصل إليه أقبل يعتذر منه بلسانٍ يحبسُهُ الحياءُ ويقبضُهُ الخَجَلُ، فقال له الغَوَّاص: قد علمْتُ أيها الملكُ أن أمري معكَ إلى هذا يصيرُ، ولكني أكْرمْتُ محبوبَكَ على محبوبي،

(*) في الأصل: مقابل.

ولزمْتُ طاعَتَكَ في مكروهي وعَلَيَّ بما كان هَوّنه في نفسي عند نزوله لأنَّ النفس إذا ورد عليها ما قد عَرَفَتْهُ توطَّنتْ عليه ولم يملكْهَا الجَزَعُ. وسرّني أيها الملكُ خلاصُكَ من الظلم أكثر من سروري بخلاصي من القَتْل لأنه لا يُعتبرُ من الشقاء المنقطع ما كان سبباً للسعادة الدائمة.

[١٧] الباب: في الاستدلال بالعقول على المُجازاة في المعاد

قال الأسد: وبماذا سَكَنَتْ نَفْسُكَ وقوي قلبُكَ في أنَّ الشقاء المنقطع سبب السعادة الدائمة؟

قال: إني وجدْتُ جميع العالم مُثبتاً على غاية الحكمة وحُسْن الصنعة ووجدْت العناية قد تناهت إلى الأمر الحقير، ولم تطرح العنايةُ شيئاً لِصِغَرِه ومهانته واحتقاره وخسّته. فعلمْتُ - أيها الملك - أن المُعتني بالطائر الضعيف المهين الذي يخلِّل التمساح حتى جعل في جناحيه شوكتين إذا أطبق عليه التمساحُ فمه وخزه بهما ونجا[١]، وجعل [هندية ٧١أ] لكل شجرةٍ ثقيلة الحَمْلِ ضعيفَة العود كالقثّاء والقرع واليقطين وما أشبههُ كلاليب وخيوطاً تتعلق بها على الشجر فيحمل عنها

(١) قارن بما سبق فقرة رقم [٢].

ويقوم مقام الساق القوية لها، وجعل عُودها ليّناً لا يقومُ على ساقٍ لتفترش على الأرض فتحمل عنها حيث لم تكن إلى جانبها شجرة، ولم يجعلها مُمانعةً فيكسرها حمْلُها. وإنَّ مَنْ عُني بهذا الأمر الحقير لا يُضيعُ ذلك الأمْرَ الكبير. فلما لم يرد ذلك في هذه الدار بل رأينا المرءَ ربما عاش عُمُرَهُ سعيداً لا يأكل إلّا من الظُلْم، ولا يقِرَ ولا يقصّر عن سفك الدماء، ثم لا يموت بعد طول العمر إلّا على أحسن أحوال أبناء جنسه، فاضطرّنا العقل إلى أنْ نقضي أنَّ ثَمّ داراً للجزاء غير هذه الدار... والآن فقد دنا مني ما بَعُدَ فليتركني الملكُ أذهب لشأني وأخلو بعبادة ربي عزّ وجلّ، وأنفرد برياضة نفسي.

قال له الملك: إذا كنت إنما فعلْتَ طلباً للأجر في حراسة المُلْك وصلاحِ الشَمْل، وطلبْتَ بذلك [هندية ٧١ب] ما بعد اليوم لم يمنعْكَ الأذى بسببه من المُعاودة، ولم يصرفْكَ عن مُراجعته المضرّة لأجله. وقد كانت مضرةُ الحيلة التي تمّتْ عليَّ فيكَ ضرَّتْني من جهاتٍ ولم تنفعْني من جهةٍ، ونَفَعَتْكَ من جهاتٍ وضرّتْكَ من جهةٍ لما لحقني فيها من التعبُّث برأيي، والمضرة لديني، وتجرّي أصحابي عليّ، وما شهدوا من أمري، فمقامُك مقامُ المُحْسِن إلى مَنْ أساءَ إليه، ومقامي مقامُ المُسيء إلى مَنْ أحسن إليه. فمعي ذُلُّ الحياء ووحشةُ الإِساءة، ومعك عِزُّ البراءة وأُنْسُ الإِحسان.

قال له الغَوَّاص: أيها الملك! يمنعُني من المقام عندك أسبابٌ، أحدُها أني وإن كنتُ بريئاً فإنَّ الذي فعلْتَهُ معي ممَّا يُحْدِثُ لكَ الاسترابةَ بي، وقد اتهمتني بالإساءة من غير أن يتقدَّمَ إليَّ منكَ ما يُوجِبُ الإساءة، فكيف يكونُ حالي وقد كان منكَ في أمري ما يُوجِبُ قِلَّةَ الثقَةَ بي، وصار القولُ يُشاعُ من جهتي. وأخشى أن يكونَ أمري فيكَ كما كان أَمْرُ أبي عُبيدالله(*) وزير المهدي.

قال: وكيف كان أمره؟

قال: ذُكر أن الربيع لما أراد مُكايدة أبي عبيدالله(**) شاور صديقاً له في أمره [هندية ١٧٢أ] فقال له: إنَّ أبا عبيد الله ليس بجاهل في صناعته وإنه لأَحْذَقُ الناس وما هو بظنينٍ فيما يتقلده، وإنه لأَعَفُّ الناس حتى لو كُنَّ بنات المهدي في حجره لكان له موضعاً. وليس بمتهمٍ في الانحراف عن هذه الدولة ولا متّهم في دينه. وإنما تجتمعُ لكَ هذه الخِلالُ في ولده - وكان له ابنٌ زنديقٌ، فقَام الربيع فَقَبَّل عَيْنَ صديقه ذاك. وكان المهديُّ قد جَدَّ في طلب الزنادقة وغَلَّظَ في أمرهم، فدعا الربيعُ رجلاً من مواليه داهيةً، وكتب له كتباً عن

(*) في الأصل: عبد الله.
(**) في الأصل: عبد الله.

قومٍ من مشهوري الزنادقة قد كان الربيع عرفهم قبل ذلك وسمع بأخبارهم، وحمَّلَهُ هدايا وألْطافاً نسبها إليهم، وأَمره أَنْ يمضي إلى ابن أبي عُبيد الله ويلبس لباسَ النُسْكِ، ويتَخَشَّع ويتواضعَ ويتلطف. ففعل ذلك ووصل إليه وأعطاه الكتبَ والهديةَ، ولم يزل يلطف به ويؤانسُهُ حتى أنِسَ به وسار معه منزلتين أو ثلاثاً. ثم طلب منه جوابَ تلك الكتب ففعل. ثم دعاه إلى النبيذ فلمَّا أجاب أسكره وأخذ الكتبَ الأَصْلَ والجوابَ وتركه وهرب، فأتى الربيعَ بالكتب جميعاً فدفعها [هندية ٧٢ب] كلها إلى المهدي، فكتب المهديُّ في إشخاص ابن أبي عُبيد الله سراً عن أبيه. فلما وافى عقد له مجلساً عامّاً فيه أبو عبيد الله وغيره من الكُتَّاب والوزراء والوجوه. ثم قال لأبي عُبيد الله: ما فعل ابنُك فلان؟ فقال: مُجاورٌ بمكة! قال: فتعرف خطه؟ قال: نعم! فأَخرج الكتبَ إليه فوجم. ودعا بابنه فاعترف بالزندقة وقرأ كتابَهُ، فقال لأبي عُبيد الله: تَوَلَّ قَتْلَهُ بيدك! فرعش وضَعُفَ عن ذلك. فقال الربيع: يا أمير المؤمنين! يُعْفَى لحرمته عن قتل ولده، وأتولى أنا ذلك! فقال: افعل! فوثب وضرب عُنُقَ ابن أبي عبيد الله بين يديه. فلما قتله قال الربيع لبعض خَدَم المهدي: عليّ ثلاثة آلاف دينار إنْ فعلْتَ ما لا يضرّك! قالَ: وما هو؟ قال: إذا دخل أبو عبيد الله إلى المهدي وصار بحضرته فاقبض على

سيفه وامش إلى جانبه فسيُنكر عليك المهديُّ ذلك، فقُلْ له: يا أميرَ المؤمنين! قَتَلْتَ بالأمس ابنه فكيف يخلو بكَ أبوه اليوم ومعه سيف؟! ففعل الخادمُ ذلك، فاستوحش المهدي من أبي عُبيد الله وكان سبب إبعاده عنه[1] [هندية ٧٣أ]. وذُكر

(١) هو أبو عُبيد الله معاوية بن عُبيدالله بن يسار. كان مولى لعبد الله بن عضاه الأشعري. وهو من أصل فلسطيني من طبريا، وكان أبوه صاحب خراج الأردن أواخر أيام بني أمية، ودخل هو في خدمة المنصور حيث تولى أيامه الإشراف على شؤون المهدي المالية أيام ولايته للعهد. ثم ساعده في الوصول للخلافة عن طريق إقصاء عيسى بن موسى نهائياً عن ولاية العهد. فلما تولى المهدي الأمر جعله وزيراً له.
قارن عنه: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٨٢- ٤٨٣، الوزراء والكتّاب للجهشياري ١٢٦- ١٣٤، ١٤١- ٢١٤، تاريخ بغداد ١٣/ ١٩٦- ١٩٧، الفهرست ١٢٦، الفخري في الآداب السلطانية ٢٤٦- ٢٤٧. وقارن عن ملاحقة الزنادقة وقضية ابن الوزير أيام الخليفة المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ):
F. Vajda: Les Zindiqs en pays d'Islam au début de la période Abbasside, in RSO, XVII (1938), 173-229.
وترد القصة بالشكل الذي وردت فيه هنا تقريباً في الأغاني ٢٣/ ١١٦، والوزراء والكتّاب للجهشياري ١٥١- ١٥٤، وإعتاب الكتّاب ٧٤- ٧٥، ولطف التدبير ٢١٠- ٢١١، والفاضل للوشّاء ١١٧- ١١٨، والفخري ص١٦٤- ١٦٦. وقارن عن أبي عُبيدالله ووزارته وعزله:
Dominique Sourdel; Le Vizirat Abbasside. (Damas 1959) 94-103.
أما الربيع، فهو الربيع بن يونس بن أبي فروة، كان مولى للمنصور من أصل غير واضح (أنساب الأشراف ٣/ ٢١٢- ٢١٤). عُرف بالذكاء والدهاء واللباقة، وتولى الحجابة للمنصور والمهدي، وأسهم في عزل وتولية وزراء وكتّاب كثيرين. وخلفه في الحجابة ابنه الفضل أيام هارون الرشيد ووصل=

أنَّ بعض الملوك الفرس زاحمه وزيرُهُ في مضيق فدعس رجْلَ الملك فأَمر المَلِكُ بقَطْعِ رِجْلِ الوزير. ثم ندم فأمر بمُداواته، فلمّا برىء قال: قد قطعتُ رِجْلَهُ فلا يحبني أبداً. فأمر بقتله. ثم قال: وأهله لا يحبونني وقد قَتَلْتُهُ فأَمر بقتلهم(١)!. وأنا أيها الملك أقدر أن أحرس نفسي من التهمة، ولستُ أقدرُ (أن) أحرُسَكَ من الشكوك أن تعترض لك ولستَ مني على يقين ولو كنتُ على ما تحب! ولو كان الندم يحلُّ بإحلال صاحبه لما حَرُمَ على المرء قَتْلُ نفسه! وقد نذرْتُ لله إنْ وهب لي نفسي أَنْ أَهبَهَا له وأخلو بعبادته.

[١٨] الباب: في مضرة سوء العادة بالنفس وانطباعه فيها

قال له الملك: وما يمنعك من العبادة حيث أنت؟

قال: أيها الملك! إنَّ النفس الحيوانية يُحتاجُ في جَمْعِهَا

=إلى الوزارة في أواخر أيامه وأيام الأمين بعد نكبة البرامكة، ثم أثناء النزاع بين الأمين والمأمون. قارن: الجهشياري: الوزراء ١٢٥- ١٦٧، والتنبيه والإشراف للمسعودي ٣٤٢- ٣٤٤، وتاريخ بغداد ٨/ ٤١٤، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٤، وتهذيب ابن عساكر ٥/ ٣٠٨، وإعتاب الكتاب ٩٩- ١٠٢، والفخري ص ١٥٨- ١٦٠.

(١) قارن بالقصة في الوزراء والكتّاب للجهشياري ص ١٢٣.

ورياضتها أن يُفَرِّقَ بينها وبين محبوباتها، وقد استضررت باستعراض المستحسنات الطبيعية وأخشى أن يكسبَني ذلك عادةً رديةً يَبْعُدُ عليّ تَلافيها بعد استحكامها فيُصيبُني ما أصابَ [هندية ٧٣ب] صاحبَ الفَرَس.

قال له الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال: ذُكر أن رجلاً شجاعاً كان له مهْرٌ قد تربّى من نتاجه، وكان غايةً في الملاحة والحُسْنِ واستواء الأعضاء وعظم الخَلْق، وإنَ ذلك الشيخَ شُغِفَ به حتى صار جميع همه ولم يزل يُحْسِنُ إليه ويقوم عليه بالزيادة في عَلَفِهِ، وكان يعجز عن رياضته ويُشفِقُ عليه أنْ يركَبَهُ غيره ليروضه ويهذّبه فبقي لم يروّضْه رائضٌ حتى فسدت أخْلاَقُهُ وساءت خِصَالُهُ. وكانت إلى جانبِهِ فَرَسٌ يشمّ ريحها ويُكثرُ الشَبَقَ إليها، فكان إذا ركبه صاحبُهُ لقي منه الجهد. وكان الشيخ لا يزدادُ على الأيام إلّا ضَعْفاً والمهر لا يزداد إلّا قوة. ثم إنه احتاج إلى ركوبه في بعض الحالات لِطِرادٍ كان بينه وبين أعدائه، وكان لا ينقادُ له ولا يتلفتُ إلى إرادته وليس له عقلٌ، فركبه ذلك الشيخُ فشقَّ به صفَ أعدائه لِفِرَسٍ كان شمَّها معهم فعقروا المهر وقتلوا الشيخ. فهذا مَثَلُ المرء مع نفسه، فهو كصاحب الفَرَس إنْ راضه الرياضةَ المعتدلةَ كان له مركباً وطياً يبلغ به

حيث [هندية ٧٤أ] أراد، وإنْ هو لم يقمعْهُ بالأدب ولم يروِّضْهُ الرياضَةَ المحمودةَ أكسبه ذلك عادةً رديةً، فربما غلب راكبه وأرداه وأردى نفسَهُ.

قال الأسد: إنّ أفضل الرجلين من شاهد ما يشتهيه فقمع نفسه عنه، وقمعك نفسَكَ مع حضور ما تشتهيه أفضل من صبرك (على) ما لا ينفع صبرك عليه.

قال: أيها الملك! إنّ الرجل ليس بمحمودٍ ولا معذورٍ في تقوية عدوه على نفسه وبخاصةٍ إن كان عليه العدوّ القوي أحَدّ ظهراً وأعظم قدْراً وخَطَراً- بل لا يُعَدُّ حازماً إلّا مَنْ تلطف في تضعيف أمْر عدوه وقَطْع موادّ قوته، وباشره عند ضعفه ولو كان واثقاً بغلبته. والهوى عدوّ يظهر في زيّ صديق، ويرد في معرض شفيق، يخدع بالشهوة ويرشقُ باللذة. ولستُ معذوراً في تأسيده وتقويته، ولو وثقتُ مع ذلك بغلبته.

[١٩] الباب: في أقسام السياسة

ولمّا أيسَ الأسدُ من صُحْبِة الغَوَّاص قال له: أَوصِني!

قال: أيها [هندية ٧٤ب] الملك! إني ممتثلٌ أمْرَكَ غير أَني في وصيتي لك واستغنائكَ عنها بنفسكَ كالتاجر الذي لا يمنعهُ كثرةُ ما في خزائن الملك من حَمْل ما يقع عليه من دُرٍّ

نفيسٍ وجوهرٍ ثمين. إذ السياسةُ التي بها يُحْفظُ المُلْك تنقسم قسمين، كقسمي الطب. فأحدُهُما حِفْظُ المملكة التي تُدَبَّرُ بالعدل وحسن السيرة، ويُحْتَاجُ فيه مع اللين إلى بعض شدةٍ، المُشاكل من قسمَي الطب لحفظ الصحة التي تدبّر الأغذيةَ المعتدلةَ اللذيذة الطيبةَ، ويتخلَّل بينهما باللطف من الأدوية. والثاني: دَفْع الأعداء المُشاكل من قسمي الطب لحسم الأدواء التي يُحتاج فيها إلى الأدوية الكريهة، وربما احتيج فيها إلى السموم القاتلة بالمقادير الكافية.

ولا يتمُّ واحدٌ منها إلّا بالعناية والأخبار التي بها صلاحُ المملكة.

فأما القسمُ الأول فيحتاجُ إلى شدة البحث عن أُمور المملكة وأحوال الرعية، والتلطُّف في استقراء وعلم ذلك عند الكافة.

فإذا تلطَّف في تقرير ذلك عندهم جعل من شأنه [هندية ٧٥أ] معهم أن يعرض الجهات التي لا يُنال ثوابُها، والجهات التي لا يُخشى عقابُهُ إلّا منها حتى لا يخافَهُ إلّا مُسيءٌ ولا يرجوه إلّا مُحْسِنٌ لينصرف إلى ما قرب منه وينقطع عمَّا بَعُدَ عنه. وقد أحسن بعضُ الحكماء حيث

يقول[١]: ليعرف الناسُ فيما يعرفون من أخلاقِكَ أنكَ لا تعجل بالثواب ولا بالعَقّاب فإن ذلك أَدْوَمُ لخوف الخائف ورجاء الراجي.

ومما يُحتاجُ إليه في هذا القسم الصِدْقُ في الوعد والوعيد فإنه كان يُقالُ[٢]: فسادُ العِباد وخرابُ البلاد بإبطال الوعد والوعيد. وذُكر أنه قيل لأنوشروان: بأي سياسةٍ وبأي تدبيرٍ بلغت ما بلغْتَ؟ قال: إني لم أهزل في أمْرٍ ولا نَهْيٍ قط، وأعطيتُ للغَنَاء لا للهوى، وعاقَبْتُ للأدب لا للغضب، وملأْتُ قلوبَ الرعيةِ محبةً من غير جراْةٍ وهيبةً من غير ضغينة، واجتنْبتُ السَرَف [هندية ٧٥ب] في الثواب والعقاب[٣]. حذروا من السرَّف في الثواب كما حذّروا من

(١) العبارة في الأدب الكبير لابن المقفع ص ص ٤٦ - ٤٧ (وعنه في الحكمة الخالدة ص ٢٩٦). وقارن بالتذكرة الحمدونية ١/ ٨٩، ونهاية الأرب ٦/ ٤٦.

(٢) قارن بالعبارة في البرهان في وجوه البيان ص ٤١١، والعقد الفريد ١/ ٣٢-٣٣، وبدائع السلك ١-٤٨٩، وسراج الملوك ص ٤٦. وفي الفخري لابن الطقطقي ص ٤٤: "وقالت الفرس: فساد المملكة واستجراء الرعية وخراب البلاد بإبطال الوعد والوعيد".

(٣) القول في عيون الأخبار ١/ ١٠، والعقد الفريد ١/ ٢٤ مع نسبته إلى "بعض الملوك". وفي مروج الذهب ١/ ٢٩٠ نسبة العبارة إلى سابور بن أردشير. وانظر تذكرة ابن حمدون ١/ ٤٠٠، ونثر الدرّ للآبي ٣٧، ونهاية الأرب ٦/ ٤٣- ٤٤. وفي آثار الأول ص ١٨ نسبة القول إلى الموبذان في وصف=

السَرَف في العقاب، إذ إن السرف في الثواب يُبْطِرُ مَنْ يصرفُهُ إليه ويصغّر من يصرفه عنه.

وقيل[١] لملكٍ زال مُلْكُهُ: ما الذي أزال مُلْكَكَ؟ فقال: ببذلٍ وبطرٍ وضِغْنٍ، ودفع عمل اليوم إلى الغد. وقيل لبعض بني مروان بعد زوال ملكهم[٢]: ما الذي أزال مُلْكَكُم؟ فقال: شَغَلَتْنَا لذَّاتُنَا عن التفرغ لمهماتنا، ووثِقْنَا بكُفَاتنا فآثروا مَرَافقَهُم علينا، وظَلَم عُمَّالنا رعيتنَا ففسدت نياتُهُم لنا وتمنوا الراحةَ منا، وحُمل على أهل خراجنا فَقَلَّ دَخْلُنَا (فتأخر) عطاءُ جندنا فزالت الطاعةُ منهم لنا، وقصدنَا عدوُّنا فقلّ ناصرُنا. وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الأخبار عنا.

وتحتاجُ، في القسم الآخر، إلى إذكاء العيون وشدة البحث عن الأخبار، و(الجهد) في صَرْف نفوس [هندية ١٧٦أ] الأعداء عن العلم بالعداوة وتَرْك المُكاشفة ما وجد منها

=سيرةأردشير. وقارن بالعبارة منسوبة إلى أنوشروان أو ذي الأكتاف، في: بهجة المجالس ١/ ٣٣٧، وسراج الملوك ص ٩٧، ولُباب الآداب ص ٣٧، وتسهيل النظر ص ٢٩٢، وسياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبد الله ق ١٨أ.

(١) قارن بأثر مشابه في العقد الفريد ١/ ٤٣- ٤٤، ونهاية الأرب ٦/ ٤٥، وبهجة المجالس ١/ ٣٤٠، وآثار الأوَل في ترتيب الدول ٦١، وسراج الملوك، ص٤٥، وفي الحكمة الخالدة ص ١٨٧: بمنعٍ أضغن، وبذل أبطر...

(٢) قارن بسراج الملوك ص ٤٩ حيث يُنْسب القول "لبعض الملوك". وانظر لطف التدبير ص ١٢، وبهجة المجالس ١/ ٣٥١.

مندوحةً عنها. وقد قيل: مَنْ عَرَّفَكَ بعداوته فقد كفاك نصف مكيدته. وترك العداوة ما وجد منها مندوحةً عن القتال لأنه يجب على الملك أن يعتقد أنّ مملكته كأعضائه التي منها ما به بقاءُ نفسه، ومنها ما به حُسْنُ بقاء عيشه. فإذا غلب على أحدهما داءٌ في جسمه اجتهد في عِلاجِهِ من غير مضرَّةٍ بعضوه، ولم يقدم على المُخاطرة به إلّا بعد العلم أنه لا صلاحَ للجسد إلّا ببذله. وقد كان الملوك إذا أرادوا كيد أحدٍ اجتهدوا أن يصرفوا عن فكره ما يريدون من كيده، وظاهروه بما يمحو صورةَ الحَذَر من نفسه ليطرح الاحتراز فتبدو مَقَاتِلُهُ، فإنْ أعجزهم صرف نفسه عن ذلك احتالوا أن يكيدوه كيداً ظاهراً اشتغل به خاطِرُهُ، ويقدِّر أنَّ ذلك غاية [هندية ٧٦ب] ويكون ذلك مشغلةً له، وصرْفاً لخاطره عما يروّنه ويوهمونه عن مقارنته في الرأْي فيقدّر أنه غاية ما رُمي به. فصلاحُ الملك في الأمْرَيْنِ مبنيٌّ على الاحتراز. وكان بعض فضلاء الملوك يقول(١): عجبتُ للسلطان الذي يتحمّل مرآة الكتب والأخبار ويعتدُّها لهواً أيما لهو، وللمدبّر الذي لا

---

(١) في تسهيل النظر للماوردي ص ٢٧٠: «عجبت للسلطان الذي لا يتخذ بقراءة الأخبار لهواً بماذا يلهو؟ وللمدبّر الذي لا يعلمُ ما حدث في عمله كيف يُمضي تدبيره؟!».

يعلم ما يحدثُ في عمله كيف يمضي تدبيره. وأصل البلاء في لقاء الأعداء الاتّكال على القوة، واطّراح المكيدة والحذر. والعورةُ موجودةٌ مع الاتكال على القوة، والركون إلى الاستغناء عن الحيلة. ورأسٌ المكيدة العَدْلُ وحُسْنُ السيرة. وقد قيل لبعض الحكماء: بأي مكيدةٍ كان الاسكندرُ يكيدُ الناس حتى أذعنوا له؟ والملوك حتَى خضعوا؟ فقال: بالعدل وحُسْنِ السيرة. وكان للإسكندر أصلان عجيبان في قتال الأعداء وفتوح البلدان[1]: أول ذلك أنه ابتدأ (يستخبر) عن سيرة الملك الذي يقصده حالاً وجنداً، فلا يخلو أن يكون في سيرته بعض الحيف والجَوْر أو ميل مع الهوى أو فساد في تدبير أو تضييع السُّنَّة. فإن تحقق لديه ذلك كتب إليه: قد بلغني عنكَ كذا وكذا، أو إنك تجورُ رعيتك بكذا وكذا وتُفارق السنة بكذا أو كذا فإن أنت انتقلتَ عن ذلك فأنت لي أخ وأنا لك عوْنٌ، وإنْ أَبَيْتَ ذلك فإني قد جعلتُ على نفسي إفاضةَ الحق، وإحياء السنة، والأَخذَ للمظلوم من الظالم، وليس الإسكندرُ، وأصحابُهُ ممن يُبالي بالموت فإنَّ موتاً على الحق خيرٌ من حياة على باطل، ولأنْ نهلكَ طلباً للحق خيرٌ من أنَ نعيش قاعدين عنه. فتمنع عزّة الملك غيره [ق٥٥ب]

(١) قارن بخبر مشابه في الحكمة الخالدة ص ١٨٧.

من الملوك من الدخول له [هندية ١٧٧أ] تحت ما شَرَط فيُقلِّدَهُ بذلك البغي فتصير أنصاره أعداءه ويستفسد عليه رعيته. فإذا غلب على ملكٍ أخَذَ خاصته وخلطهم بخاصَّةِ نفسه وأفاض عليهم وأَحْسَنَ إليهم وغَيَّرَ ما أَنْكَرَهُ على مَلِكِهِمْ، فكان الناسُ يتمنون دولتَهُ ويرجُونَ مُلْكَهُ فيكفونه أمره.

واعلم أيها الملكُ أنّ رأس التدبير المشورة، وإذا أَمِنْتَ ما في إبداء الرأيِ من المضرة فإن من الأُمور ما المضرَّةُ عند إظْهَاره بالمشَاورة أكثر من المنفعة، فإذا وقع ذلك فَسَلْ عن أشباهِهِ وأمثالِهِ وسل عما يتحقق منك أن تعلمه يحمل على ذلك سؤالك عما لا تعلمه، واستشر فيما لا حاجة لك إليه فيحمل ذلك على استشارتك في غير ذلك، وعليك بسيرِ الملوك الأفاضل والبحث عما فعله كُلُّ واحدٍ منهم في الوقت الذي طرأ عليه مثل ما طرأ عليك فإنّ ذلك يقوم مقامَ حضورهم ومشورتهم بل أفضل لأنهم لو حضروا واستُشيروا وأشاروا لما اجتهدوا كاجتهادهم لأنفسهم ولا كان لهم دَوَاع بحسب ما لَهُم في أُمورهم، والملكُ لا يقدرُ أن يحضر [ق٥٦أ] مَنْ مضى من العلماء ويستشيرهم فيما دَهَمَهُ من أَمْرٍ يحتاج إليه من رأي، ولكنه يقدر أن يقرأ كتبهم [هندية ٧٧ب] التي قد اجتهدوا فيها آراءهُم وخبروا فيها أفعالَهُم وعَرَضوا

بها عقولَهُم للتأمل وآراءهُم للتصفُّح فيحظى بمشورتِهِمْ من غير أَنْ يلحقَهُ ما يلحقُ المستشير من إبْداء أَمرِهِ وإذاعةِ سره فينال أكثر مما في المشورة من المنفعة ويسلم مما فيها من المضرة. فإذا أَمِنْتَ أيها المَلِكُ من مضرة إبْداء ما تستشير فيه لمن تستشيرُهُ فعليكَ بها. وقد قال بعض الحكماء: لا يَقَعَنَّ في رُوعِكَ أنكَ إذا استشرْتَ الرجالَ ظهر للناس منكَ الحاجة إلى رأْيِ غيرِكَ فإنك لستَ تُريدُ الرأْيَ للفخر به ولكنك تُريدُهُ للانتفاع به[١]. ولو أنك مع ذلك أردْتَ الذِكْرَ لكان أحسن الذِكْرَين وأفضلهما عند أهل العصر أن يُقالَ: لا ينفردُ برأيه دون استشارةِ ذوي الرأي. وقد قيل[٢]: قلوبُ المُلوكِ كالمصابيح تُضيءُ بالرأْي المستفاد وتنطفىءُ إذا انقطعت عنه المواد. واعلم أنَّ شَرَف الملك في العدل كما أنَّ شَرَفَ

---

(١) ترد العبارة بكاملها في الأدب الكبير (رسائل البلغاء/ ١٩٥٤) ص ٤٦. وانظر سراج الملوك (ط. الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ) ص ٦٣، وعيون الأخبار ١/ ٣١، والسعادة والإسعاد ٤٢١، ونهاية الأرب ٦/ ٧١. وفي أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ٣٠٦): «ولا ينبغي أن يتصور في نفسه أنه إن شاور في أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر إلى رأي غيره فإن هذه معاذير النَوْكَى. وليس يُرادُ الرأي للمُباهاة به وإنما يراد للانتفاع بنتيجته والتحرز عن الخطأ عند زلله. وكيف يكون عاراً ما أدّى إلى صواب وصدّ عن خطأ».

(٢) قارن بكليلة ودمنة ص ١٥٠- ١٥٢.

الشمس التي هي دليلةُ المُلْكِ في بُرْج العدل [ق٥٦ب]. وعلوّه بالعلم كما أنَّ عُلُوها في بُرْج كوكب العلم. ويَتَّضِعُ باللهو والهزْل كما أن هُبُوطَهَا في بُرْج كوكب اللهو والهزل. وذُكِرَ أن الإسكندر قال لبعض ملوك الهند - وقد دخل بلاده -: ما عَلاَمَةُ إقْبالِ الملك؟ قال: الجِدُّ في كل الأمْر. قال: فما عَلاَمَةُ زواله؟ قال: الهزل فيه. قال: فما سُرُورُ الدنيا؟ قال: الرضا بما رُزِقْتَ. قال: فما غَمُّها؟ قال: الغَمُّ على ما لعلَّكَ لا تنالُهُ[١].

وودَّعَ الملِكَ ومضى.

فلما فارقه تتبَّعَتْ نفسُهُ ما كان فيه من الدنيا واستوحَشَتْ من مُفَارَقَتِهَا لما تلبَّس به من عاداتها. فأقبل على لومها وعَذْلها. فقال: يا نفس! إنَّ الدنيا لا تدومُ فَمَنْ لا يُفَارِقُهَا طَوْعاً وهو محمود فَارَقَهَا كرهاً وهو مَذمومٌ. يا نفس! إنَّه مَنْ أمات شهوتَهُ في الدنيا أحيا نفسهُ في الدار الأخرى[٢]. يا

(١) في صوان الحكمة المنسوب لأبي سليمان المنطقي (بدوي/ ١٩٧٨) ص١٦٣: "وسأله بعض الملوك- المسؤول هو الإسكندر- عن علامة ثبات الملك فقال: الجد... إلخ". وقارن بالمحاورة في سراج الملوك ص١٥٢، وقوانين الوزارة ص١٣٤، وعيون الأخبار ١/ ١٠. وفي الفخري لابن الطقطقى ص ٥٣ أيضاً أن المسؤول هو الإسكندر.

(٢) قارن بكليلة ودمنة ص ٢٦- ٢٨.

نفس! إذا جزعْتِ من فِراقِ الدنيا وأنتِ فيها ولكِ قدرةٌ على الرجوع إليها فكيف يكون حالك وقد خَرجْتِ منها وحِيْلَ بينك وبينها. يا نفس! إنَّ المرءَ يُفارقُ حبيبَهُ الذي قد أَلِفَهُ المدة [ق٥٧أ] اليسيرة فيؤْثِرُ الموتَ في الدنيا ساعةً واحدة، فكيف يكونُ حالُك إذا بقيت في الدنيا طول عُمُرِك لا تَعرفنَّ إلّا الشغل بلعبها ولا تَصْرِفنَّ نفسك إلى غير التنعُّمِ فيها ثم فارقتها وقد بقيت في نفسك عاداتُها، وحِيْلَ بينك وبين شهواتها. كيف حالُك وقد ذهبت المادَةُ وبقيت العادةُ!

يا نفس! إنما مَثَلُكِ في الدنيا مثل رجلٍ ولاّه بعض الملوك بلداً غزيرَ الخير كثيرَ الأشجار والثمار، متخرّق الأنهار، طيّبَ الماء معتدل الهواء، وكان بينه وبين ذلك البلد مفازةٌ لا يبلغُهُ إلا بعد جوازِها، ودَفع إليه من الزاد والظَهْرِ ما ينهضُ به في قَطعِها. وكانت نفسُ ذلك الرجل تُجاذبُهُ إلى الشهوات فلم تقتصر على ما تدعوه إليه الحاجةُ من القُوت، ولا كَفَّ نفسه أيام عبور تلك المفازة. فاصطنع له ألواناً من الأطِعمةِ والأشْرِبَةِ وصنُوفاً من الحلو والفاكهة وأَضَافَهَا إلى الزاد الذي لا بُدّ منه وحملها على الظهر. فلما توسَّط المسافة انقطع الظهرُ فبقي مُديدةً يتعلّلُ بتلك الأصناف المحمولةِ حتى فرغت فمات جُوعاً وَعَطَشاً. ولو صبر الأيام [ق٥٧ب] اليسيرةَ

لأفْضى به الصبر إلى أَضْعَافِ ما صبر عنه فاستمتع به طول عُمُرِه.

يا نفس! إنَّ المرءَ ليَحْتَمي حَوْلاً لصحةِ حوْلَيْنِ لا بد من انصرامِهِما، ويتكلف المشقَّةَ أياماً لِيَصِحَّ جسمُهُ مدة أيام تفنى وأعوامٍ لا تبقى. أُفٍّ! لا تحتمين من المعاصي مدةً يسيرةً وتمتنعين عن لذةٍ منقطعةٍ وشهواتٍ بالتنغيص مشوبةٍ لتنالي لذاتٍ خالصةً وحياةً متصلةً وشهوات غير منقطعة.

يا نفس! إنَّ المرءَ ليترك الشهوات مدةً من الزمان خوفاً من آلامٍ قليلةِ المَقَام سريعة الزوال وشيكة الانتقال، أَفَلاَ تتركين هذا الحُطَامَ الذي يعقُبكِ عذابَ الدهر وعقاب الأبد.

يا نفس! لو تكَلَّفْتِ الصبرَ على أشدّ العذاب ألوفاً من السنين تعلمينَ أنَّ لها انقطاعاً تصيرين من بعده إلى لذةٍ دائمةٍ وحياةٍ باقيةٍ لَأعَانَكِ على الصبر عليها (عِلْمُكِ) بانقطاعِها ولسهل عليكِ ذلك الألم [ق٥٨أ] بمعرفتك بما تصيرين إليه من بعدها. فكيف وإنما تصبرين مدةً يسيرةً عن شهواتٍ حقيرة، وتتكلّفين فيها من الآلام أضعافَ ما تنالين من اللذّات وتشتغلين بحفاظها عن اللذّة والاستمتاع بها(١).

---

(١) قارن هذا الفصل بفصل الماوردي في أدب الدنيا والدين (١٠١- ١٢١). وباب برزويه الطبيب من كليلة ودمنة ص ٢٦- ٢٨.

يا نفس! إنَّ الحكماءَ قد ضربوا للمرء في الدنيا مثلاً وهو أنَّ ثلاثة نفرٍ[١] خرجوا يريدون أرضاً شاسعةً في أنفِ من الزمان فمروا بروضةٍ قد التفَّتْ أشجارُهَا وتهدَّلَتْ ثمارُها وكثُرتْ أنوارُها طيبة المَذَاق وخيمة العاقبة. فلمَّا رأى النفر الثلاثةُ حالها قال أحَدُهُم- وهو أكْيَسُهُمْ-: إنه لا ينتفع بعلمه مَنْ ترك العَمَل به، وليس ما يدرك من فضل الشهوة يقوم بمقدار السلامة، فَغَالَبَ هواه وتَقَدَّمَ على بصيرتِهِ فنجا ولم يَعْلَقْ به شيءٌ من أدوائها. وبلغ الغاية فثوى، وأشرف الأمل، واستجاد المثوى وأخصب المحلّ. وقال الثاني: لو أقمْتُ بهذه الروضة أياماً فنلْتُ من طيب [ق٥٧ب] ثمارها وأرحْتُ نفسي أياماً بفيئها ثم توجَّهْتُ فإنَّ الوقتَ ممكنٌ والزمان غير ضيق. فأقام فيها. فلما تطعَّمَ طيب ثمارها وذاق حلاوتَها لم يلبثْ حتى أنهكت جسمَهُ وتناولت من قوته فبادر الحَزْم في ابتداء الأمرِ فتوجَّهَ وقد احتمل من أدوائِهَا وآفةِ مآكِلِها ما يكادُ

(١) هذا المثل للدنيا وسيرة الناس فيها مأخوذٌ مع بعض التعديل عن رسالة الكندي "في الحيلة لدفع الأحزان" وتبدأ القصة هناك: "فإن شبه الناس في مجازهم في هذا العالم.. كقوم ركبوا مركباً إلى غاية قصدوها هي محلُّهم فانتهى بهم قيّم المركب إلى مرفإٍ قصدوه لبعض الحاجة فأرسى مركبه فخرج من كان في المركب للحاجة اللازمة...". ثم يقسمهم إلى أربعة أقسام تشبه في تفاصيلها وألفاظها ما يرد هنا عن الأقسام الثلاثة، قارن برسالة الكندي في التحيل لدفع الأحزان، في رسائل فلسفية (نشرة بدوي/ ١٩٧٣) ص ٢٣- ٢٧.

يقطعُهُ عن الخروج منها واللحاق بموضعه والبلوغ إلى قَصْده. فمضى مُتَحَامِلاً فأدرك موضعه، ولم يَكدْ فوجد صاحبَهُ قد سبق إلى أخصب المكان وأجْود المَثْوى وأوسع الأغْطان. وأما الثالث فغَلَبَتْهُ شهوتُهُ وانقطعتْ عنه رويّتهُ لما رأى من طِيب المكان وكثرة الثمار وحُسْن الأزهار، فترك ما علم من عاقبة أمره لعاجلٍ فكان لا يزداد لِلَذّتِهِ اتّباعاً إلّا ازداد عن مطلبه عَجْزاً ومن دَرْكِ غايته بُعْداً، حتى تَقَضَّى أوانُ الثمار وهاج النبْتُ ويبستِ الغُدْرانُ وهاج به ما تخمّرَ في أعضائه من تلك الوخامةِ فلم يَزلْ يُقاسي أنواعَ الأوجاع حتى تَلِفَتْ روحُهُ على أسوأ حال(١).

يا نفس! لا يحملكِ حُطامُ الدنيا على الهلاك بها فتكونين كالذبابة التي يُغْرِقُهَا في العَسَل محبتُها له.

يا نفس! إنَّ لذة الدنيا كزهر الربيع يعودُ بعد قليلٍ شوكاً.

يا نفس! الدنيا كالقَصَّاب الذي يُسَمِّنُ ليذبح لا ليمنح، وكالصياد الذي يطرحُ الحَبّ ليصيدَ لا ليجُود.

* * *

(١) قارن بمثل مشابه ضربه الغزالي في نصيحة الملوك (بهامش سراج الملوك للطرطوشي. ط. مصر(١٣٠٦هـ) ص ٣٧- ٣٩. وانظر أيضاً باب برزويه "في كليلة ودمنة" ص ٢٦- ٢٨.

ثم انقطع إلى بيتٍ من بيوت العبادة في بعض الجبال فَخَلاَ برياضة نفسه وعبادة ربه وإصلاح ما أفسدَتْهُ المُخَالطَةُ من عادته. وكان الملكُ يزورُهُ من وقتٍ إلى وقت إلى أنْ فَرَّقَ الدهرُ بينهما.

* * *

تمّ كتاب الأسد والغَوّاص
بحمد الله ومنّه. وكان الفراغُ من نسخه يوم الخميس
عشرين من جُمادى الآخر سنة خمسين وتسعمئة.
وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وسلّم (*).

(*) في هامش المخطوطة التيمورية: تم كتاب الأسد والغواص بعون الله في الليلة الثالثة من صفر الخير تسع وعشرين وثلاثمئة وألف.
وفي آخر الهندية: تم النسخ في عام أحد وثلاثين ومئة وألف بعد الهجرة.
ورأيتُ في الأم المنسوخ منها هذه النسخة ما لَفْظُهُ في ذكر التاريخ: وكان تمامها في شهر صفر المظفر بالخير سنة خمسمئة وثلاثين، فصحّ لها إلى تاريخ هذه ستمئة سنة وسنة واحدة. سبحان مكوّر الدهور ومدبّر الأمور.

* * *

ثبت المصادر والمراجع

- آثار الأُوَل في ترتيب الدول للحسن بن عبد الله العباسي، ط. مصر ١٢٩٥هـ.
- الآمل والمأمول المنسوب للجاحظ، تحقيق رمضان ششن، بيروت ١٩٦٨.
- الأحكام السلطانية للماوردي. بون ١٨٥٣، والقاهرة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م.
- أحاسن المحاسن لأبي الحسن الرخّجي، ضمن مجموعة خمس رسائل، الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠١هـ.
- إحياء علوم الدين للغزالي، ١-٥، القاهرة ١٣١٢هـ.
- الأخلاق لجالينوس، الترجمة العربية القديمة. نشرة باول كراوس، بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٣٧.
- الأخلاق لجالينوس، الترجمة العربية القديمة. نشرة د. عبد الرحمن بدوي؛ في: الفلسفة والعلوم عند العرب، بيروت، ١٩٨١.

- الأخلاق إلى نيقوماخوس لأرسطوطاليس. ترجمة حُنين بن إسحاق. تحقيق عبد الرحمن بدوي، بيروت ١٩٧٩.

- الأخلاق والسِيَر. انظر: مداواة النفوس.

- الآداب لجعفر بن شمس الخلافة. القاهرة، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

- الآداب لابن المعتزّ. دراسة وتحقيق صبيح رديف. بغداد ١٩٧٢.

- أدب الدنيا والدين للماوردي، نشرة مصطفى السقّا، بيروت ١٩٧٨.

- الأدب الكبير لابن المقفّع؛ في: رسائل البلغاء لمحمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٤٦.

- الأذكياء لابن الجوزي. تحقيق محمد مرسي الخولي. القاهرة ١٩٦٩.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البرّ، ١-٤، تحقيق محمد علي البجاوي. القاهرة بدون تاريخ.

- الأسد والغَوَّاص. حكاية رمزية عربية من القرن الخامس الهجري. الطبعة الأولى. باعتناء رضوان السيد، دار الطليعة بيروت ١٩٧٨.

- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لمحمد بن علي القاري. تحقيق محمد الصبّاغ. بيروت ١٩٧١.

- الإشارة إلى أدب الإمارة للماوردي، تحقيق رضوان السيد. بيروت ١٩٨١.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ١-٨. القاهرة ١٣٢٣-١٣٢٥هـ.
- الإعلام لمناقب الإسلام لأبي الحسن العامري. تحقيق ودراسة الدكتور عبد الحميد غراب. القاهرة ١٩٦٧.
- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ١-١٦ (مصورة عن نشرة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٦٣) و١٧-٢٤ (١٩٦٧-١٩٧٤).
- أفلاطون في الإسلام. نصوص جمعها وعلّق عليها الدكتور عبد الرحمن بدوي. طهران ١٩٧٤.
- اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي. نشر ناصر الدين الألباني. بيروت ١٩٧٢.
- أمالي المرتضى المسمّى بغرر الفوائد ودرر القلائد، ١-٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي. بالقاهرة ١٩٥٤.
- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، ١-٣، تحقيق الدكتور أحمد أمين وأحمد الزين. القاهرة ١٩٣٩-١٩٤٤.
- الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام. تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش. دمشق ١٩٨٠.

- الأمثال للضبي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت ١٩٨١.

- الأمثال والحكم للماوردي. تحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، قطر، ١٩٨٣.

- أنساب الأشراف للبلاذري. المجلد الثالث. تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري. والمجلد الرابع، القسم الاول، تحقيق إحسان عباس. نشر المعهد الألماني للأبحاث الشرقية. بيروت ١٩٧٨ -١٩٧٩.

- أُنس المحزون لصفي الدين أبي الفتح الحلبي، مخطوطة جامعة ييل.

- الإيجاز والإعجاز للثعالبي، ضمن مجموعة خمس رسائل، الجوائب، ١٣٠١هـ.

- بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق، ١-٢، تحقيق الدكتور علي سامي النشار. بغداد ١٩٧٧.

- بدء الخلق وقصص الأنبياء لأبي رفاعة عمارة بن وثيمة، نشر ر.ج. خوري، فيسبادن، ١٩٧٨.

- البدء والتاريخ لأبي طاهر المقدسي، ١-٦، تصوير مكتبة خياط ببيروت، بدون تاريخ.

- البداية والنهاية لابن كثير، ١-١٤، بيروت، ١٩٦٦.

- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، ١-٤، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني، دمشق، ١٩٦٤-١٩٦٦.

- بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر، ١-٢، تحقيق الدكتور محمد مرسي الخولي، القاهرة، ١٩٦٢.

- البيان والتبيين للجاحظ، ١-٤، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٨.

- التاج المنسوب للجاحظ، تحقيق أحمد زكي باشا، مصر، ١٩١٤.

- (كتب) التاج والآيين، الترجمة والنقل عن الفارسية لمحمد محمدي. بيروت ١٩٦٤.

- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، ١-١٠، المطبعة الخيرية بالجمالية، ١٣٠٦هـ.

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام للحافظ الذهبي، ١-٦، نشر حسام الدين القدسي بالقاهرة ١٣٦٧هـ.

- تاريخ الأمم والملوك للطبري، ١-٤، تحقيق دي غويه، لايدن، ١٨٧٩-١٩٠١.

- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ١-١٤(طبعة بالأوفست صدرت عن مكتبة المثنى ببيروت عن طبعة الخانجي الأولى).

- تاريخ الخلفاء للسيوطي، القاهرة، ١٣٠٥هـ.

- تاريخ الخميس للديار بكري، ١-٢، نشر مؤسسة شعبان ببيروت عن طبعة مصر، ١٢٨٣هـ.
- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت، ١٩٦١.
- تاريخ مدينة صنعاء للرازي، تحقيق حسين العمري وعبد الجبار زكّار، دمشق، ١٩٧٤.
- تاريخ اليعقوبي، ١-٣، تقديم محمد صادق بحر العلوم، النجف، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- التبر المسبوك في نصيحة الملوك للغزالي (على هامش سراج الملوك للطرطوشي). مصر ١٢٨٩هـ.
- التبر المسبوك في نصيحة الملوك للغزالي. تحقيق محمد أحمد دمج. بيروت ١٩٨٧.
- تحفة الوزراء المنسوب للثعالبي، تحقيق ر. هاينكه، بيروت، ١٩٧٥.
- تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي، ١-٤، حيدر آباد، ١٣٧٤هـ.
- التذكرة الحمدونية لابن حمدون، ١-٢، تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت ١٩٨٣-١٩٨٤.
- التذكرة السعدية في الأشعار العربية لمحمد بن عبد الرحمن العبيدي، تحقيق عبد الله الجبوري، النجف، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م.

- الترغيب والترهيب للمنذري، ١-٤، ضبط وتعليق مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي ببيروت، بدون تاريخ.
- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك للماوردي. تحقيق رضوان السيد. بيروت ١٩٨٧.
- التعريفات للجرجاني، تصوير مكتبة لبنان عن طبعة لايدن، بيروت، ١٩٦٩.
- تلخيصات ابن رشد لجالينوس، تحقيق ك.ب. دي بينيتو، مدريد، ١٩٨٤.
- التمثيل والمحاضرة للثعالبي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
- التنبيه والإشراف للمسعودي، نشر دي غويه، لايدن، ١٨٩٤.
- تهذيب الأخلاق لمسكويه، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٦٦.
- تهذيب الأخلاق ليحيى بن عدي، تحقيق ودراسة الدكتور ناجي التكريتي، بيروت، ١٩٧٨.
- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، اختصار عبد القادر بدران، ١-٧، تصوير دار المسيرة ببيروت، ١٩٧٩.
- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ١-١٢، حيدر آباد، ١٣٢٥-١٣٢٧هـ.

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٣٨٤/ ١٩٦٥م.

- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ١-٢، دار الفكر ببيروت، بدون تاريخ.

- الجامع الصحيح للبخاري، ١-٩، كتاب الشعب بالقاهرة، بدون تاريخ.

- الجامع الصحيح - السنن للترمذي، ١-٥، تصحيح عبد الوهاب عبد اللطيف، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

- الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج النيسابوري، ١-٥، نشرة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ببيروت ١٩٧٨.

- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، ١-٩، نشرة حيدر آباد الدكن، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، ١-٢، تحقيق عبد المجيد قطامش ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٤.

- الجمهورية لأفلاطون، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، المؤسسة المصرية العامة، بدون تاريخ.

- الجوهر النفيس في سياسة الرئيس لابن الحداد، تحقيق رضوان السيد، بيروت، ١٩٨٣.

- الحكمة الخالدة لمسكويه، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، القاهرة، ١٩٥٢.
- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، ١-١٠، القاهرة، ١٩٣٢-١٩٣٨.
- خاص الخاص للثعالبي، مصر ١٩٠٨.
- الخراج لأبي يوسف، نشرة أحمد شاكر، القاهرة، ١٣٥٢هـ.
- الخراج ليحيى بن آدم، نشرة جوينبول، لايدن، ١٨٩٦.
- الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي، بغداد، ١٩٨١.
- خلاصة الذهب المسبوك للإربلي، تصحيح مكي السيد جاسم، بغداد، بدون تاريخ.
- الخوارز مشاهي للثعالبي، مصورة عن مخطوطة السليمانية رقم ١٨٠٨.
- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة لحمزة بن الحسن الأصفهاني، تحقيق عبد المجيد قطامش، ١-٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧١-١٩٧٢.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني، مطبعة الوطن بمصر، ١٣٠٨هـ.
- رسائل البلغاء، جمع وتحقيق محمد كرد علي، لجنة التأليف

والترجمة والنشر بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٤٦، والطبعة الرابعة، ١٩٥٤.

- رسائل فلسفية. تحقيق وجمع عبد الرحمن بدوي، ١٩٧٣.

- روضة العقلاء لابن حبان البستي. تصحيح مصطفى السقا. القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

- الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري، ١-٢، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، بغداد، ١٩٧٩.

- زهر الآداب وثمر الألباب للحصري، ١-٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، تصوير دار الجيل ببيروت، ١٩٧٢.

- سجع الحمام في حكم الإمام جمع وضبط الجندي وإبراهيم والمحجوب، القاهرة، ١٩٦٧.

- سر الأسرار المنسوب لأرسطو (في: الاصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام، ج١)، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، القاهرة، ١٩٥٤.

- سراج الملوك للطرطوشي، نشرة مصر، ١٢٨٩هـ ١٣٠٦هـ

- سراج الملوك للطرطوشي، تحقيق جعفر البيّاتي. رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩٠.

- سرح العيون لابن نباتة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي بمصر، ١٩٦٤.

- السعادة والإسعاد لأبي الحسن العامري، نشرة مجتبى مينوى، فيسبادن، ١٩٥٧-١٩٥٨.

- سلوك المالك لابن أبي الربيع، تحقيق الدكتور ناجي التكريتي، بيروت، ١٩٧٨.

- سنن أبي داود، ١-٥، تحقيق عزت عبيد دقماس، حمص سورية، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

- سنن ابن ماجه القزويني، ١-٢، نشرة محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، ١٩٥٢.

- سنن النسائي، ١-٧، بشرح السيوطي وحاشية السندي، المطبعة العصرية الأزهرية بمصر، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

- سياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبدالله، مخطوطة المتحف البريطاني.

- السياسة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور مصطفى الحيادي، عمان، ١٩٨١.

- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، ١-٢٤، تحقيق مجموعة من الأساتذة باشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٨١-١٩٨٥.

- سيرة عمر لابن الجوزي، القاهرة، ١٣٣١هـ.

- سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، نشر أحمد عبيد، دمشق، ١٩٥٤.

- شرح ديوان المتنبي للواحدي، تحقيق فريدرخ ديتريصي، طبع برلين، ١٨٦١، مصورة بالأوفست، بيروت، بدون تاريخ.

- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ١-٢٠، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٣.

- الشهب اللامعة في السياسة النافعة لابن رضوان، نسخة الخزانة العامة بالرباط، رقم ٧٢٩.

- طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، ١٩٥٥.

- طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، القاهرة، ١٩٥٦.

- العقد الفريد لابن عبد ربه، ١-٧. تحقيق أحمد أمين وآخرين. القاهرة ١٩٤٨-١٩٥٣.

- العقد الفريد للملك السعيد لابن طلحة. ط. مصر ١٣١٠هـ.

- العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ١-٢، القاهرة ١٩٧٠.

- عهد أردشير، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ببيروت ١٩٦٧.

- عين الادب والسياسة لابن هذيل. طبعة مصر ١٣٠٢هـ.
- عيون الاخبار لابن قتيبة، ١-٤، دار الكتب بالقاهرة ١٩٢٤-١٩٣٠.
- عيون الأنباء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة، ١-٢. القاهرة ١٢٩٩هـ.
- غرر أخبار ملوك الفرس للثعالبي، نشر زوتنبرغ، مصورة أوفست بطهران ١٩٦٣.
- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة للوطواط. مصر ١٣١٨هـ.
- غريب الحديث للخطابي، ١-٣، تحقيق عبد الكريم العزباوي. منشورات جامعة أم القرى ١٩٨٣.
- الفاخر للمفضل بن سلمة، تحقيق عبد العليم الطحاوي. القاهرة ١٩٦٠.
- الفاضل للمبرد، تحقيق عبد العزيزالميمني. القاهرة ١٩٥٦.
- فتوح البلدان للبلاذري، تحقيق دي غويه، لايدن، ١٨٦٦.
- الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي، نشرة دار صادر بيروت، بدون تاريخ.
- فرق الشيعة للنوبختي، عني بتصحيحه هـ. ريتر، استنبول، ١٩٣١.

- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري، تحقيق الدكتور إحسان عباس وعبد المجيد عابدين. بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

- فصول منتزعة للفارابي. تحقيق فوزي متري نجّار، بيروت ١٩٨٦.

- الفهرست لابن النديم. تحقيق رضا تجدد. طهران ١٣٩١هـ/ ١٩٧١ م.

- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ١-٥، تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت ١٩٧٤.

- فيض القدير شرح أحاديث الجامع الصغير للمناوي، ١-٦. بيروت ١٩٧٢.

- قوانين الوزارة وسياسة الملك للماوردي، تحقيق ودراسة رضوان السيد، دار الطليعة ببيروت، ١٩٧٩.

- الكامل في اللغة والأدب للمبرد، ١-٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، القاهرة ـ ١٩٥٦.

- كتاب بروسن في تدبير المنزل، نشرة مارتن بلسنر. هايدلبرغ ١٩٢٨.

- كشف الخفاء للعجلوني، ١-٢، الطبعة الثانية، باعتناء أحمد القلاش. حلب ١٩٧٩.

- الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمي ببيروت، دون تاريخ.

- الكلم الروحانية لابن هندو، تصحيح وطباعة مصطفى الدمشقي. مصر ١٩٠٠.

- كليلة ودمنة، ترجمة ابن المقفّع، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزّام، دار المعارف بمصر، ١٩٤١.

- كليلة ودمنة. نشره دي ساسي. باريس ١٨١٦ .

- كليلة ودمنة. تأليف بيدبا الفيلسوف الهندي. تعليق وشرح مصطفى لطفي المنفلوطي. ط. دار الفكر بيروت. بدون تاريخ.

- كنز الملوك لسبط ابن الجوزي، نشرة ج. فيتستام، لايدن، ١٩٧٩.

- لباب الآداب لأسامة بن منقذ، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٣٥.

- مجالس ثعلب، ١-٢، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٦٠.

- المجتنى لابن دريد، نشرة دار الفكر بدمشق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- مجمع الامثال للميداني، ١-٢، دار الفكر ببيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م.

- مجمع الزوائد للهيثمي، ١-١٠، نشر دار الكتاب ببيروت، ١٩٦٧.

- محسن البلاغة لتدميري، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط.

- المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ، نشر المكتبة الشعبية ببيروت، بدون تاريخ.

- المحاسن والمساوئ للبيهقي، ١-٢، تحقيق محمد أو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦١.

- محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، ١-٤، بيروت، ١٩٦١-١٩٦٣.

- محاضرة الأبرار لابن عربي، ١-٢، القاهرة، ١٩٠٦.

- المحبّر لابن حبيب، نشرة حيدرآباد الدكن، ١٣٦١هـ/١٩٤٢م.

- المحكم لابن سيده، ١-٧، نشر مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة، ١٩٥٨-١٩٧٣.

- مختار الحكم ومحاسن الكلم للمبشر بن فاتك، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي. مدريد ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.

- مداواة النفوس لابن حزم (=رسالة في مداواة النفوس)، في: رسائل ابن حزم الاندلسي، نشرة الدكتور إحسان عباس، م١، ص ٣٢٢-٤٤٦.

- مرآة الجنان لليافعي ١-٤، تصوير مؤسسة الأعلمي ببيروت عن طبعة حيدرآباد، ١٣٧٧هـ. بيروت ١٩٦٧.

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي، م١، تحقيقعبد الله الجبوري، بيروت، ١٩٨٤.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، ١-٧، تحقيق شارل بللا، منشورات الجامعة اللبنانية ببيروت ١٩٦٦-١٩٧٩.

- المستطرف من كل فن مستظرف للإبشيهي، ١-٢، نشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر، بدون تاريخ.

- المستقصى في الأمثال للزمخشري، ١-٢، تصوير دار الكتب العلمية ببيروت عن طبعة حيدر آباد. بيروت ١٩٧٧.

- المصباح المضيء لابن الجوزي، ١-٢، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، بغداد، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧.

- المسند للإمام أحمد بن حنبل، ١-٦، نشرة المكتب الإسلامي ودار صادر ببيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- المعارف لابن قتيبة، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

- المعاني الكبير لابن قتيبة، ١-٣، نشرة كرنكو بحيدرآباد، تصوير مكتبة النهضة الحديثة ببيروت، بدون تاريخ.

- معاهد التنصيص للعباسي، ١-٣، ضبط محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٩٣٦.

- معجم الأدباء لياقوت الحموي، ١-٧، تحقيق مارجليوث، القاهرة، ١٩٢٣-١٩٢٥.

- معجم البلدان لياقوت الحموي، ١-١٠، نشرة الخانجي بمصر، ١٩٠٦-١٩٠٧.

- معجم الشعراء للمرزباني، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، ١٩٦٠.

- المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان الفسوي، ١-٣، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، بغداد، ١٩٧٤-١٩٧٦.

- المغرب للمطرزي، ١-٢، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، حلب ١٩٧٩.

- مفاتيح العلوم للخوارزمي، تحقيق فان فلوتن. لايدن ١٨٩٥.

- المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤.

- مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمي، المطبعة العلمية بمصر، ١٣١٠هـ.

- المقاصد الحسنة للسخاوي، نشرةعبد الله الصديق، القاهرة، ١٩٥٦.

- مقدمة ابن خلدون، ١-٥، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٥٧-١٩٦٢.

_ المنتظم لابن الجوزي، ٥-٩. نشرة حيدر اباد ١٣٥٧ هـ.

- المؤتلف والمختلف للآمدي، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

- الموشى للوشاء، تحقيق كمال مصطفى، الطبعة الثانية بالقاهرة، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

- موضح أوهام الجمع والتفريق للخطيب البغدادي، ١-٢، حيدرآباد، ١٣٧٨هـ.

- الموطأ للإمام مالك بن أنس، صححه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الشعب بمصر، بدون تاريخ.

- نثر الدرّ للآبي، ١-٥، تحقيق محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٠-١٩٨٥.

- نثر الدر للآبي، الجزء السادس، تحقيق عثمان بوغانمي، تونس، ١٩٨٠.

- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ١-١٦، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٧٢.

- نزهة الأرواح للشهرزوري، ١-٢، حيدرآباد الدكن، ١٩٧٦.

- نسب قرشي للمصعب الزبيري، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر ١٩٥٣.

- نصيحة الملوك للماوردي، مخطوطة باريس رقم ٢٤٤٧.

- النمر والثعلب لسهل بن هارون، تحقيق عبد القادر المهيري، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٣.

- نهاية الأدرب للنويري، ١-٢٨، دار الكتب المصرية والهيئة العامة للكتاب، ١٩٢٧-١٩٨٥.

- نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، جمع الشريف الرضي، ١-٤، دار الفكر ببيروت ١٩٦٥.

- النوادر لأبي زيد الانصاري، تحقيق الدكتور محمد عبد القادر أحمد، نشر دار الشروق، بيروت ١٩٨١.

- الوافي بالوفيات للصفدي، م١٧، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، فيسبادن، ١٩٨١.

- الوحشيات لأبي تمام، تحقيق عبد العزيز الميمني ومحمود محمد شاكر، القاهرة ١٩٦٣.

- الوزراء والكتاب للجهشياري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة ١٩٣٨.

- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، تحقيق وشرح

محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، ١-٨، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت ١٩٦٩-١٩٧٣.

- ولاة مصر للكندي، تحقيق الدكتور حسين نصار. بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٥٩.

الفهرس العام